







ليلة لشبونة

The Night in Lisbon

إريش ماريا ريمارك

ترجمة د. ليلى نعيم



ليلة لشبونة



إريش ماريا ريمارك

ترجمة
د. ليلى نعيم



هذا الكتاب هو الترجمة الكاملة لكتاب:

Erich Maria Remarque:
Die Nacht von Lissabon

Droemer Knaur, Mürichen-Zürich 1968



الطبعة العربية الثانية
1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-2-84409-633-3



للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية – الدمام
تلفون: 00966505774560
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
Email: info@darathar.net

1

حملقتُ في تلك السفينة الراسية على باب الميناء بعيداً بعض الشيء عن الرصيف. كانت مضاءة بأنوار حادة، وعلى الرغم من مرور أسبوع على وجودي في هذه المدينة فإنني لم أعتَد بعدُ على أضوائها الخالية من الهموم. خلفت ورائي مدناً تقبع في ليل حالك السواد كأنه منجم فحم، مدناً يصبح فيها ضوء فانوس أشدَّ خطورة من وباء الكوليرا في القرون الوسطى. نعم.. قدمت من أوروبا القرن العشرين.

السفينة هي، في الواقع، باخرة ركاب غاصة بالمسافرين.. كنت متأكداً من أنها ستبحر في مساء الغد، وقد تم رفع تموين السفينة من لحوم وأسماك ومعلبات وخبز وخضراوات تحت أضواء المصابيح الكهربائية الساطعة، بينما أخذ عمال الميناء ينقلون أمتعة المسافرين إلى قلب السفينة. لقد حملت الرافعة المتأرجحة في الهواء الصناديق بصمت وكأن هذه الصناديق خلت من حمولتها.

السفينة تستعد الآن لرحلتها الطويلة، وكأنها ذلك الفلك من زمن الطوفان.. إنها فلك بلا شك، فكل سفينة تغادر أوروبا في هذه الأشهر من عام 1942 هي فلك، وأمريكا ليست سوى جبل أرارات. يرتفع الطوفان يوماً بعد يوم، ومياهه غمرت ألمانيا والنمسا منذ زمن بعيد وها هي تغرق بولندا وبراغ وأمستردام وبروكسل وكوبنهاجن وباريس وأوسلو.. وتبعتها مدن إيطاليا، كما أن إسبانيا لم تعد آمنة من مياهه.

سواحل البرتغال هي الوحيدة التي بقيت ملاذاً للفارين الذين أصبحت العدالة والحرية والمساواة تعني لهم أكثر من الوطن والوجود. مَن منهم لا يستطيع الوصول إلى الأرض الموعودة عن طريق هذه السواحل أصبح في عداد المفقودين، وعليه، بالتالي، أن ينزف في

مسيرته عبر أدغال إذن الدخول الممنوعة، إذن العمل والإقامة الصعبة بعيدة المنال، عبر معتقلات التعذيب والبيروقراطية والوحدة والغربة وذلك الحس المخيف المسيطر من اللامبالاة تجاه قدر الأفراد الذي هو حتمية الحرب: الخوف والعوز. لم يعد الإنسان في مثل هذه الأوقات يساوي شيئاً. الشيء الوحيد المعترَف به هو جواز سفر ساري المفعول.

أمضيت فترة بعد الظهر في كازينو "أستوريال" بقصد المقامرة، وقد ارتديت بزتي الوحيدة الصالحة. محاولتي هذه كانت المحاولة الأخيرة اليائسة لرشوة القدر. إذاً إقامتنا في البرتغال ستنتهي بعد عدة أيام، كما أنني و"روث" لا نملك فيزا. السفينة الراسية أمامي كانت حلمنا منذ أن كنا نقيم في فرنسا.. الحلم الذي سيوصلنا إلى نيويورك.. لكن بطاقتي السفر نفدتا منذ أشهر، كما أننا بحاجة إلى جانب إذن الدخول، إلى ثلاثمائة دولار ثمناً للبطاقتين، هذا إن وُجدتا. حاولت الحصول على النقود عن طريق الوسيلة الوحيدة الممكنة: المقامرة.

هذه الخطوة يائسة بحد ذاتها، فلو افترضنا أنني ربحت في المقامرة كان لا بد من حدوث أعجوبة لنتمكن من ركوب تلك السفينة. الإيمان بحدوث الأعاجيب هو إحساس ملازم لهؤلاء الذين يعيشون حالة الفرار واليأس والخوف، ولولا هذا الإيمان لفقد الإنسان قدرته على الاستمرار. خسرت ستة وخمسين دولاراً من أصل اثنين وستين دولاراً كانت في حوزتي.

بدا رصيف الميناء شبه خالٍ بعد ظهر ذلك اليوم. تنبهت، بعد فترة من وقوفي، إلى وجود شخص يسير جيئة وذهاباً بلا هدف، ثم توقف وأخذ يحملق في السفينة ذاتها، تماماً كما كنت أحملق أنا أيضاً فيها. توقعت أن يكون كغيره من الفارين ولم أُعِره أي اهتمام إلى أن انتبهت إلى أنه كان يرقبني. الرعب من الشرطة، شعور يلاحق الفار ولا يتركه حتى في المنام؛ لذا استدرت، وبلا مبالاة ظاهرة أخذت أسير بتؤدة، تاركاً

رصيف الميناء ورائي وكأني شخصٌ ليس له صلة بالخوف.

لم تمضِ فترة قصيرة حتى سمعت وقع أقدام خلفي. تابعت سيري دون أن أحث الخطى، وأخذت أفكر في الطريقة التي يمكنني أن أُعلم بها روث في حال القبض عليَّ: بدت لي البيوت الباهتة على محاذاة رصيف الميناء. كانت تشبه، بألوانها الباهتة، فراشات نائمة بعيدة كل البعد عني. تعاظمت في داخلي المخاوف بأنه لا يمكن لأحد سماع صوت الأعيرة النارية التي ستصرعني.

إنها بعيدة جدًّا عني ولا مجال للهرع إليها والاختباء بين طرقاتها الضيقة. أصبح الرجل بمحاذاتي وبدا لي أنه أقصر قامة مني. بادرني السؤال بالألمانية:

- هل أنت ألماني؟

هززت رأسي بالنفي وتابعت سيري.

- نمساوي؟

- لم أجبه.. وتابعت النظر إلى تلك البيوت الوردية الباهتة، لقد بدت كأنها تزحف تجاهي ببطء السلحفاة.

كنت أعلم أن هنالك العديد من رجال الشرطة البرتغاليين الذين يتكلمون الألمانية بطلاقة.

لم أصدقه. كان مرتدياً ثيابه المدنية، لكنني ما زلت أذكر العشرات من رجال الشرطة الذين اعتقلوني في عدة مدن أوروبية، وكانوا يلبسون ثياباً مدنية.

إنني الآن أحمل في جيبي أوراق إثبات شخصية منجزة بشكل جيد على يد بروفيسور في الرياضيات يقطن في باريس، وهو من أصل براغي. لكنها، في الأحوال كلها، تبقى أوراقاً مزورة.

عاد الرجل إلى الحديث:

- راقبتك طويلاً وأنت تنظر إلى السفينة؛ لذا فكرت أن...

رميته بنظرة جانبية لا مبالية. مظهره لا يوحي بكونه شرطيًّا، لكنني ما زلت أذكر آخر شرطي قبض عليَّ في بوردو؛ لقد كان مظهره يوحي بالشفقة وكأنه المصلوب المسكين بعد خروجه من قبره الذي بقي فيه لمدة ثلاثة أيام.

كان ذلك الشرطي هو الأشرس من بين جميع مَن وقعت في قبضتهم. لقد احتجزني على الرغم من معرفته الأكيدة أن الجيوش الألمانية ستجتاح بوردو بعد عدة أيام، وعلى الرغم من معرفته الأكيدة أن نهايتي الحتمية ستكون على أيديهم. بأعجوبة أنقذ مدير سجن رؤوم حياتي؛ حيث أطلق سراحي بعد القبض عليَّ ببضع ساعات.

سألني الرجل:

- هل تنوي الرحيل إلى نيويورك؟

لم أجبه.. بقي أمامي عشرون متراً فقط. بعد ذلك أستطيع دفعه عني والفرار.. وربما الاختفاء عن نظره إذا استدعى الأمر ذلك.

عاد الرجل إلى الحديث بعد أن أدخل يده في جيب سترته:

- هاتان بطاقتا سفر على ظهر تلك السفينة الراسية هناك. نظرت إلى البطاقتين. لم أستطِع قراءتهما في ذلك الضوء الخافت. الآن أصبح بإمكاني المخاطرة بالوقوف قليلاً، فلقد أصبحنا بعيدين بعض الشيء عن رصيف الميناء.

سألته بالبرتغالية وكنت قد تعلمت بعض كلماتها:

- ماذا تعني بقولك هذا؟

أجاب:

- بإمكانك الاحتفاظ بالبطاقتين.. فأنا لم أعد بحاجة إليهما.

- لم تعد بحاجة للبطاقتين! ماذا تعني بقولك هذا؟

- كما قلت: لم أعد بحاجة إليهما.

حملقت فيه، لكنني لم أستطِع فهمه. مظهره لا يوحي بأنه من

الشرطة. لو كان هدفه القبض عليَّ لما احتاج إلى هذه الخدع كلها. لكن لماذا لم يعد بحاجة إلى البطاقتين؟ هذا إن كانتا حقيقيتين. وماذا وراء عرضهما عليَّ؟ هل يريد بيعهما؟ عندها بدأ شيء غريب ينتفض في داخلي.

أخيراً أجبته بالألمانية وأنا أتابع سيري:

- لا أستطيع شراءهما؛ فهاتان البطاقتان ثروة بحد ذاتهما. لا بد من وجود مهاجرين أثرياء في لشبونة باستطاعتهم دفع ما تطلبه من ثمن. لقد وقعت على الرجل غير المناسب؛ فأنا لا أملك نقوداً.

- لكنني لا أريد بيعهما.

عدت وحملقت في البطاقتين.

- هل هما بطاقتان حقيقيتان؟

- ناولني إياهما دون أن يُجيب.. كانت البطاقتان حقيقيتين وكان الحصول عليهما يعني الفارق بين الغرق والنجاة. أو أستطيع بيعهما، وهذا يعني بالنسبة لي ولروث ستة أشهر أخرى من الحياة، لكنني لم أستطِع استيعاب هدف الرجل، فقلت:

- إنني لا أستطيع فهم ما تبغيه!

- تستطيع أن تحتفظ بهما دون مقابل؛ فأنا سأغادر لشبونة قبل ظهر الغد، لكن لي شرطاً واحداً.

فجأة شعرت بيدي تهويان.. لقد تأكدت هواجسي، لا يمكن أن تكون هناك حقيقة كهذه.. سألته:

- وما شرطك؟

- لا أريد أن أمضي هذه الليلة وحيداً.

- هل تريد أنْ نمضيها معاً؟

نعم، حتى الصباح.

- وهذا كل ما تشترطه؟

- هذا بالتأكيد كل ما أريده.

- ولا شيء سواه؟

- لا شيء سواه.

نظرت إليه نظرة غير المصدق.. بالطبع كنت قد اعتدت في أثناء مدة فراري على مثل هذه الحالات.. حالات انهيار الفارين أمثالي، وتفضيل هؤلاء للهرب على البقاء بمفردهم بعد أن يصابوا بعقدة الخوف من المكان؛ فهم يتعايشون مع قَدَرٍ يشير إلى استحالة وجود المكان الآمن بالنسبة لهم.. كم من مرة وجد أحدنا نفسه مشدوداً لمساعدة غريب مثله وإقناعه بالعدول عن فكرة الانتحار. كان من البديهي أن يساعد الغريب مثيله دون مقابل، لكنني للمرة الأولى أصادف شرطاً ومقايضة لمساعدة كهذه.. سألته:

- أين تقيم؟

قام بحركة يد رافضة.

- لا أريد الذهاب إلى هناك.. ألا توجد هنا حانة نلجأ إليها؟

- لا بد من وجود العديد من الحانات هنا.

ألا توجد حانة يقصدها المهاجرون كحانة مقهى الوردة في باريس؟

كنت أعرف تلك الحانة الباريسية جيداً؛ فلقد أمضيت فيها أسبوعين كاملين مع روث بما فيهما النوم. كان صاحب الحانة يسمح لنا بالمبيت مقابل طلب فنجان من القهوة. كنا نحضر الجرائد ونفترشها أرضاً.. لم أقتنع يوماً بفكرة النوم على الطاولات؛ لذا فضلت النوم على الأرض بعد فرشها بالجرائد.

أجبته:

لا أعرف بوجود حانة كهذه هنا.

كنت في الحقيقة أعرف حانة كهذه، لكنني قصدت عدم مرافقة رجل كهذا، يحمل في جيبه بطاقتين، إلى مثل هذه الحانة المليئة

بالمهاجرين اللاهثين وراء الحصول على مثل هذه البطاقات.

قال الرجل:

- أعرف حانة هنا، لكن علينا الإسراع للوصول إليها، ربما استطعنا دخولها في مثل هذه الساعة المتأخرة.

- دعنا نجرِّب، فربما لا تزال تستقبل الرواد.

أشار إلى التاكسي الوحيد الواقف بمحاذاة الرصيف ونظر إليَّ:

- حسناً.

ركبنا التاكسي ثم قال للسائق اسم الحانة.

كم تمنيت في تلك اللحظة الوصول إلى روث لأبلغها بأنني لا أستطيع العودة إليها في هذه الليلة، لكن حين استقررت داخل ذلك التاكسي المعتم، كريه الرائحة، تملكني شعور غريزي مفاجئ بالأمل الشديد الذي كاد يُفقدني توازني: هل من المعقول أن يكون ما أمر به الآن حقيقيًّا؟ هل من الممكن أن تكون حياتنا لم تشارف على نهايتها بعد وأن المستحيل أصبح واقعاً: النجاة؟

لم يعد باستطاعتي ترك ذلك المجهول بمفرده ولو لثانية واحدة.

مررنا بساحة "باركا دو كوميرسيو" المزدانة على شكل مسرحي، ثم دخلنا فوضى عارمة من الأزقة والسلالم الحجرية المتجهة إلى أعلى. لم أكن يوماً قد زُرتُ هذا الجزء من مدينة لشبونة. كنت قد تعرفت كعادتي في المدن الغريبة على كنائسها ومتاحفها - ليس لمحبتي الكبيرة للخالق والفن، لكن لسبب بسيط جدًّا هو: قلما أن يُسأل زائر كنيسة أو متحف عن أوراقه الثبوتية. الغالبية كانت ما زالت تؤمن بأن الواقف أمام المصلوب وعمالقة الفنانين لا يمكن أن يكون فرداً بأوراق ثبوتية مشبوهة.

ترجلنا من التاكسي وصعدنا سلالم أحد تلك الأزقة الآخذة في الارتفاع، التي تفوح منها رائحة الثوم، والسمك، والورود الليلية، والشمس الميتة والنوم.

ارتفعت إلى جانبنا أبراج قلعة سانت جورج وكأنها تقف شامخة تتحدى الليل، بينما انزلقت أشعة ضوء القمر على السلالم كأنها شلال مياه فضي. استدرت ونظرت إلى الميناء. هناك مصب النهر، والنهر يعني الحرية، والحرية تعني الحياة. إنه يصب في البحر، والبحر هذا يعني أمريكا.

توقفت وقلت:

- آمل ألا يكون كل ما نفعله الآن نوعاً من المزاح.

- لا.

- أعني: لا مزاح بشأن بطاقتي السفر؟

قلت ذلك لأن الرجل كان قد أعادهما إلى جيب سترته عندما كنا لا نزال نقف على رصيف الميناء.

أجاب الرجل:

- لا تخف؛ فأنا لا أجيد المزاح.

ثم أشار بيده إلى مكان صغير محاط بحزام من الأشجار.

تلك هي الحانة التي حدثتك عنها. إنها توحي بوجود بعض الرواد فيها، وهذا يعني أنه لن يتنبه أحد لوجودنا. رواد هذه الحانة هم في الغالب من الأجانب؛ لذا سوف يظنوننا بعض المغادرين في الغد، تماماً كالباقين الذين يحتفلون بإمضاء ليلتهم الأخيرة في البرتغال والذين سيستقلون السفينة غداً.

كان المكان عبارة عن حانة، بالإضافة إلى ركن مربع للرقص وشرفة.. مكان يبدو أنه صُمِّم خصيصاً لاستقبال السائحين.

تناهت إلينا من البعيد أصوات عزف قيثار منفرد وصوت مغنية ليلية. امتلأت بعض مناضد الشرفة بالرواد الأجانب منهم امرأة بلباس ليلي طويل تجلس إلى جانب رجل ببزة بيضاء فاخرة. عثرنا على مائدة خالية على حافة الشرفة، حيث يمكن للجالس إليها أن يشاهد لشبونة القابعة

أمامه بأبراج كنائسها في ظل أشعة الضوء الخافتة وشوارعها المضاءة، يطل على مينائها وعلى تلك السفينة فلك النجاة.

سألني الرجل صاحب البطاقتين وبلا سابق كلام:

- هل تؤمن بالحياة بعد الموت؟

رفعت نظري إليه. توقعت الأسئلة كلها إلا هذا؛ فهو سؤال أبعد من أي توقع.

أجبته بعد فترة صمت:

- لا أدري. انشغلت في السنوات القليلة الماضية بالتفكير في استمرارية الحياة قبل الموت، لكن عندما أصبح في أمريكا سأحاول التفكير بجدية في هذا الموضوع.

أكملت بهذه الكلمات جوابي لأذكره بوعده لي بشأن البطاقتين.

- أما أنا فلا أؤمن بالحياة بعد الموت.

تنفست الصعداء. كنت على استعداد تام لأن أصغي لأحد التعساء، لكنني لم أكن في الحالة التي تمكنني من مجادلته؛ فلم أكن أملك الهدوء الداخلي، وهناك في الميناء ترسو السفينة.

جلس ذلك الرجل المجهول صامتاً وكأنه نائم بعينين مفتوحتين، ولم يُفِق من نومه إلا عندما اقترب من عازف القيثار مداعباً آلته ثم قال:

- اسمي شفارتس. إنه ليس اسمي الأصلي، بل الاسم المدون في جواز سفري. اعتدت عليه وسيكفيني لهذه الليلة. هل أمضيت زمناً طويلاً في فرنسا؟

- أطول فترة ممكنة.

- معتقل؟

- عندما اندلعت الحرب، كغيري من الفارين.

حنى الرجل رأسه متفهماً:

- وأنا أيضاً كانت فترة إقامتي هناك سعيدة.

قالهـا فجـأة وبصـوت خافـت، لكنـه قالها بسـرعة، بينما بقي حاني الرأس واجم العينين، ثم تابع:

- كنت سعيداً جدًّا، أسعد بكثير مما توقعت أن أكون يوماً.

اسـتدرت إليه وأخذت أتأمله.. لم يكن شـكله يوحي بما قال، بل كان أقرب إلى الشخص الخجول.

سألته:

- متى؟ هل يعقل حدوث مثل هذا الأمر في المعتقل؟

- كان ذلك في الصيف الماضي.

- عام 1939؟ في فرنسا؟

- نعم، الصيف الذي سـبق الحرب بعام واحد. لا أسـتطيع، حتى الآن، فهـم مـا حـدث كلـه فـي ذلـك الصيف؛ لذلـك قررت أن ألجأ إلى أحد وأحدثه عما جرى. كما ترى فأنا لا أعرف أحداً في هذه المدينة، لكنني أشـعر أنني حينما أتحدث إلى أحد سـتمثل الأحداث أمامي من جديد وعندها فقط أستطيع أن أرى الأمور بوضوح أكثر وستبقى ذكرى تلك الفترة محفورة في ذاكرتي؛ لذا عليَّ أن أتحدث عن...

توقف عن الحديث ثم سألني بعد فترة:

- هل تفهمني الآن يا سيدي؟

أجبته برفق:

نعم، ليس من الصعب فهم حالتك يا سيد شفارتس.

- لا، لا يمكن فهم هذا كله.

أجاب فجأة بحدة وألم:

- إنها مستقيلة الآن في إحدى غرف هذه المدينة، في غرفة مغلقة النوافذ، مستقيلة داخل تابوت خشبي قميء.. ميتة... وهذا يعني أنها لم تعد موجودة. من يستطيع فهم هذا كله؟ لا أحد! لا أنت ولا أنا نستطيع فهم هذه الأمور كلها..

- ومن يقُل إنه يفهم ذلك فهو كاذب.

صمت وانتظرت، فكم جالست الكثير من أمثاله.

إن خسارة كهذه يصبح تحملها أصعب عندما يكون الإنسان بلا وطن. عندها يشعر المرء بعدم وجود ركيزة يستند إليها، وعندها تصبح الغربة غربة مرعبة. صادفت هذا الإحساس عندما كنت في سويسرا وتلقيت نبأ قتل والديَّ في أحد معتقلات التعذيب عن طريق الحرق بالأفران.. عندها راحت عينا والدتي تلاحقانني من داخل نار الفرن المتأججة. استمر هذا الإحساس يلاحقني ولم يتركني لفترة طويلة.

حدثني شفارتس بهدوء:

- إنني متأكد من أنك تعي حالة اسمها صَرَع المُهاجر..

حنيت رأسي موافقاً. جاءنا نادل بطبق من القريدس وفجأة أحسست بجوع كبير وتذكرت أنني لم أتناول شيئاً من الطعام منذ الظهيرة. نظرت إلى شفارتس متردداً، لاحظ ترددي وقال:

- لا عليك، تفضل، أما أنا فسأنتظر قليلاً.

طلبت من النادل نبيذاً وسجائر. أكلت بسرعة؛ فقد كان القريدس طازجاً وشهيًّا.. قلت:

- المعذرة، لكنني جائع جدًّا.

أخذت أراقب شفارتس بينما كنت أتناول الطعام. جلس صامتاً ينظر إلى المدينة المضاءة دون غضب، بعيداً عن أي بوادر تنم عن عدم الصبر. أحسست بميل إليه. بدا من خلال تصرفاته وكأنه رمى بوصايا الآداب المتوازنة عبر الحائط؛ فهو لا يضيره أن يتناول إلى جانبه جائع طعامه، في حين يجلس هو وحيداً مع مصابه. تصرفه هذا لا يعني أنه إنسان فاقد الحس. عندما لا يستطيع المرء مساعدة جليسه في مصابه عليه أن يتناول خبزه إذا كان جائعاً وقبل أن يأتي شخص آخر فيخطف كسرة الخبز منه. علمتنا الأيام هذا، لعدم معرفتنا بالوقت الذي يأتي فيه

الشخص الآخر ليخطف كسرة الخبز ذاتها.

وضعت الطبق الفارغ جانباً وأشعلت سيجارة بعد أن مضى عليَّ وقت طويل لم أدخن به. حاولت في الفترة الأخيرة توفير ما يمكن من نقود كي أقامر به في هذه الليلة.

تكلم شفارتس:

- أصبت بالصرع في ربيع عام 1939 وكان قد مضى على هجرتي خمسة أعوام.

- أين كنت في عام 38؟

- في باريس.

- وأنا أيضاً كنت في ذلك الوقت قد قطعت الأمل. إنها فترة توقيع معاهدة ميونيخ. احتضار الخوف. كنت أختبئ وأدافع عن نفسي تلقائيًّا بعد أن حسمت الأمور العالقة في داخلي: سوف تعلن الحرب، وسيحتل الألمان فرنسا، وعندها بالطبع سيعيدونني. إنه قدري، وما عليَّ إلا الاستسلام له.. حنيت رأسي موافقاً.

- نعم، كانت تلك الفترة زمن الانتحار، لكن الغريب في الأمر هو أنه عندما دخلت القوات الألمانية فرنسا بعد عام ونصف العام تضاءل عدد المنتحرين. شعرت عند إبرام اتفاقية ميونيخ بأن حياة جديدة أنعم الله بها علينا في خريف عام 38. دبت الحياة فينا فأصبحنا مجازفين. أورقت أشجار الكستناء للمرة الثانية في باريس.. هل تذكرها؟ أصبحت مستهتراً وشعرت بأنني بشر حقيقي وأخذت أتصرف تحت تأثير ذلك الشعور. عندها قبضت عليَّ الشرطة وأوقفت لمدة شهر كامل بسبب دخولي البلاد عن طريق غير قانوني. وهكذا بدأت اللعبة القديمة من جديد. أبعدت عن طريق الحدود القريبة من بازل: السويسريون يرمون بي إلى الجانب الفرنسي، والفرنسيون يعيدونني من حيث أتيت، ثم أسجن ويطلق سراحي وأبعد مرة ثانية وتعود الكرة. إنك بلا شك تعي لعبة

الشطرنج بالإنسان.

- نعم فأنا أعرفها على حقيقتها، خاصة في الشتاء..

السجون السويسرية كانت أفضل السجون: مدفأة كالفنادق.

عدت للأكل مرة ثانية؛ فالذكريات الموجعة تمتاز بميزة جيدة: أنها تنفع صاحبها فيكون سعيداً على الرغم من اقتناعه الأكيد، قبلها بدقيقة، باستحالتها. السعادة هي مسألة درجات، ومن يفهم هذه الحقيقة قلما يكون تعيساً. كنت سعيداً خلال إقامتي في السجون السويسرية لعدم وجود الألمان هناك. الآن يجلس أمامي رجل يدعي أنه استأجر الحظ على الرغم من وجود ذلك النعش في غرفة مظلمة فاسدة الهواء في مدينة لشبونة.

تابع شفارتس حديثه:

- أنذرتني الشرطة عندما أُلقي القبض عليَّ في المرة الأخيرة بتسليمي على الحدود الألمانية بحالة القبض عليَّ مرة ثانية من دون أوراق قانونية. كنت متيقناً أن قولهم هذا لا يتعدى التهديد، لكنه أفزعني.. بدأت أفكر بجدية فيما سأفعله لو قُبض عليَّ ثانية، وعندها ولأول مرة أخذ ذلك الكابوس يلاحقني، ورحت أتخيل نفسي في ألمانيا ملاحَقاً من قِبَل رجال الصاعقة.

أصبح هذا الهاجس يلازمني لدرجة أصبحت فيها أخاف النوم.. هل تعرف هذا الشعور؟

- بمقدوري كتابة أطروحة كاملة في وصف هذه الحالة.

- للأسف.

- حلمت في إحدى الليالي أنني عدت إلى أوسنابروك، المدينة التي كنت أسكنها، وحيث ما زالت زوجتي تقيم. حلمت بأنني أقف في غرفتها وقد بدا عليها المرض الشديد. كانت تنتحب وقد نحلت. أفقت منزعجاً من حلمي، فلقد مضى على فراقي لها خمسة أعوام لم أرَها

ولـم أسـمع عنهـا أي خبـر، كمـا أننـي لـم أبعث لها برسـالة واحدة خوفاً من أن يكون بريدها مراقباً. وعدتني قبل هروبي بأنها ستطلقني، وهذا يعني إبعادها عن بعض المتاعب.

صمت شفارتس فترة. لم أسـأله عن سبب مغادرته ألمانيا؛ فهناك العديد من الأسباب، لكن لا يمكن أن يكون بينها سبب وجيه. جميعها أسباب مجحفة، نعم. لا توجد أسباب وجيهة عادلة لتخلق منك ضحية. الأسباب: ربما لكونك يهوديا، أو لانتمائك لأحد الأحزاب المغضوب عليها من قبل الزمرة الحاكمة، أو إمكانية وجود أعداء شخصيين أصبحوا فجأة في مراكز متنفذة.. هناك عشرات الأسباب التي تؤدي بك إلى معتقلات التعذيب، ومن ثَمَّ إلى الموت المحتم.

صمت فترة ثم تابع حديثه:

- تمكنت من العودة ثانية إلى باريس، لكن هذا الكابوس لم يتركني، بل أصبح ملازماً لي. انهارت في تلك الفترة الآمال بمستقبل اتفاقية ميونيخ، وفي ربيع ذلك العام تأكد الجميع أن الحرب مقبلة لا محالة. يستطيع المرء أن يشتم رائحة الحرب كما يشتم رائحة الحريق قبل رؤية لهيب نيرانه. فقط دبلوماسية العالم وحدها كانت تقف عاجزة وتمني نفسها بأحلام اليقظة: تأمل باتفاقية ميونيخ جديدة مستبعدة إمكانية اندلاع الحرب. لم يتمتع عصر من العصور بكثافة الإيمان بالعجائب كعصرنا هذا الخالي من أية أعجوبة.

أجبته:

- هناك بعض الأعاجيب، ولولاها لأصبحنا منذ زمن بعيد في عداد الموتى.

حنى شفارتس رأسه موافقاً:

- إنك على حق، هناك أعاجيب خاصة؛ فأنا نفسي ظفرت بأعجوبة كهذه. بدأت الأعجوبة في باريس عندما ورثت فجأة جواز سفر حقيقيًّا.

إنه جواز السفر الذي يحمل اسمي الحالي شفارتس. حامله الحقيقي نمساوي الأصل، تعرفت إليه في مقهى "دو لا روز". توفي ذلك الشخص وأورثني جواز سفره وبقية نقوده. لم يكن قد مضى على وجوده في باريس سوى ثلاثة أشهر. التقيته في اللوفر أمام لوحات الانطباعيين، حيث كنت أمضي الكثير من الأيام محاولاً بذلك تهدئة نفسي..

كنت عندما أقف أمام تلك اللوحات الزيتية الغارقة في أشعة الشمس وتلك الطبيعة الصامتة أعارض وجود ذلك الجنس البشري الذي استطاع أن يصل بالفن إلى القمم، وها هو في الوقت ذاته يهيئ العالم لحرب قاتلة. كانت هذه اللوحات تعني لي الأمل، وبالتالي التخفيف من ارتفاع الضغط ولو لساعة واحدة.

كان ذلك الرجل صاحب الوثيقة باسم شفارتس يجلس لساعات طوال أمام لوحات مونيه. تم التعارف بيننا وأصبحنا نتبادل الحديث، روى لي أنه استطاع الفرار من النمسا إثر الاحتلال الألماني لها بعد أن تنازل عن كل ثروته المؤلفة من مجموعة لرسامين انطباعيين للدولة. لم يندم على تنازله؛ فهو ما زال يستطيع مشاهدة لوحات كهذه معلقة في المتاحف، وهو يعتبرها ملكاً له أيضاً، لكن من دون الخوف عيها من الحريق والسرقات، فهذا من واجب الدولة، كما أن مجموعة الانطباعيين المعروفة في متاحف فرنسا أكثر قيمة من تلك اللوحات التي امتلكها يوماً. قال لي مرة إنه سعيد لعدم وجود تلك الرابطة المقيدة للوحاته تماماً كالوالد المقيد بواجبه تجاه أولاده، فهو ملزم بالتنازل في كثير من الأحيان عن ذاته من أجلهم.

إنه سعيد بملكية الدولة لهذه اللوحات، وهو بذلك حر طليق من أي قيد. كان رجلاً غريباً: هادئاً، رقيقاً، ومرحاً، على الرغم من الويلات التي صادفته. لم يستطِع في أثناء فراره من وطنه أخذ بعض أمواله، لكنه استطاع أن ينجو ببعض الطوابع البريدية القديمة، فالطوابع البريدية

هي أسهل وأخف الأشياء التي يستطيع المرء تهريبها، وأسهل بكثير من تهريب الألماس، فالألماس مرهق للمشي عليه في حال تخبئته في نعل الحذاء، كما أنه معرض للخسارة في حال بيعه. أما الطوابع البريدية فإنها مختلفة، خاصة أن هواة جامعي الطوابع يمتازون بنفسية خاصة؛ إنهم لا يجادلون في السعر.

سألته بطريقة المهتم، طريقة المهاجرين المميزة في السؤال: وكيف استطاع تهريبها إلى خارج الحدود؟

- حمل معه بعض مغلفات رسائل قديمة ووضعها داخل الغلاف الداخلي لهذه المغلفات. صادر رجال الجمارك بالطبع الرسائل داخل المغلفات ولم ينتبهوا للمغلفات نفسها.

- عظيم!

- كما أنه أخذ معه لوحتين صغيرتين للرسام أنغرس، مرسومتين بقلم رصاص، خبأهما خلف صورتين فوتوغرافيتين لوالديه بعد أن وضعهما في إطارين قديمين.

- إنها فكرة عظيمة حقًا.

- تعرض لنوبة قلبية في شهر أبريل. وفي تلك الليلة قدم لي جواز سفره، بقية الطوابع واللوحتين، كما أنه زودني بعناوين بعض جامعي الطوابع. عندما استيقظت في صبيحة الغد استدرت إليه. وجدته ميتاً وقد غيَّر ذلك السكون الرهيب ملامحه.

أخذت ما تبقى معه من نقود، بزة شبه جديدة، بعض غياراته الداخلية بعد أن أوعز لي بذلك في اليوم الأخير قبل وفاته، مبرراً ذلك بأنه من الأفضل أن يمتلك هذه الأشياء رفاق قدره المشؤوم على أن يمتلكها صاحب الحانة.

سألته:

- هل غيرت جواز السفر؟

- الصورة وتاريخ الميلاد فقط، فلقد كان شفارتس يكبرني بخمسة وعشرين عاما. أما اسمانا الأولان فقد تشابها.

- من قام بعملية التغيير؟ هل هو برونر؟

- شخص من أصل ميونيخي.

- إنـه برونـر بالتأكيـد، جـرَّاح الوثائق. كان بارعاً في مهنته، معروفاً بإتقانه إصلاح الوثائق. يساعد الجميع على الرغم من عدم حيازته جواز سـفر. يسـاعد بلا مقابل لإيمانه بالخرافات؛ فلقد كان متأكداً من أنه لن يُقبض عليه لأن عمله عمل إنساني وهدفه مساعدة الآخرين بلا مقابل، مؤمن إيماناً كاملاً بأنه بذلك يخدم الإنسانية والفن. كان في السابق مالكاً لمطبعة في ميونيخ. سألته:

- وأين هو الآن؟

- ألا تظن أنه موجود في لشبونة؟

- ربما! هذا إذا ما زال على قيد الحياة.

تابع شفارتس الثاني حديثه:

- انتابني شـعور غريب عندما أصبحت مالكاً لجواز السـفر، ولم أتجرأ - في البداية - على استعماله، كما أنه مضى عليَّ عدة أيام قبل أن أعتاد اسـمي الجديد. كنت أردده على مسـمعي باسـتمرار. أصبحت أقطـع الشـانزليزيه جيئـة وذهابـاً، هاذياً باسـمي وتاريـخ ميلادي الجديد، وعندما أجلس أمام لوحات رينوار في المتحف، أقوم بحوار خيالي مع نفسي وبصوت حاد:

- شفارتس.

وعندما أتهيأ للوقف والإجابة:

إنه أنا يا سيدي:.

أو أغير من الحوار.

- جوزيف شفارتس، من مواليد فيينا في 22 يونيو 1898.

وقبل النوم كنت أتمرن على هذا الحوار أيضاً، تخوفاً من أن يوقظني شرطي في إحدى الليالي فأتلو عليه اسمي القديم. حاولت نسيان اسمي الحقيقي؛ فهناك فرق شاسع بين جواز سفر مزور وبين عدم وجوده؛ لأن حيازة جواز سفر مزور أخطر من عدم وجوده.

بعتُ لوحتي أنغرس بثمن أقل بكثير مما توقعت، لكنني فجأة وجدت نفسي مالكاً لنقود لم أرَ عددها منذ فترة طويلة.

تملكتني في إحدى الليالي فكرة لم أعد أستطيع الإفلات منها: ألا أستطيع أن أسافر بجواز سفري الجديد إلى ألمانيا؟ فجواز سفري رسمي، وماذا يدفع رجال شرطة الحدود للشك في أمري؟ عندها أستطيع رؤية زوجتي ثانية وعندها فقط أستطيع أن أتغلب على الشعور بالخوف من ناحيتها وإلى الأبد، عندها أستطيع...

تأملني شفارتس وتابع:

- إنك تعرف هذه الحالة.. حالة صَرَع المُهاجر. إنه الصَرَعُ بأصدق صوره، يتجلى بتشنجات المعدة، البلعوم، والعيون. هذا الإحساس الذي حاولت أن أواريه التراب خلال خمس سنوات، حاولت تجنبه وكأنه داء الكوليرا يستفيق من جديد: الذكريات المميتة، سرطان النفس الملازم للمهاجر!

حاولت تحرير نفسي من الكابوس، كثفت زياراتي لتلك اللوحات الهادئة المسالمة، لوحات سيسلي، بيزارو، ورينوار.. وأخذت أمضي الساعات الطوال في المتحف، لكن النتيجة كانت عكسية. لم تعد تلك اللوحات تهدئني، بل على العكس، أخذت تنادي وتصر على ذكريات ذلك الوطن، الذي لم يستهلك بعدُ نهائيًّا من تلك القذارة، إنه ما زال يحوي تلك الطرقات الليلية وقد تدلت على أسوارها أغصان الليلك حالمة في ضوء القمر الذهبي وأبراج الكنائس الخضراء المتأكسدة تحيط بها أسراب الحساسين..

وعن زوجتي..

إنني رجل عادي، ليس لي صفات مميزة، عشت مع زوجتي أربعة أعوام كما يعيشها الأزواج بلا مشاكل حقيقية، لكن أيضاً من دون شغف. أصبحت حياتنا بعد مضي الأشهر الأولى على زواجنا كما يسمونها: زواجاً ناجحاً. علاقة بين شخصين تتميز باحترام أحدهما للآخر ومراعاة النظم الأساسية المتوجبة على تعايش هذين الشخصين. كانت تنقصنا الأحلام، هكذا على الأقل بدت لي الأمور. كنت أشعر كأننا شخصان حكيمان يحمل الواحد منا لشريكه قدراً كبيراً من المودة. الآن تبدلت نظرتي وأخذت أتهم نفسي على ذلك الزواج العادي، فحسب نظرتي الحالية للأمور أصبحت أتهم نفسي بأنني أضعت الكثير.. ماذا كانت تعني حياتي تلك؟ انزويت بنفسي وكأنني بعيد عن الحياة. لماذا عشت حتى الآن؟ وماذا أنا صانع بنفسي؟ هل ستطول بي هذه الحالة؟ وعلى أي شكل ستكون نهايتها؟ الحرب مقبلة لا محالة وسينتصر الألمان بلا شك؛ فألمانيا هي البلد الوحيد المدجج بالسلاح. ماذا سيحصل بعد ذلك؟ وإلى أين أستطيع أن أزحف عندها؟ هذا إذا بقي لديَّ الوقت والنفس الكافيان للقيام بذلك. في أي معتقل سأنتهي من الجوعى؟ وعلى أي حائط سأتلقى طلقة قاضية في رأسي؟ هذا إذا ساعدني الحظ. أصبح جواز السفر مبعث قلق بدلاً من أن يكون مصدر تهدئة. أصبحت أجوب الشوارع على غير هدى حتى ينهكني الإعياء لدرجة أصبح فيها غير قادر على السير، لكنني وعندما أخلد إلى الفراش يجافيني النوم، وفي حالات نومي النادرة يسيطر عليَّ ذلك الحلم فأستيقظ مذعوراً.. بدأت أرى زوجتي في أقبية الجستابو للتعذيب، أخذت أسمع صوتها من فناء الفندق الذي أسكنه، مستغيثاً. تخيلت في أحد الأيام عندما كنت أهم بدخول مقهى الوردة أنني أرى وجهها في المرآة الموازية للمدخل، لكنه أشاح ببصره عني، كئيباً بعينين بائستين. رأيت وجهها بوضوح شديد، الأمر

الذي دعاني للهرع إلى الغرفة الخلفية التي كانت كعادتها تعج بالرواد، فتشت وأيقنت أن زوجتي لم تكن بينهم.

تحولـت هـذه التصـورات بعـد عـدة أيـام إلى فكـرة ملحة، هي أن زوجتي موجودة في هذه المدينة تبحث عني. أصبحت أشاهدها في اليوم الواحـد مئـات المـرات علـى كل زاويـة طريق وهي تجلس على المقاعد المتفرقة في حديقة لوكسمبورغ، وعندما كنت أهرع إليها، كان يقفز أمامي وجه غريب مندهش. كنت أراها تقطع ساحة الكونكورد بلا تعب، وقبل أن تعج من جديد بالسيارات المنطلقة من وراء إشارات المرور. رأيتها هناك حقيقة، مشيتها، حركة كتفيها، حتى إنني كنت متأكداً من ثوبها الذي ترتديه. هرعت إليها بعد أن توقف سـيل السـيارات، لكنها اختفت من جديد بين مئات المارة وابتلعتها زحمة المدينة.. ظننت أن أقبية قطارات تحت الأرض السوداء قد أخفتها. ركضت خلفها، لكنني عندما وصلت إلى رصيف المحطة أشارت لي أضواء القطار الخلفية المبتعدة.

ذهبـت إلـى أحـد معارفـي وشـرحت له حالتي. اسـمه لويزر، وهو تاجر جوارب، كان فيما مضى طبيباً ناجحاً في بريسلاو.

نصحني أن أخفف من عزلتي وقال لي:

- حاول أن تجد امرأة.

- لكن نصيحته لم تسـعفني. إنك بلا شـك تعرف ذلك الشـعور المنبثـق عـن الضيـق، الوحـدة، الخـوف، الهروب إلـى دفء صغير، إلى صوت، إلى جسد، الاستيقاظ في غرفة يائسة وكأنها بعيدة عن هذا الكون، ويليها ذلك الشعور اليائس من الامتنان لسماع ذلك النفس إلى جانبك. هذا كله لا يجدي نفعاً أمام جبروت الخيال الذي يغرق في الدم ويوقظ صاحبه على ذلك الإحساس شاحب المذاق: إنك اغتصبت نفسك.

عندما أسرد عليك هذا كله فإن الأمور لا تبدو لك عبثية ومتناقضة، لكنها لم تكن تبدو لي حين حدوثها على هذا الشكل. ما حصدته من تلك

الصراعات الداخلية كلها هي حقيقة واحدة: العودة لرؤية زوجتي. لربما وجدتها قد تزوجت منذ أمد وتعيش مع رجل آخر. الأمر سيان بالنسبة لي. كل ما أتوق إليه هو رؤيتها، وهكذا بدت لي الفكرة منطقية جدًّا.

أخذت الأخبار المتعلقة بالحرب المقبلة تتكاثف. كان واضحاً للجميع أن هتلر - الذي كان قد وعد في البدء باحتلال بلاد السوديت - نكث بوعده واجتاح تشيكوسلوفاكيا من شرقها إلى غربها. سيقوم بذلك أيضاً تجاه بولندا. الحرب آتية لا محالة، خاصة أن هنالك اتفاقية مشتركة بين فرنسا وبريطانيا وبولندا. الحرب لن تنتظر شهوراً، بل أصبحت المسألة مسألة أسابيع فقط. كذلك أصبح تحقيق الحلم مسألة أسابيع فقط، وتحقيقه يعني الحياة بالنسبة لي.

كان عليَّ أن أحسم الأمر، وهذا ما فعلته. لا بد من العودة، لكنني لم أفكر ماذا ستكون العاقبة. أصبحت الأمور سيان بالنسبة لي؛ فالحرب تعني لي الأهوال كلها: تعني الضياع؛ لذا قررت القيام بأكثر الخطوات جنوناً. تملكتني، في الأيام الأخيرة، قبل تنفيذ مخططي، حالة غريبة من المرح.. الوقت هو شهر مايو، وقد امتلأت أحواض الزهر في راندبوانيه بالزنابق الملونة، وتلونت أمسيات ذلك الشهر بألوان الانطباعيين الفضية، وبدت سماؤها خلف فوانيس الطرقات الغازية والكلمات الكهربائية المصفوفة، التي تتكلم عن قدوم الحرب بألوانها الزرقاء والخضراء..

رحلة العودة بدأت في سويسرا. حاولت تجربة جواز سفري الجديد على أرض أقل خطورة من غيرها. أعاده لي موظف الحدود الفرنسي بكثير من اللامبالاة، وهذا ما كنت أتوقعه. يصبح إذن الخروج مشقة في بلاد تحكمها الديكتاتورية فقط. شعرت، عندما اقترب مني موظف الحدود السويسري، كأن أحشائي تكورت على بعضها لتصبح قطعة واحدة صلبة. جلست محاولاً التظاهر بالهدوء قدر المستطاع، لكنني شعرت بأن أطراف رئتي تهتز كأنها ورقة وحيدة على غصن شجرة،

تهتز على الرغم من هدوء الهواء من حولها. نظر الرجل إلى الوثيقة: موظف ضخم عريض المنكبين تفوح منه رائحة تبغ الغليون. وقف في المقصورة وحجب بوقفته هذه الضوء المقبل من الخارج. شعرت لدقيقة بضيق لإحساسي بأنه بذلك حجب عني السماء والحرية، وبدت لي المقصورة كالزنزانة. أعاد لي الجواز. نظرت إلى الجواز وقلت:

- نسيت أن تختمه.

خاطبته بسرعة وقد حملتني موجة من الارتياح. ابتسم الموظف.

- لا تخف، فسأختمه لك الآن. هل يعنيك ختمه كثيراً؟

- لا، لكن الختم يجعل منه قطعة تذكارية.

ختم الموظف الجواز وخرج. عضضت شفتي. لا بد أنني أُصبت بحالة اضطراب كبيرة. لم أهدأ إلا بعد أن تذكرت أن الجواز بالختم أصبح أقرب إلى الوثائق الأصلية.

فكرت كثيراً في أثناء إقامتي في سويسرا بالعودة إلى ألمانيا بالقطار، لكنني لم أجد في نفسي الشجاعة الكافية لذلك، كما أنني لم أكن متيقناً من ردود فعل موظفي الحدود تجاه العائدين، خاصة من النمسا؛ لذا قررت العودة بطريق غير قانوني.

ذهبت لدى وصولي زيوريخ، كعادتي، إلى مبنى البريد الرئيسي؛ فهناك يمكن أن ألتقي بعض المعارف القدامى من المهاجرين والباحثين عن إقامة، الذين يستطيعون تزويدي ببعض المعلومات. توجهت بعدها إلى المقهى المشابه لمقهى الوردة في باريس؛ حيث صادفت العديد من الفارين، لكنني لم أصادف أحداً ينوي عبور الحدود بقصد العودة. كان هذا الوضع مفهوماً، فمن غيري ينوي العودة إلى ألمانيا؟

لاحظت النظرات المندهشة، لكنهم عندما تأكدوا من جدية موقفي ابتعدوا عني وأخذوا يتحاشونني. العائد إلى ألمانيا يعني: المنتقل من معسكر لآخر، يعني جاسوساً، فهل يعقل لرجل أن يعود لبلد يحتقر

حاكميه؟ ازدادت الشبهات بي لكوني مكثت فترة طويلة في الخارج وبعيداً جدًّا عن ألمانيا. أخذت أقرأ التساؤلات في عيونهم. بماذا سيشي هذا الشخص؟ وبمن؟ فجأة شعرت بالوحدة بعد أن تحاشاني الجميع وكأني قاتل حقيقي. لم أستطِع توضيح موقفي، خاصة أنني شخصيًّا أصبحت أصاب بحالات تعرُّق وضعف شديدين نتيجة الخوف، خاصة عندما أفكر جديًّا بما أنا مقدم عليه. كيف لي أن أوضح لغيري ما أنا عليه؟ جاء رجال الشرطة في السادسة من صباح اليوم الثالث من وجودي في زيوريخ وأخرجوني من فراشي. تيقنت في الحال أن أحد معارفي قد وشى بي. دقق الموظفون في جواز سفري دليلاً على تشككهم، ثم اصطحبوني معهم للتحقيق. أسعفني الختم على جواز السفر، وبهذا أقنعتهم أنني دخلت الحدود بشكل قانوني وأن إقامتي في سويسرا لم تتعدَّ يومها الثالث بعدُ.

ما زلت أذكر وقائع ذلك الصباح عندما نزلت مع الموظفين إلى الشارع. كان يوماً مشرقاً، وقد ظهرت أبراج المدينة وأسطحها بشكل واضح وحاد، وكأنها صُنعت من المعدن لتواجه السماء. مررنا بمخبز، فاحت منه رائحة الخبز الطازج. عندها شعرت بأن عزاء العالم كله يكمن في تلك الرائحة. هل تعرف ذلك الشعور؟

حنيت رأسي موافقاً وقلت:

إن العالم يبدو على أجمل وجه في تلك الدقائق التي تسبق مغادرته للدخول إلى عالم السجون. لا يستطيع المرء تحسس ذلك باستمرار، وربما هذا ناتج عن عدم امتلاك الإنسان، في العادة، الوقت الكافي للتفكير به، أو لأنه في الغالب لا يمتلك الراحة الداخلية.

هز شفارتس رأسه رافضاً:

- لا.. إن الأمر لا يتعلق بالهدوء الداخلي، وقد مررت بالحالة ذاتها.

- هل تستطيع أن تحتفظ بهذا الشعور؟

- لست أدري، إنه بالذات الشيء الذي أسعى إلى اكتشافه. تسرب هذا الإحساس من بين أصابعي، وها أنا أسأل نفسي الآن: هل تمسكت به عندما كان في حوزتي؟ ألا أستطيع الآن من جديد اكتسابه بقوة وبزخم أكبر؟ الآن بعد أن أصبح هذا الشعور عاجزاً عن تغيير الأشياء. ألا ترى أن الإنسان يخسر باستمرار ذلك الشيء الذي تمنى أن يحتفظ به لأنه في حالة تحرك، ولا يقف هذا الشيء إلا عندما يصبح بعيد المنال ولا يمكن البتة تغيير وضعه؟

أخذت عيناه تحملقان بي وكأنهما من حجر. كانت المرة الأولى التي ينظر إليَّ فيها نظرة كاملة. اتسعت حدقتا عينيه، وفجأة قفز إلى ذهني السؤال: هل هو رجل متطرف أم مجنون؟ أجبته:

- لم أفكر بهذه الأمور كلها من قبلُ، لكن ألا تظن أن الجميع يسعون وراء ذلك: يريدون التمسك بالأشياء التي لا يمكن التمسك بها والتخلي عن الأشياء التي تصر على عدم التخلي عنك؟

وقفت السيدة التي كانت تجلس إلى المائدة المجاورة بثوبها الطويل ونظرت إلى تلك السفينة وجابت المدينة والميناء بنظرها، ثم خاطبت الرجل ذا البزة البيضاء:

- يا عزيزي! هل العودة ضرورية؟ آهٍ لو نستطيع البقاء هنا. لا رغبة لي في العودة إلى أمريكا.

2

قال شفارتس:

- أوقفتني الشرطة في زيوريخ ليوم واحد فقط، لكنه كان يوماً شاقًّا تملكني خوف كبير من أن يعيدوا التدقيق في جواز سفري ثانية؛ فمخابرة هاتفية مع فيينا ومراقبة قانونية لجواز سفري كفيلتان بأن تعيداني بلا أوراق.

هدأت أعصابي من بعد ظهر ذلك اليوم، وبدأت أنظر إلى جميع الأمور التي تحدث وكأنها حكم إلهي. هذا الاستسلام للقدر خلَّصني من عبء تقرير مجرى حياتي، فلو أودعوني السجن فذلك يعني عدم محاولة العودة إلى ألمانيا. لكنهم، في المساء ذاته، أخلوا سبيلي ونصحوني بكثير من الإلحاح بتكثيف جهودي لمغادرة سويسرا في أقرب وقت ممكن.

قررت العودة عن طريق النمسا؛ فالحدود هناك أعرفها جيداً، إضافة إلى أنني كنت متأكداً من أنه لن تكون هناك حراسة شديدة كالحراسة على الحدود الألمانية:

- لماذا تحرس حدود هاتين الدولتين؟ ومن يريد دخولهما؟ لكن الحراسة، في الواقع، وضعت لمنع من يريد مغادرتهما.

سافرت إلى أوبريت، لأحاول من هنالك إيجاد المكان المناسب للتسلل عبر الحدود. تمنيت أن يكون يوم تسللي ممطراً، لكن الطقس استمر مشرقاً لمدة يومين؛ لذا بدأت رحلتي في الليلة الثالثة خوفاً من أن يثير بقائي لفترة أطول الاهتمام.

كانت سماء تلك الليلة ترفل بكل أشكال النجوم، هادئة، حتى خُيِّل إليَّ أنني أسمع صوت نمو النبات من حولي. من المؤكد أنك تعلم أنه في حالة الخطر تمتد حاسة البصر ولا تتخطى العين فقط، بل تهيمن على

الجسد كاملة، وكأن الإنسان يصبح قادراً على الرؤية عن طريق الجلد. هذا الإحساس يتصاعد، خاصة في الليل، عندها يصل المرء إلى درجة من الحس المرهف وكأنه يستطيع أن يرى الأصوات، وهذا يؤكد مدى قدرة انتقال مركز السمع من الأذن إلى الجسم كله.

لن أستطيع نسيان هذه الليلة، كنت متيقناً من نفسي، وكانت جميع حواسي متنبهة، متوقعاً ومهيًّا لحدوث أي عارض، لكن للمرة الأولى بلا خوف. بدا لي كأني أعبر جسراً عالياً، من جانب إلى آخر، من جانب حياتي هذه إلى جانبها الآخر، وأن هذا الجسر سيتلاشى حالما أعبره كتلاشي الدخان الفضي، وأنني لن أعبره مرة ثانية. هكذا انتقلت من المرحلة العقلانية إلى المرحلة العاطفية، من الأمان إلى المغامرة، ومن الواقع إلى الحلم. كنت في هذه المرحلة وحيداً جدًّا، لكنها وحدة على عكس سابقاتها: وحدة بلا ألم، فيها قسط كبير من الغموض.

وصلت ضفة الراين، في أحد منعطفاته الفتية، وقبل أن يتسع مجراه. خلعت ملابسي وجعلت منها صرة أحملها على رأسي وقد سيطر عليَّ إحساس غريب لا يمكن وصفه، وعندما أخذت أقطع النهر عاريا.. النهر أسود، بارد وغريب وكأنني أعبر نهر الليل لأستقي من مياهه النسيان. رمز لي عبوري إياه عارياً بأنني سأخلف كل ما مررت به ورائي بلا عودة. بعدها جففت جسدي، وارتديت ثيابي، وأخذت أتلمس طريقي.

تناهى إليَّ نباح كلب عندما مررت بالقرية الأولى. لم أكن متأكداً من سير الحدود؛ لذا توقفت على زاوية إحدى الطرقات التي تؤدي إلى غابة صغيرة. بعدها تابعت سيري ولم يصادفني أحد المارة. سرت هكذا حتى اتضح الفجر وقد غللته سحابة من الندى، بينما وقف غزال على مفترق طرق عشبية. تابعت سيري حتى سمعت أصوات بعض الفلاحين وهم يجرون عرباتهم. عندها بحثت عن مخبأ غير بعيد من الطريق العام. حاولت الاختباء كي لا يشك أحد بي بسبب وجودي على الطريق العام،

في تلك الساعة المبكرة، وبالقرب من الحدود. بعدها رأيت عدداً من موظفي الحدود يعبرون الطريق بدراجاتهم.. تعرفت عليهم عن طريق لباسهم. إنني الآن في النمسا، التي أصبحت منذ قرابة السنة جزءاً من ألمانيا.

غادرت السيدة بثوبها الطويل الشرفة بصحبة مرافقها. كتفاها بنيان من تأثير أشعة الشمس وقد بدت أطول من مرافقها بكثير.. ثم ترنح غيرهما من السياح وهم يغادرون الشرفة.. كانوا جميعاً يتحركون بشكل طبيعي وكأنهم لم يتعاملوا مع شعور الملاحقة.. لم يفطن أحدهم للالتفات إلى الوراء.

تابع شفارتس حديثه:

- كانت في حوزتي بعض شرائح الخبز، تناولت بعضها عندما جلست إلى حافة دول حيث بقيت حتى الظهيرة.. هدفي الثاني هو الوصول إلى مدينة فيلدكيرش، لعلمي أنها مصيف يؤمه المصطافون في هذا الوقت من السنة، وهذا يعني بالنسبة لي عدم إثارة الشبهات من حولي. هناك سأكون واحداً من هؤلاء المصطافين. وصلت إلى هدفي واستقللت من هناك القطار بغية الابتعاد عن الحدود، الابتعاد عن تلك المنطقة الخطرة. يجلس في المقصورة رجلان من رجال الصاعقة بزتاهما عسكريتان.

ساعدتني تجربتي الطويلة مع شرطة أوروبا في تلك اللحظة؛ لأنه لولا تلك التجربة لقفزت من القطار وعدت من حيث أتيت.. دخلت المقصورة وجلست في إحدى زواياها إلى جانب رجل بلباس الصيادين يحمل بندقيته. كان هذا لقائي الأول وبعد خمس سنوات بكل ما يرمز إليه من الفظاعة والاشمئزاز. حاولت في الأسابيع الماضية تخيل هذا كله، لكن الحقيقة كانت أكثر حدة. تجلت ردود فعلي عن طريق الجسد وليس عن طريق الرأس، المعدة تحولت إلى حجر صلب والفم إلى مبرد.

أخذ الصياد يتحدث مع رجال الصاعقة عن الأرملة بفوندر، وكان واضحاً من حديثهم أن الأرملة طروب جدًّا لكثرة علاقاتها العاطفية.. بعدها باشر الثلاثة أكل الخبز ولحم الخنزير المقدد.

فجأة سألني الصياد:

- ما وجهتك أيها الجار؟

إنني عائد إلى بريغنز.

- إنك تبدو غريباً عن هذه المنطقة.

- نعم.. فأنا هنا بقصد قضاء العطلة.

- ومن أين تأتي؟

ارتجفت لثانية: لو قلت له فيينا، كما هو مختوم في جواز سفري، لربما شعر هؤلاء الرجال الثلاثة بأن كلماتي تفتقد تلك اللكنة المميزة بها:

- إنني قادم من هانوفر؛ حيث أقيم من ثلاثين عاماً.

- هانوفر.. إنها مدينة بعيدة جدًّا عنًّا.

- إنه الواقع؛ فالمرء لا يحب قضاء أيام عطلته حبيس بيته.

ضحك الصياد:

- معك حق.. لقد حظيت بطقس جيد.

- نعم، طقس جميل، لكنه دافئ جدًّا.. دفؤه يذكر بأيام الصيف الحارة.

عاد الثلاثة إلى حديثهم وتعليقاتهم على الأرملة، وبعد عدة محطات ترجلوا من القطار وبقيت وحدي بالمقصورة. القطار يعبر الآن أجمل مناطق أوروبا، لكنني لم أستطِع رؤية ما يحيط بي؛ فقد انتابني فجأة شعور مُلح بالندم والخوف واليأس. لم أعد أفهم الدافع الذي جعلني أعبر الحدود.

جلست في زاوية المقصورة بلا حراك وأخذت أحملق في البعيد.. نعم.. ها أنا ذا أصبحت سجان نفسي بعد أن رميت بالمفتاح وقد أغلقت

الباب خلفي. حاولت أكثر من عشر مرات ترك القطار بهدف التسلل والعودة إلى سويسرا.

بالطبع، لم أقُم بذلك؛ فلقد كانت يدي اليسرى تمسك، بإصرار، جواز سفر شفارتس المتوفى وكأنني بهذا أستمد قوة متدفقة. رحت أحاور نفسي بأن الأمور أصبحت سيان ببقائي مدة أطول بالقرب من الحدود وبأنني سأكون عمَّا قريب في مأمن إذا توغلت إلى داخل البلاد؛ لذا قررت متابعة السفر ليلاً، خاصة أن السؤال عن إبراز الهوية في القطار أقل منه في الفنادق.

يشعر الإنسان المطارَد والراضخ تحت جبروت الخوف في الغالب بأن الأضواء جميعها مسلطة عليه، وكأن العالم ليس له قضية سوى مطاردته. يشعر هذا الإنسان بأن كل خلية من جسمه تحاول أن تستقل لتعمل بمفردها. الأرجل: تحاول أن تبني مملكة الأرجل وتصبح الأيدي لا شيء سوى أداة دفاع وهجوم، أما الفم والشفتان فلا تصبح سوى أعضاء مرتجفة تحاول كبح صرخة عالية.

أغمضت عيني ودخلت في التجربة: تجربة التراجع أمام الخوف، خاصة بعد أن أصبحت بمفردي في المقصورة. كان واضحاً بالنسبة لي أن سنتيمتراً واحداً من التراجع في هذه الحالة يعني متراً كاملاً من التراجع أمام مداهمة الخطر الحقيقي. أخذت أقنع نفسي بألا أحد يلاحقني وبأن السلطة غير مهتمة بي وأنا لا أعني لها شيئاً، كحفنة رمل في الصحراء. علاوة على ذلك فلا أحد يمكنه استجلاء ما في داخلي. إنه الواقع، فأنا لست مميزاً عن الأشخاص الذين حولي، فالآري الأشقر سيبقى خرافة ألمانية ولا يمكن أن يصبح واقعاً. انظر إلى هتلر، جوبلز، هيس، وغيرهم من رجالات السلطة.. تمعن بهم وتبعاً لتركيبهم الخلقي عليهم أن يرفضوا أنفسهم إذا كانوا يؤمنون حقّاً بما ينادون.

تركت في ميونيخ، لأول مرة، حصانة محطات القطار وأرغمت

نفسي على التمشي لساعة.. كنت متأكداً أن أحداً لن يتعرف عليَّ لأنني أنا نفسي لا أعرف المدينة.

دخلت إحدى الحانات وطلبت طبقاً من الحساء.. الحانة تعج بالزائرين. جلست وحيداً إلى إحدى الموائد وأخذت أسترق السمع إلى ما يدور حولي من أحاديث.. لم تمضِ دقائق حتى جلس إلى جواري وإلى المائدة نفسها رجل سمين، شديد التعرق. طلب هذا الجليس كأساً من الجعة وطبقاً من لحم العجل ثم تناول صحيفته وأخذ يلتهم أحرفها. تنبهت إلى حقيقة هي أنني، حتى تلك اللحظة، لم يخطر ببالي شراء صحيفة ألمانية؛ لذا سارعت وابتعت صحيفتين. مضت أعوام لم أقرأ خلالها الألمانية. تنبهت إلى أن جميع من حولي يتكلمون الألمانية وعليَّ أن أعتاد ذلك أيضاً.

كانت العناوين في هذه الصحف مثيرة للاشمئزاز، ملفقة، متعطشة للدماء وتشير إلى غرور كاتبيها. هذه العناوين تجعل من العالم، عدا ألمانيا، عالماً متخلفاً، غادراً، غبيًّا، لا ينفع لشيء سوى أن يُحتل من قِبَل ألمانيا. لم تكن الصحيفتان اللتان ابتعتهما صحيفتين محليتين، بل كانتا صحيفتين لهما مكانتهما البارزة بين الصحف الألمانية. لم يكن مضمونهما هو المُقرف فقط، بل أيضاً أسلوب كتابتهما.

أخذت أراقب قارئي الصحف الجالس أنا بينهم. كانوا يأكلون، يحتسون الجعة ويقرؤون الصحف بكثير من المتعة. تفرستهم فلم أجد من بين جميع هؤلاء القراء من تنم ملامحه عن الرفض أو الاشمئزاز.

بدا من الواضح أنهم اعتادوا قوتهم اليومي كاعتيادهم احتساء الجعة. تابعتُ القراءة إلى أن توقفت أمام خبر صغير عن أوسنابروك: حريق أحد البيوت. قفزت صورة الشارع أمام عيني. ما زلت أذكر تلك الزاوية التي تؤدي بدورها إلى خارج المدينة. طويت الصحيفة ووضعتها جانباً، وفجأة شعرت بالوحدة: وحدة أقسى من أي وحدة صادفتني وأنا

خارج ألمانيا.

بدأت تدريجيًّا أعتاد ذلك الشعور الذي يتبدل فيه الصدق مع الجمود القدري، كما أنني بدأت أعتاد التحرك بثقة أكبر. كنت متأكداً من أن الخوف الذي في داخلي سيزداد كلما اقتربت من أوسنابروك؛ فهناك يوجد الأشخاص الذين سيتعرفون عليَّ.

ابتعت حقيبة رخيصة، بعض الألبسة الداخلية وبعض الحاجيات الضرورية جدًّا لرحلة قصيرة، والتي من دونها سأثير التساؤل لدى نزولي في أحد الفنادق. تابعت السفر ولم تكن لديَّ خطة ثابتة في كيفية اقترابي من زوجتي، وأخذت كل ساعة أغير مخططاتي بهذا الصدد. عليَّ أن أترك الظروف تقرر هي بنفسها ذلك؛ فأنا لم أكن أعلم بعدُ إذا كانت زوجتي قد تبدلت واقتربت برأيها من موقف أهلها المؤيد جدًّا للسلطة، أم إذا كانت قد اقترنت برجل آخر.

لم أعد واثقاً، خاصة بعد قراءتي الجريدة، من أن المرء لا يحتاج إلى وقت طويل لتصديق ما يقرؤه، خاصة إذا كان هذا الشخص لا يملك إمكانية المقارنة؛ فالصحف الأجنبية محظور عليها دخول البلاد وإن سُمح بها فهي ترضخ لرقابة قاسية.

وصلت مونستر ونزلت في أحد فنادقها المتوسطة؛ لأنه لم يكن ممكناً أن أقضي الليل يقظاً أو أن أنام في أحد الأماكن العامة خلال النهار. أقنعت نفسي بأنه سيُقبض عليَّ إن آجلاً أو عاجلاً، وأنه لا بد أن يظهر الشخص الذي سيتعرف عليَّ ويوشي بي.

- هل تعرف مدينة مونستر؟

- أعرفها، لكن على نحو سطحي.. أليست مدينة قديمة متعددة الكنائس، أبرمت فيها معاهدة السلام الفستفالية؟

- نعم.. أبرم الصلح في مونستر وأوسنابروك عام 1648، الذي تلا ثلاثين عاماً من الحرب.. من يعلم كم ستطول هذه الحرب؟

- لن تطول، إذا استمرت على ما هي عليه؛ فألمانيا لن تحتاج إلى أكثر من أربعة أسابيع فقط لاحتلال فرنسا.

اقترب النادل وأفهمنا أن الحانة ستغلق أبوابها، مشيراً إلى أننا الرائدان الوحيدان الباقيان.

سأله شفارتس:

- ألا توجد حانة أخرى ما زالت تستقبل الزائرين؟

أوضح النادل أن لشبونة ليست مدينة متميزة بحياتها الليلية، لكن عندما وضع شفارتس في يده بعض البقشيش تذكر فجأة وجود حانة سرية: نادٍ ليلي روسي، مؤكداً بشدة أنه بار أنيق جدًّا. سألته:

- هل سيأذنون لنا بالدخول؟

- بالطبع يا سيدي: كل ما قصدته من كلامي هو وجود سيدات أنيقات جدًّا في النادي الذي ترتاده شعوب كثيرة وحتى الألمان.

- حتى أية ساعة يستقبل هذا النادي الزبائن؟

- طالما هناك رواد. يوجد في هذا الوقت رواد كثيرون...

من بينهم الكثير من الألمان؟ ألمان!

- أثرياء؟

بالطبع أثرياء.

- ضحك النادل ثم تابع:

- إن هذا النادي، على الرغم من تكلفته الباهظة، ترفيهي جدًّا. بإمكانك أن تذكر للبواب أنك قادم من قِبَل مانويل، وهذا يكفي.

- هل يتحدد على الداخل أن يدلي بأقوال معينة.

لا شيء، فالبواب سيملأ بطاقة خالية ويجعل بذلك منك أحد أعضاء النادي. إنها مسألة شكلية فقط.

- حسناً.

- سدد شفارتس فاتورة الحساب وخرجنا ثم هبطنا ببطء سلالم

الطريق الحجرية وقد نامت على جانبيها البيوت الشاحبة متكئة بعضها إلى بعض.

تناهت إلى أسماعنا، عبر النوافذ الصيفية المفتوحة، أصوات توحي بأن أصحابها لا يعانون مشاكل الحصول على جواز سفر.

كانت أصوات وقع أقدامنا تسمع عالية بحكم الليل وسكونه.

سألني شفارتس:

- الضوء.. هل يدهشك أنت أيضاً؟

- نعم، فما زلنا نعيش أجواء أوروبا الممتعة؛ فأنا عندما أنظر إلى هذه الأضواء أشعر أن أحدهم غفل عن إغلاق مكابس الكهرباء وأن هذا الضوء سيكون، بلا شك، سبباً في غارة جوية.

تسمر شفارتس فجأة في مكانه وتكلم بنبرة قدرية:

- لقد أعطيت لنا هذه النعمة لأن شيئاً من الإله ما زال فينا، وها نحن الآن نريد أن نقتل هذه البقية الباقية من الإله في داخلنا.

- إذا أسعفتني ذاكرتي فالأسطورة تقول إنه لم ينعم علينا بالنار، لكن بروميثيوس هو الذي سرقها؛ لذا قررت الآلهة مجتمعة أن تنزل عليه العقاب: تشمع في الكبد. إنني أرى في هذه الأسطورة الجانب الذي يتلاءم مع النفس البشرية.

نظر إليَّ شفارتس:

- لقد عودت نفسي على عدم استعمال الشتائم كما تأصل الخوف في داخلي حيال الكلمات البراقة. أنت تعلم، بلا شك، أن الإنسان يحاول، عن طريق الشتائم والخوف، التخفيف من حدة الأشياء.

- ربما! لكن هل يجوز أن يستمر الإنسان في الحماقة في اللامعقول ولا يسعه غير قول: غير معقول؟ أليس من الأجدر بالمرء أن يحاول تقليص هذه الأمور لربما اكتسب بذلك بصيصاً من الأمل؟

- أنت محق. اعذرني، فلقد نسيت أنك فار، وهل يعقل أن يفكر

الفارون بقضية التناسب؟

- ألستَ فارًّا أيضاً؟

هز شفارتس رأسه بالنفي:

- لم أعد فارًّا، فأنا عائد للمرة الثانية.

سألته مندهشاً ولم أصدق عزمه على العودة ثانية إلى ألمانيا:

- إلى أين أنت عائد؟

- أنا عائد من حيث أتيت.. سأوضح لك الأمر كله.

3

كان النادي الليلي كغيره من النوادي الليلية التي أنشأها الروس البيض بعد ثورة 1917 في جميع أنحاء أوروبا: من برلين إلى لشبونة. تمتاز هذه النوادي بطابع موحد: الندال ينحدرون من أصل أرستقراطي، مغنوها من منتدى الفرق العسكرية، أسعارها باهظة ويعمها جو يتسم بالكآبة، أضواء المكان، كما توقعتها، شاحبة، أما الألمان الموجودون هنالك فكانوا كما توقعتهم: ليسوا مهاجرين.. إنهم، بلا شك، جواسيس، موظفو السفارة أو موظفون في الشركات الألمانية المتعددة.

قال شفارتس:

- أسس الروس أنفسهم على نحو أفضل منا، سبقونا في هجرة بحوالي خمسة عشر عاماً، ولا شك أن الخمسة عشر عاماً من سوء الطالع هي بحق عمر طويل مكثف بالخبرات.

أجبته:

- كانوا الموجة الأولى في الهجرة، وكانت الغالبية تعطف عليهم: تزودهم بالأوراق الضرورية وإذن العمل. أما الآن، وعندما جاء دورنا في الهجرة، فقد وجدنا وكأن شفقة العالم قد نفدت: أصبحنا ثقيلي الظل كالنمل الأبيض، ولم يعد هناك من يرفع صوته عالياً من أجلنا. محظور علينا العمل وحتى الوجود، كما أننا لا نملك أيًّا من الأوراق اللازمة.

بدأت أشعر بالعصبية في هذا المكان، ربما بتأثير الغرفة المغلقة بستائرها الكثيفة، أو لوجود عدد من الألمان فيها، أو لبعد مكاني عن الباب، وهذا يعني صعوبة الفرار في حال حدوث أي عارض. عوَّدت نفسي، خلال سنين الفرار، أن أجلس دائماً بالقرب من باب الخروج.

زاد توتري عدم إمكانية رؤية السفينة من هذه الغرفة.

من يعلم؟! فربما رفعت السفينة مرساها خلال الليل وأبحرت قبل موعدها لسبب ما أو نتيجة لتهديد. لاحظت أن شفارتس أحس بما يدور في داخلي فمدَّ يده إلى جيبه وأخرج منه البطاقتين ووضعهما على المنضدة أمامي:

- خذها فأنا لست من تجار الرقيق.. خذها وانصرف إذا كان هذا ما تريده.

نظرت إليه خجلاً. انتظر فتناولت البطاقتين وأخفيتهما في جيبي.

تابع شفارتس حديثه وكأن شيئاً لم يحدث:

- أنهيت أمور الفندق ثم وجدت قطاراً يقلع في المساء إلى أوسنابروك. شعرت كأنني أعبر الآن الحدود، وبدت لي الأماكن التي كنت فيها قبل ذلك وكأنها المغترب، حتى الأراضي الألمانية منها. بدأت الآن وببطء تتكلم كل شجرة من حولي. كنت أعرف كل القرى التي نعبرها، فكم من رحلة مدرسية قضيناها في هذه الأماكن، وكم من مرة زرتها مع هيلين في الفترة الأولى من تعارفنا. كم كنت أحب هذه الأماكن تماماً كما كنت أحب مدينتي بمنازلها وحدائقها.

كان اشمئزازي، حتى تلك اللحظة، اشمئزازاً تقليديًّا، حاجزاً مبهماً؛ فالأحداث التي مررت بها حجَّرت وشلت كل إحساس في داخلي. لم أشعر يوماً بالحاجة، حتى لم أشعر بالخوف من تحليل الأمور. الآن فجأة، بدأت الأشياء تتكلم، الأشياء المرتبطة بها، لكنها الأشياء التي ليست لها علاقة بما حدث.

لم تتغير معالم الطبيعة، بل بقيت كما عهدتها: قباب الكنائس ما زالت مسترخية بلونها الأخضر الهادئ تحت ضوء المساء الهابط، بينما أخذ النهر، كعادته، يعكس ضوء السماء. ذكرني بتلك الأمسيات التي كنت أمضيها على ضفافه في صيد السمك وأحلامي بمغامرات في بلدان

غريبة. نعم.. تذوقت طعم المغامرة في هذه البلدان الغريبة، لكن على شكل آخر غير الذي كنت أحلم به.

لم تتغير الحقول بفراشاتها والتلال بأشجارها وأزهارها البرية، بقيت كما كانت في أيام شبابي، وفيها يقبع شبابي، مدفوناً إذا كنت أفكر على هذا النحو، أو العكس لو فكرت في الأمور على نحو آخر. لم تُخرج الأحداث هذه الطبيعة عن هدوئها. رأيت القليل من المارة ولم أتبين من بينهم ذوي البزات الرسمية، كل ما رأيته هو المساء وهو يملأ، ببطء، هذه الأماكن بمناخيته. رأيت الحدائق الصغيرة ملأى بالورد والزنابق كما كانت دائماً، لم يلتهمها البراز بعد. بقيت هكذا كما كانت، متدلية على الأسوار الخشبية القديمة، تماماً كما الحال في فرنسا، أما الأبقار فتقف هادئة وسط مراعيها كما هو الحال في سويسرا، سوداء بيضاء بنية بعيونها الواسعة الصبور أبداً. رأيت لقلقاً يضرب بجناحيه على أحد أبواب الفلاحين وزرافات من الحساسين محلقة كما الحال أبداً وفي كل مكان. البشر فقط تغيروا، هذا ما كنت متأكداً منه، لكنني لم أستطِع تبيانه في تلك الليلة، كما أنني لم أستطِع فهمه.

لم يختلف مظهر البشر ببزاتهم الرسمية عمَّا تخيلته. كانت القاطرة تمتلئ ثم تعود لتفرغ ما في داخلها من بشر.. القليلون كانوا بين هؤلاء من ذوي البزات، أما الباقون فكانوا أناساً بلباسهم اليومي العادي وبأحاديثهم المتشابهة تماماً كأي بشر عاديين.

كنت أصادفهم يوميًّا في فرنسا وسويسرا، يتكلمون عن الطقس، الحصاد، عن أحداث يومهم والخوف من الحرب. وكما في خارج ألمانيا يؤكد الجميع أن ألمانيا تريد الحرب، أخذت أسمع من هؤلاء الركاب أن الدول المجاورة هي التي تريد الحرب وتجبر ألمانيا على خوضها، أغلبية هؤلاء البشر من مؤيدي السلام، هذا الرأي السائد دائماً قبل حدوث الكارثة.

توقف القطار فتسللت وسط المجموعة الخارجة، لم تتغير قاعة المحطة عن الوقت الذي تركتها فيه للمرة الأخيرة، بدت لي أصغر وأكثر غباراً من صورتها في مخيلتي.

شعرت، عندما وقفت على الرصيف أمام المحطة، بأن كل ما تحسسته في الساعات الأخيرة أسقط من يدي، كان المساء غائماً رطباً كما هو الحال دائماً بعد سقوط المطر. لم أستطِع، من مكاني هذا، رؤية الطبيعة ثانية، وأخذ كل جزء من كياني يرتجف، عندها أيقنت أنني سأصبح، منذ هذه اللحظة، في خطر دائم. لكن في الوقت ذاته تنازعني إحساس معاكس، هو أنني لن أصاب بأي أذى. أحسست بأنني أقف تحت قبة زجاجية تحميني، لكنها معرضة للكسر في أية لحظة.

عدت إلى شباك التذاكر في القاعة لأبتاع تذكرة عودة لمونستر؛ فأنا لا أستطيع الإقامة في أوسنابروك. الأمر خطير! سألت بثقة مصطنعة بائع التذاكر الذي كان يجلس وراء شباكه بصلعته اللامعة وكأنه بوذا:

- ما موعد مغادرة القطار الأخير؟

- القطار الأول يغادر المحطة في تمام الساعة العاشرة والثلث، والأخير في تمام الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة قبل منتصف الليل.

توجهت إلى إحدى الآلات الذاتية وسحبت تذكرة رصيف. من الأفضل أن تكون بحوزتي تذكرة كهذه في حال مداهمة خطر حقيقي واضطراري لمغادرة المدينة على شكل سريع لا يسمح لي بابتياع تذكرة.

أرصفة المحطة هي في العادة مخابئ سيئة، لكن محطة كمحطة أوسنابروك لها ثلاثة أرصفة تساعد الهارب على الفرار والاختباء في أحد القطارات الواقفة إلى جانب هذه الأرصفة، الآخذة في التحرك. أما إذا أوقف هذا الفار من قبل الكمساري فيستطيع أن يتذرع بحجة أنه استقل القطار الخاطئ وسيترك القطار في المحطة المقبلة.

قررت، بعد فترة من التفكير، التحدث بواسطة الهاتف مع صديق

لي كنت أعرف أنه غير موالٍ للسلطة وسأتعرف، من خلال حديثي معه على الهاتف، إن كان ينوي مساعدتي أم لا. لم أجرؤ على التكلم مع زوجتي لعدم معرفتي إن كانت تعيش بمفردها أم مع رجل آخر.

وقفت في كابينة الهاتف الزجاجية أنظر إلى الهاتف وإلى دليل الأرقام، أخذ قلبي ينبض بقوة عندما أمسكت ذلك الكتاب المتسخ، مثني الأطراف وأخذت أقلبه. أحسست أنني أسمع دقات قلبي وأن غيري يستطيع سماعه أيضاً؛ لذا حنيت جسمي إلى الأمام لأخفي ذلك على من حولي. فتحت ومن دون وعي الصفحة المدون فيها الأحرف الأولى من اسمي السابق. وجدت اسم زوجتي ورقم الهاتف القديم، لكن العنوان كان قد تغير، أصبح اسم الساحة: ساحة هتلر.

شعرت، في تلك اللحظة التي أقرأ فيها الاسم الجديد، بأن الضوء الكهربائي في الكابينة قد تضاعف آلاف المرات. أحسست بأنني أقف داخل غرفة زجاجية مشعة وسط ظلام دامس وأن كشافات ضوئية عالية مسلطة عليَّ من الخارج. عندها أيقنت بجنون خطوتي هذه.

تركت الكابينة وعبرت القاعة نصف المظلمة.. شعرت بأن اللافتات والملصقات عن القوة والسعادة والدعايات للمصحات الألمانية بسمائها الزرقاء تشير إليَّ.. تهددني.. لا بد أن عدداً من القطارات قد وصل في أثناء غيابي القصير؛ فلقد عجت السلالم المؤدية إلى القاعة بكتل من البشر، ومن بين تلك المجموعات انبرى رجل بلباس الصاعقة ومشى في اتجاهي.

لم أهرب، فربما لم يكن يقصدني، لكنه وقف أمامي وأخذ ينظر إليَّ وقال:

- عفواً.. هل لديك ولاعة؟

- ولاعة؟

كررت الكلمة بسرعة ثم قلت:

- ليس لديَّ ولاعة، بل علبة ثقاب.

مددت يدي إلى جيبي ورحت أبحث.

- لماذا عود ثقاب فسيجارتك مشتعلة؟!

لم أنتبه لأني كنت أدخن، فرفعت له السيجارة المشتعلة فأشعل سيجارته منها.

- ما نوع السيجارة هذه التي تدخنها؟ إن رائحتها تشبه رائحة السيجار.

- السيجارة التي أدخنها فرنسية، وقد حملت معي من الحدود الفرنسية بعضاً منها. إنها هدية من صديق.. عشب فرنسي، تبغ أسود.. حملها لي معه من رحلة.. إني أجدها ثقيلة جدًّا جدًّا.

ضحك رجل الصاعقة:

- من الأفضل أن نحذو حذو القائد.. لكن من يستطيع ذلك، خاصة في مثل هذه الأوقات العصيبة؟!

حياني وذهب.

ابتسم شفارتس ابتسامة واهنة:

- عندما كنت إنساناً له الحق في الوقوف على أرض ثابتة كنت أشك بما يكتبه الروائيون بوصف الخوف. كيف يتوقف قلب الضحية عن الخفقان، تقف بلا حراك، وكيف يتحول الدم فيها إلى سائل جليدي يسري في الظهر والعروق! وكيف يتصبب جسمها عرقاً. كنت أنظر إلى هذا الوصف كونه صوراً دون قوالب مصبوبة وخطط مرسومة وأنه، علاوة على ذلك، أساليب سيئة.. ربما كانت أساليب سيئة، لكنها حقيقية.. أما أنا فعشت هذه المواقف كلها وتحسست هذا الخوف كله على الرغم من أنني في السابق وقبل أن أمر بتجربة الخوف كنت أضحك وأسخر لدى قراءتي لها.

تقدم نادل منا:

- هل يرغب السادة بصحبة؟

- لا.

انحنى إليَّ وهمس في أذني:

- ألا ترغب فعلاً في مجالسة هاتين السيدتين الجالستين إلى البار قبل أن ترفض؟

نظرت إليهما: إحداهما ضخمة البنيان.. كانتا ترتديان ثياباً طويلة ضيقة، لكنني لم أستطِع التعرف إلى وجهيهما.

أجبت النادل بقطعية:

- لا.

أوضح النادل:

- إنهما سيدتان حقيقيتان، السيدة إلى اليمين ألمانية.

- هل أرسلتك هي إلينا؟

أجاب النادل وقد ارتسمت على محياه بسمة بريئة مندهشة:

- لا يا سيدي.. إنها فكرتي.

- حسناً.. لتدفن فكرتك هذه، والأفضل لك أن تأتينا ببعض الطعام.

سألني شفارتس:

- ماذا يريد؟

- يريد أن يعلقنا بحفيدة ماتا هاريس.. لا بد أنهما أغرتاه بكثير من البقشيش.

- لم أدفع له شيئاً بعدُ.. هل تظن أنهما جاسوستان؟

- ربما، لكنهما بلا شك جاسوستان للأممية الوحيدة: المال.

- هل هما ألمانيتان؟

- واحدة منهما، هكذا قال لي النادل.

- هل تظن أن وجودهما هنا محاولة لإقناع الفارين بالعودة.

- أشك في ذلك، لكن لا تنسَ أن الروس في يومنا هذا هم الأقدر

على اختطاف البشر.

أحضر النادل طبقاً من شرائح الخبز واللحم كنت قد طلبته منه بعد أن بدأت أشعر بتأثير النبيذ.

- أريد أن أبقى يقظاً. سألت شفارتس:

- ألا تأكل؟

هز رأسه بالنفي.. وكالغائب قال:

- لم أظن يوماً أن السجائر هي التي ستفضح أمري؛ لذا وبسرعة أخذت أراقب ما بحوزتي.

رميت بأعواد الثقاب الفرنسية والبقية الباقية من السجائر وابتعت سجائر ألمانية بدلاً منها. تذكرت أن جواز سفري يحمل ختم الحدود الفرنسية، كما أنه يحوي أيضاً على إذن دخول، الأمر الذي يعلل وجود سجائر فرنسية في حوزتي، هذا إذا أُلقي القبض عليَّ.

عدت مبللاً بالعرق إلى كابينة الهاتف، حاقداً على ذاتي وعلى الخوف الذي اعتراني. انتظرت خارج الكابينة ريثما تنتهي السيدة في الداخل، التي تحمل شارة الحزب على قميصها وتنبح بأوامرها عبر صدفة الهاتف. طلبت رقمين، أما الرقم الثالث فبقي بلا جواب؛ لذا خرجت غاضبة، تميزها سمات واضحة من الطوية.

أدرت القرص طالباً رقم هاتف صديقي. رد عليَّ صوت نسائي:

- عفواً.. هل أستطيع التكلم إلى الدكتور مارتينس؟

سألتها وتنبهت إلى صوتي الذي أصيب فجأة بالبحة. عاد الصوت النسائي ليسألني:

- ما اسم الطالب؟

- صديق للدكتور مارتينس.

عادت المرأة لتسأل:

- الاسم من فضلك!

- إنني صديق للدكتور مارتينس.. أرجوكِ أن تخبريه بذلك. إنني أحتاجه لأمر اضطراري.

أجاب الصوت النسائي:

- نأسف، إن لم تفصح عن اسمك فلا أستطيع أن أصلك بالدكتور مارتينس.

- أرجوكِ يا سيدتي أن تغضي الطرف وأن تعتبريها حالة استثنائية، فالدكتور مارتينس ينتظر مكالمتي.

- إذا كان الأمر كما تدعي فلا مانع من الإفصاح عن اسمك.

فكرت بالأمر بيأس وقطع حبل أفكاري صوت إغلاق السماعة.

وقفت على رصيف المحطة الرمادي المشبع بالرياح.. فشلت محاولتي الأولى التي ظننتها ستكون أسهل مما جاءت عليه، وأحسست بالعجز أمام التفكير المنظم. سألت نفسي إذا كان من الأفضل أن أكلم هيلين على الرغم ممَّا في هذه الخطوة من مجازفة.. ربما كان المتكلم أحد أفراد عائلتها، وعندها سيتعرف على صوتي لا محالة. أستطيع أن أعطي اسماً خاطئاً! لكن أي اسم؟ الدكتور مارتينس.. لم يخطر في بالي أي اسم آخر. ارتجفت لدى التفكير بهذه الخطوة.. فكرة سهلة ولم أكن أعجز عنها حتى أيام كنت في العاشرة من العمر. لماذا لا أطلب مارتينس منتحلاً اسم شقيق زوجتي؟ إنه يعرفه منذ عشر سنين، لكنه لم يكن يستسيغه. باشرت على الفور في تحقيق هذه الفكرة.. رد عليَّ الصوت النسائي ذاته. تكلمت بحدة:

- هنا يتكلم جورج يورجينس! الدكتور مارتينس من فضلك!

- هل حضرتك هو المتكلم ذاته من فترة قصيرة مضت؟

- هنا يتكلم ضابط الصاعقة يورجينس.. أريد التكلم إلى الدكتور مارتينس في الحال.

- نعم.. لحظة من فضلك.. حالاً!

نظر شفارتس إليَّ:

- هل تعرف تلك الحشرجة الطفيفة في السماعة وكأن المرء ينتظر الحياة من خلالها؟

حنيت رأسي موافقاً.

- ربما ليست الحياة هي التي تنتظرها، بل العدم الذي تحاول استحلافه في بعض الأحيان.

عاد إليَّ الصوت من جديد:

- الدكتور مارتينس على الخط!

شعرت فجأة بإحدى تلك الحالات التي كنت أسخر منها في السابق:

أحسست بجفاف في بلعومي. همست أخيراً:

- رودلف؟

- ماذا؟

- رودلف؟

- ماذا؟

- رودلف! إنني يورجينس، قريب السيدة هيلين.

- لا أفهم! أليس المتكلم هو الضابط يورجينس؟

- إنني أتكلم باسمه.. رودلف! إنني قريب هيلين! هل فهمتني؟

أجاب الرجل على الجانب الآخر من الأسلاك بحيرة:

- لا أفهم شيئاً. إنني الآن في الدوام وعندي العديد من المرضى.

- هل أستطيع أن آتيك خلال ساعات الدوام يا رودلف؟ هل لديك عمل كثير؟

- أرجوك يا سيدي! إنني لا أعرفك؟

- أيها الغلام القديم!

تذكرت فجأة اللقب الذي كنت أناديه به أيام الطفولة.

كان هذا اسما من روايات كارل ماي التي قرأناها ونحن في الثانية عشرة من العمر. لم أسمع للحظة أي جواب، ثم همس مارتينس:

- ماذا؟

- فينيتو! هل نسيت الأسماء القديمة؟ إنها كتب القائد المفضلة.

- صحيح!

كان من المعروف أن القائد الذي أشعل الحرب العالمية الثانية لا يخلد للنوم قبل أن يقرأ بعض المقاطع من المجلدات الثلاثين أو الأربعين لروائي كتب عن الهنود صيادي الفراء، كتب يسخر منها أبناء الخامسة عشرة. أجاب مارتينس بدهشة:

- فينيتو؟

- نعم.. أريد أن أراك.

- لا أفهم ماذا تعني! أين أنت؟

- هنا في أوسنابروك! أين أستطيع مقابلتك؟

أوضح بطريقة ميكانيكية:

- إنني في عيادتي!

- إنني مريض وأريد زيارتك في العيادة.

أجاب مارتينس بنبرة تشير إلى قرار حاسم:

- إذا كنت مريضاً فعليك أن تحضر لعيادتي.. لا أفهم سبباً لمكالمتي قبلها.

- متى؟

- من الأفضل أن تأتي في حوالي السابعة والنصف. ثم أكد:

- ولكن ليس قبل هذا الموعد.

- حسناً.. في السابعة والنصف.

أغلقت السماعة ووجدت نفسي مبللاً بالعرق للمرة الثانية.

سرت ببطء باتجاه المخرج. وقفت في الخارج ولمحت القمر

الشاحب يظهر للحظات من بين الغيوم. سيصبح هذا البدر بعد أسبوع هلالاً، وعندها يكون الطقس ملائماً لعبور الحدود. لم يزَل أمامي ساعة إلا ربع الساعة حتى يحين الموعد. عليَّ أن أبتعد عن المحطة؛ فوجود المرء لفترة طويلة في المحطة يثير الشبهات. جلت ببطء أكثر الطرقات ظلمة وأقلها ازدحاماً والتي قادتني إلى جسور المدينة القديمة. كان جزءاً من المنطقة ممهداً أو مليئاً بالأشجار الباسقة، أما القسم الآخر فكان لا يزال على وضعه القديم.. كان هذا القسم الأخير محاذياً لضفاف النهر. تتبعت المجرى ومررت من أمام كنيسة قلب المسيح.

يستطيع المرء النظر من فوق الجسر الأخير إلى أسطح المنازل وقباب كنائس المدينة. لمعت قبة الكاتدرائية الرئيسية، التي بُنيت في عصر الباروك، تحت ضوء القمر المرتجف.. هذا المشهد مطبوع في ذاكرتي، كما أنه مطبوع على آلاف البطاقات التذكارية.. تعرفت من جديد إلى رائحة النهر ورائحة أشجار الزيزفون التي ترافق امتداد السد.

نظرت حولي، فرأيت العديد من أزواج العشاق يجلسون ملتصقين على المقاعد الكثيرة الموزعة بين الأشجار، التي يستطيع الجالس عليها مشاهدة المدينة والنهر.

جلست على أحد المقاعد الخاوية ريثما ينقضي نصف الساعة المتبقي لموعدي مع مارتينس. بدأت أجراس ساعة الكاتدرائية بالطنين.. كنت متوتراً جدًّا، وقلت إنني أشعر بارتجاف الأجراس في جسدي، كشخص يقف بين لاعبي تنس ويحس بضربة كل واحد منهما: أحد هذين اللاعبين هو أنا القديم، أنا الذي أعرفه والذي يتوتر ويغوص في بحار الخوف ولا يجرؤ على النظر إلى ذاته والتفكير في واقعه، أما اللاعب الآخر فهو أنا الآخر، أنا الجديد، الذي يرفض التفكير ويصر على أن يبقى شجاعاً، جريئاً، يعرض نفسه للخطر لقناعته بعدم وجود طريق آخر - انفصام شخصية غريب! لكن هناك شخصاً ثالثاً يقف بين

هذين اللاعبين، هو متفرج، غير متحيز وكأنه حكم، سلبي، لكن قلبه يمتلئ بالأمل في أن ينتصر الأنا الجديد.

ما زلت أذكر نصف الساعة هذا بكل دقائقه.. ما زلت أذكر دهشتي أمام مراقبتي السريرية لنفسي.. شعرت كأنني أقف وسط غرفة، عجت جدرانها بالمرايا التي أخذت تعكس صورة في الفراغ اللامتناهي، وأنني أرى في كل صورة منها شخصاً ينظر إلى كتف شخصي الآخر، لكن لم تلبث هذه المرايا أن اتخذت لوناً مظلماً ولم يعد في استطاعتي التعرف إلى تعابير وجه هذا الشخص. هل هي تعابير تنم عن التساؤل، الحزن، أو الأمل الكبير؟

دخلت هذه الصور كلها حالة غموض وغاصت في الظلام الفضي. لم أستطِع التأكد من هدف المرأة التي جلست إلى جانبي. هل جندت السلطة كل المعالم الإنسانية في خدمة مصالحها؟ نهضت وذهبت ودوت في أذني ضحكتها الساخرة التي لم أستطِع نسيانها، تلك الضحكة الساخرة المشفقة، الصادرة عن امرأة غريبة على ضفاف بحيرة أوسنابروك.

4

خلت غرفة الانتظار من المرضى وتدلت من مصطبة نافذتها نباتات خضراء تشبه نبات المطاط. تناثرت بعض المجلات على المنضدة، وقد حملت أغلفتها صوراً لرجال السلطة، جنود هتلر وفصائله للشباب في أثناء أحد الاستعراضات. سمعت وقع خطوات مسرعة ثم رأيت مارتينس يقف عند باب الغرفة. حملق بي ثم نزع نظارته وغمز لي. لم يتعرف عليَّ على الفور بسبب الضوء الشحيح أو ربما بسبب الشارب. قلت:

- رودلف! إنني جوزيف.

رفع يده مشيراً لي بأن أصمت ثم همس:

- من أين أنت قادم؟

رفعت منكبي بحركة متسائلة. ثم أجبت:

- هل يهمك كثيراً معرفة من أين قدمت؟ إنني الآن هنا وعليك أن تساعدني.

رفع نظره إليَّ وبدت عيناه قصيرتا النظر في ظل ذلك الضوء الشاحب كعيني سمكة متربصة خلف جدار حوض سمك زجاجي.

- هل لديك إذن خاص بالبقاء؟

- إذن خاص أصدرته أنا بنفسي.

- وكيف عبرت الحدود؟

- إن هذه الأسئلة فقدت أهميتها، الأهم هو أنني عدت بقصد رؤية هيلين.

حملق بي:

- لهذا السبب فقط؟

- نعم.

شعرت فجأة بهدوء عميق. كانت أصعب الأوقات، تلك التي أمضيتها مع نفسي، أما الآن فقد اختفى كل توتري وأخذت أفكر بطريقة مجدية لتهدئة ذلك الشخص الواقف أمامي. عاد يلح في سؤاله:

- ألهذا السبب فقط؟

- نعم، لهذا السبب فقط، وعليك أن تساعدني.

- يا إلهي!

- هل توفيت؟

- لا! إنها ما زالت على قيد الحياة.

- هل هي هنا؟

- نعم. زارتني منذ أسبوع.

- هل نستطيع التحدث هنا؟

أومأ مارتينس برأسه بالإيجاب:

- طلبت من الممرضة الذهاب، وأستطيع أن أصرف المرضى الجدد.. لا أستطيع اصطحابك إلى منزلي، فلقد تزوجت منذ سنتين.. أنت تفهم!

فهمت! فلا أحد يستطيع الوثوق بأحد داخل أسوار إمبراطورية الألف عام حتى ولا بأفراد عائلته. تعالج قضية الوشاية بأفراد العائلة يوميًّا، من قبل مخلصي ألمانيا، على أنها واجب وطني.. إنني أعرف ذلك، فلم يكن الواشي الذي أدخلت المعتقل بسببه، سوى شقيق زوجتي.

قال مارتينس بسرعة:

لم تعد زوجتي فرداً من أفراد الحزب، لكننا نتجنب الحديث في هذه الأمور.

نظر إليَّ نظرة جائرة وتابع:

- أعني أننا لم نحاول يوماً التعرض إلى هذا الأمر بالذات.. لا أستطيع التكهن بطريقة تفكيرها.. دعنا الآن نجلس في غرفتي. فتح الباب

المؤدي إلى غرفته ثم أوصدها بعد أن استقررنا في داخلها.

قلت له:

- دع الباب مفتوحاً؛ فالأبواب الموصدة تثير الشبهات.

أدار القفل ونظر إليَّ:

- جوزيـف.. بحـق الآلهـة، مـاذا جئـت تفعـل هنا؟ وكيف وصلت خفية إلى هذا المكان؟

لا عليك.. فأنت ليس ملزماً بتخبئتي.. إنني أنزل في أحد الفنادق خارج المدينة. قصدتك لأنني لا أعرف أحداً سواك يستطيع أن يفيدني بمعلومات عن هيلين ولا يمكن أن يشي بي. لم أسمع من هيلين شيئاً خلال السـنوات الخمس الماضية.. ماذا حل بها؟ هل تزوجت؟ أما إذا كانت تزوجت من غيري...

- ألهذا السبب عدت؟

أجبته مندهشاً:

- نعم.. وهل يوجد سبب آخر؟

- عليك أن تبقى متخفياً.. تستطيع أن تمضي الليل هنا وسأوقظك قبـل السـابعة صباحـاً، موعـد قدوم عاملـة التنظيف. إنها تنهي عملها هنا في الثامنة والنصف، عندها تستطيع العودة إلى هنا والبقاء حتى الحادية عشرة. فأنا لا أستقبل المرضى قبل هذه الساعة. سألته:

- هل تزوجت هيلين؟

- هيلين؟

هز رأسه:

- لا أظن أنها حتى مطلقة منك.

- أين تقطن؟ هل ما زالت تقطن في منزلنا القديم؟

- أعتقد ذلك.

- هل يقيم معها أحد؟

- من تعني؟
- أمها، أختها، أو أخوها، أو أي قريب آخر.
- لا أستطيع الرد؛ فأنا لا أعرف أمور حياتها بالتفصيل.
- عليك أن تسعى للتأكد من ذلك وتخبرها بأنني هنا.
- لماذا لا تخبرها أنت؟ إليك الهاتف.
- وماذا سيكون الأمر لو كان المجيب هو أخاها؟ هذا الأخ الذي وشى بي.
- إنك على حق! ربما دهشت كدهشتي.. عندها يصعب عليها إخفاء الأمر.
- علاوة على ذلك فأنا لا أعرف حقيقة مشاعرها حيالي يا رودلف! مضى على غيابي خمسة أعوام لم تتعد الفترة التي قضيناها معاً أربعة أعوام، كما أن زمن الغياب يقاس بعشرة أضعاف زمن اللقيا.

هز رأسه وقال:
- ما زلت عاجزاً عن فهمك.
- هذا ممكن، فأنا أيضاً لا أستطيع فهم ذاتي؛ فالواحد منا يعيش حياة تختلف عن حياة الآخر.
- لماذا لم تكتب لها؟
- لا أستطيع أن أوضح لك الأمور كلها الآن يا رودلف.. اذهب إلى هيلين، تحدث إليها، وحاول أن تفهم طريقة تفكيرها. إذا وجدت أنها تتقبل رؤيتي فأخبرها أنني هنا واسألها عن أسلم طريقة لمقابلتها.
- متى عليَّ أن أذهب؟
- في الحال! متى إذاً؟

نظر حوله:
- أين ستمكث خلال فترة غيابي؟ المكان هنا غير آمن، فربما أرسلت زوجتي الخادمة للسؤال عني في حال طال غيابي. إنها اعتادت

أن أمر عليها بعد انتهاء عملي.. هناك طريقة.. أستطيع أن أوصد عليك الباب!

- لا.. إنه ليس بالحل الصحيح.

قلت له:

- وأنا أرفض أن يُقفل عليَّ. ألا تستطيع أن تبلغ زوجتك باضطرارك لعيادة أحد مرضاك في بيته.

- سأخبرها بذلك فيما بعد! إنها الطريقة الأسهل.

نظرت إليه ورأيت بريقاً في عينيه.. خلت أنه غمز لي بعينه اليسرى ولثانية فقط. عندها عدت بذاكرتي معه إلى أيام طفولتنا. قلت له:

- سأنتظرك في الكاتدرائية؛ فالكنائس اليوم ما زالت آمنة كما كانت في العصور الوسطى.. متى أستطيع أن أكلمك؟

- بعد ساعة من الآن.. اطلبني باسم أوتو شتورم.

- كيف أستطيع العثور عليك؟ ألا تفضل الذهاب إلى مكان فيه هاتف؟

- الخطر يكمن دائماً في الأماكن التي فيها هواتف.

- نعم.. ربما أنت على حق.. إذا لم تجدني حاول الاتصال بي مرة ثانية أو اترك لي خبراً عن مكان وجودك.

- حسناً.

تناولت قبعتي.

- جوزيف!

استدرت إليه. سألني:

- كيف الحال في الخارج من دون...؟

- الحال في الخارج من دون ما عندكم.. لكن كيف الحال هنا؟ هل ما زالت تمتلئ بكل شيء وتفتقر إلى الشيء الواحد؟

- الحالة سيئة.. الأمور سيئة يا جوزيف، لكنها براقة.

سلكت الطرقات المعروفة بقلة المارة فيها والمؤدية إلى الكاتدرائية، التي لم تكن تبعد كثيراً عن المكان. مرَّ من أمامي، بينما كنت أسير في شارع كرات، طابور من الجند المشاة، ينشدون نشيداً لم أكن قد سمعته من قبل ورأيت طابوراً آخر مصطفًّا في ساحة الكاتدرائية وقد تجمهر حولهم ما يقارب الثلاثمائة شخص وأغلبهم من مرتدي البزات الحربية.

وقفوا ملتصقين الواحد بالآخر.. سمعت صوتاً وأخذت أبحث بعينيَّ عن مكان الخطيب، لكنني لم أرَ أحداً. تنبهت بعدها إلى سماعة سوداء كبيرة موضوعة على المنصة.

كانت السماعة تقف هناك وحيدة جرداء وقد سلطت عليها الكشافات الضوئية: آلة ميكانيكية تزعق داعية للحق الكامل لألمانيا في استرجاع جميع الأراضي الألمانية وبناء ألمانيا الكبيرة، معتمدة على واقع أن السلام في العالم مرهون برضوخ العالم بأسره لمطالب ألمانيا: وما تطلبه ألمانيا هو الحق.

كان الجو عاصفاً، وأخذت الأغصان المتأرجحة ترمي بظلالها على تلك الوجوه، على الآلة النابحة وعلى التماثيل الحجرية التي تزين ساحة الكاتدرائية: المصلوب وسط شقين.

كانت وجوه جمهور المستمعين متماسكة ومشرقة، تبدو عليها سمات الرضا.. إنهم يؤمنون بكل ما تصرخ به تلك الآلة. مراقبة هؤلاء تعطي صورة جلية لتأثير فن التنويم المغناطيسي: جميعهم يصفقون لذلك الشيء الذي لا يستطيع رؤيتهم وسماعهم، يصفقون له وكأنه بشر حقيقي.

كان هذا المشهد صورة حقيقية تعكس الفراغ وجنون عصرنا المظلم المليء بالخوف والهستيريا، وتوضح كيف تنساق جماهيرنا وراء الكلمات العريضة، غير عابئة إن جاءتها صرخات هذه الكلمات من اليسار أو اليمين، الأهم لدى هذه الجماهير هو أن تشعر بأن هناك من يحمل عنها عبء التفكير السقيم ويريحها من المسؤولية. إنها تنساق

وراء من يتجرأ على الإفصاح عمَّا تخاف هي من الإفصاح عنه، لكنها في الوقت ذاته لا تستطيع تخطيه.

لم أكن أتوقع أن أجد مجموعة كبيرة من المصلين داخل الكاتدرائية، لكنني تذكرت أنها الأيام الأخيرة من شهر مايو وأنه في مثل هذه الأيام من كل عام تقام الصلوات الليلية. فكرت للحظات أن أترك الكاتدرائية وألجأ إلى إحدى الكنائس البروتستانتية، لكنني لم أكن متأكداً من أنها لا تقيم هي الأخرى الصلوات الليلية.

جلست على أحد المقاعد الخاوية إلى جانب المدخل.. كان المذبح مضيئاً بشموعه، أما باقي الكنيسة فأضيء بنور خافت، الأمر الذي هدأني؛ ففي ظل هذا النور يصعب على أحد التعرف إليَّ.

أخذ الكاهن يدور ببطء حول المذبح وسط غيمة من البخور، البروكار وضوء الشموع، بينما أحاطت به مجموعة من الفتيان ارتدوا أثواباً حمراء وقمصاناً بيضاء طويلة متدلية وقد تقدمهم حامل البخور. سمعت صوت الأورج يرافقه صوت المنشدين، وفجأة شعرت بأن هذه الوجوه المحملقة التي أراها الآن لا تختلف عن الوجوه التي شاهدتها قبل قليل في ساحة الكاتدرائية.. بدت لي هذه الوجوه المشدودة، على الرغم من اتساع حدقات عيونها، تغط في سبات مفتوح، ممتلئة بالإيمان الذي يلغي أي تساؤل، والرفض التام لتحمل المسؤولية.

كل شيء داخل الكنيسة يوحي بليونة وعذوبة عكس ما هو عليه في الخارج، لكن هذا الدين الذي ينادي بمحبة الله ومحبة الآخرين من بني البشر لم يكن، لفترات طويلة، بهذه الليونة.. هذا الدين كلَّف البشرية، عبر مئات السنين، الكثير من إراقة الدماء. باشر هذا الدين، حال انتهاء ملاحقته، ملاحقة الآخرين عن طريق حرق الأحياء والسيف والتعذيب.

هذا ما أوضحه لي شقيق هيلين في المعتقل عندما كنت معلقاً بيدي كالمصلوب نفسه. قال: لقد اتبعنا طريقة كنيستكم التي علمتنا بمحاكم

تفتيشها وبزنازين تعذيبها وباسم الإله كيف علينا أن نتعامل مع أعداء أفكارنا. لكننا نبقى، على الرغم من ذلك، أقل حدة منكم؛ فنحن لا نشعل النار بالأحياء إلا في حالات نادرة. كنت معلقاً، وكان التعليق على الصليب هو أبسط الطرق المتبعة للحصول على بعض المعلومات من المعتقلين.

رفع الكاهن من على المذبح وعاء السر المقدس الذهبي وبارك الجموع. جلست هادئاً وأحسست بأنني في غيمة من الدخان والفراغ والضوء، وصدح صوت المنشدين وهم ينشدون النشيد الأخير "لتكن أنت في هذه الليلة مظلتي وحارسي". كان هذا النشيد مألوفاً لي منذ طفولتي؛ حيث كان يعني لي الليل: الخطر، أما الآن فتبدلت الأشياء وأصبح الخطر يكمن بالنسبة لي في الضوء.

بدأت جموع المصلين بمغادرة الكنيسة.. كان لا يزال أمامي خمس عشرة دقيقة إلى حين موعدي؛ لذا تسللت ووقفت في إحدى الزوايا القائمة بين الأعمدة الداعمة للقبة.

رأيت في تلك اللحظة هيلين.. رأيتها للوهلة الأولى كزوبعة بين تلك الجموع الغفيرة المتجهة إلى باب الخروج، رأيت شخصاً يكافح عكس التيار بين تلك الجموع، ومن ثَمَّ ولثوانٍ فقط رأيت وجها، غاضباً، عاقد العزم، وظننت للحظات أنه يمكن أن يكون وجه امرأة أضاعت شيئاً.

لم أتعرف عليها في الحال لأنني لم أتوقع وجودها في ذلك المكان. تعرفت عليها فقط عندما خرجت من بين الجموع ومرت أمامي. عرفتها من حركة كتفيها.. كانت لها حركة كتفين مميزة، وهذا ما جعلها تمر بين تلك الجموع دون أن يمس كتفيها أحد.

خرجتْ من بين ذلك السيل البشري، وما لبثت أن وقفت وحيدة أمام الشمع ووسط العتمة الزرقاء والحمراء، بين النوافذ الرومانية المستطيلة.. فجأة وقفت هناك نحيلة صغيرة وكم بدت وحيدة وتائهة. نهضت وحاولت

أن ألتقي نظرتها؛ لأنني لم أجرؤ أن ألوِّح لها بيدي؛ فالكنيسة كانت لا تزال ملأى بالخارجين، كما أن حركة كهذه داخل الكنيسة ستلفت الانتباه.

إنها ما زالت على قيد الحياة. هذا ما فكرت فيه أولاً.. إنها لم تمُت، كما أنها ليست مريضة. غريب.. كيف لا يتبادر إلى تفكير الإنسان، في مثل هذه المواقف، سوى التفكير بالمرض والموت؟ لكنه سرعان ما يُفاجأ بأن هناك أشياء ما زالت على سابق عهدها وأن الشخص الذي يحب ما زال موجوداً.

تابعت خطواتها بسرعة باتجاه الكورال، عندها خرجت من مخبئي ولحقت بها. وقفت هيلين أمام كرسي الركوع لتناول القربان، استدارت وأخذت ترقب بانتباه الراكعين ثم عادت أدراجها ببطء، توقفت. كان واضحاً من نظرتها أنها متأكدة من وجودي بين المصلين.. مرت من أمامي وكادت تلامسني.

- هيلين!

همست في أذنها وقد وقفت خلفها.

لا تستديري! اخرجي من هنا وسألحق بك. من الأفضل ألا يرانا أحد هنا.

انتفضت وكأنني قمت بصفعها ثم تابعت سيرها. ماذا أتى بها إلى هنا؟ إنه لخطر كبير أن يتعرف أحد علينا هنا، لكنني أنا أيضاً لم أكن أتوقع وجود هذا الحشد من المصلين. نظرت إليها وهي تسير أمامي وقد امتلأت نفسي بالقلق وتملكتني في تلك اللحظة فكرة مُلحَّة: الخروج من هذا المكان. كانت ترتدي "تايير" أسود وقبعة صغيرة. سارت منتصبة، شامخة الرأس مع انحناءة طفيفة، وكأنها تسترق السمع لصوت خطواتي. سِرتُ وراءها محاولاً أن تبقى بيننا مسافة عدة خطوات، مسافة أستطيع من خلالها مراقبتها واتباعها. تعلمت خلال السنوات الماضية أن السير بالقرب من شخص يريد المرء لقاءه يؤدي إلى الشبهات.

مرت من أمام الوعاء الحجري للماء المقدس، انعطفت وسلكت الطريق المحيط بالكاتدرائية والمبلط بالحجارة القديمة. لا أستطيع وصف أحاسيسي في تلك اللحظة، فلو قلت إنني أحسست أن حياتي نفسها تسير أمامي، بعيدة عني بضع خطوات، ثم تتوقف، تستدير وتنظر إليَّ، عندها يصبح هذا القول وكأنه قول من ضمن القوالب المألوفة، بالتالي حقيقة غير الحقيقة التي كنت أشعر بها. على الرغم من هذا كله فلقد كان هذا الإحساس جزءاً مما أحسست به. اقتربت من هيلين، من قوامها ووجهها الشاحب، من فمها وعينيها وخلفت ورائي كل ما مررت به.

لم يغرق زمن فراقنا، بل بقي، لكنه بقي شيئاً قرأت عنه، لكنني لم أعشه.

بادرتني هيلين بالسؤال وبطريقة شبه عدائية قبل أن أقترب منها:

- من أين أتيت؟

- من فرنسا.

- هل سمحوا لك بالدخول؟

- عبرت الحدود متسللاً.

كانت هذه الأسئلة نفسها تقريباً التي طرحها عليَّ مارتينس، عادت لتسألني:

- ولماذا عدت؟

- لو كنت أعلم السبب لما كنت هنا الآن.

لم أجرؤ على تقبيلها. كانت تقف أمامي صلبة توحي بأنها ستنكسر لو لمستها من شدة تشنجها. لم أستطِع التكهن بما كان يجول في خاطرها، لكنني كنت فرحاً بأنني استطعت رؤيتها ثانية. إنها على قيد الحياة! أستطيع الآن أن أعود أو أنتظر وأرقب ماذا سيأتي. سألتني:

- ألا تعرف؟

- سأعرف غداً كل شيء أو في خلال أسبوع أو فيما بعد. نظرت إليها.. ماذا يوجد بعدُ لمعرفته؟ المعرفة كالزبد الأبيض المتراقص فوق موجة، تستطيع أي ريح أن تنفخه وتبعده بينما تبقى الموجة.

- عدت إذاً!

قالتها وأخذت تلك الصلابة تتهاوى من وجهها ليعود وجهاً رقيقاً. اقتربت مني خطوة، احتضنتُها بينما كانت يداها لا تزالان تقفان هكذا منذ فترة طويلة وسط ساحة الكاتدرائية السوداء، بينما وصلتنا الأصوات المختلفة بعيدة وواهنة وكأنه أقيم بيننا وبين العالم المحيط بنا جدار زجاجي.. شاهدت إلى يساري، على بعد حوالي مائة خطوة، مبنى المسرح المضاء بسلالمه الحجرية البيضاء، وما زلت أذكر دهشتي للحظات لعدم تحويلهم هذا المبنى أيضاً إلى ثكنة عسكرية أو إلى سجن.

مرت بنا جماعة من المارة.. أطلق أحدهم ضحكة عالية، عندها استدار جميعهم صوبنا وأخذوا ينظرون إلينا.

همست هيلين:

- هيا بنا.. لا نستطيع أن نبقى في هذا المكان.

- لكن إلى أين؟

- إلى منزلك.

للحظات لم أصدق ما قالته؛ لذا كررت سؤالي:

- إلى أين؟

- إلى منزلك.. إلى أين إذاً؟

- إنهم سيتعرفون عليَّ حتماً عندما أصعد السلالم.. ألا يزال القاطنون في البناية هم ذاتهم من قبل خمسة أعوام؟

- لن يراك أحد.

- والخادمة؟

- سأطلب منها مغادرة المنزل الليلة.

- وغداً صباحاً.

حملقت بي هيلين:

- هل قطعت هذه المسافة كلها لتطرح عليَّ مثل هذه الأسئلة؟

- لم آتِ إلى هنا ليُقبض عليَّ أو ليزج بك في أحد المعتقلات يا هيلين. ابتسمت فجأة وقالت:

- جوزيف! إنك لم تتغير، لكن قل لي: لماذا عدت؟

- أنا نفسي لا أعرف السبب.

ثم ضحكتُ أنا أيضاً من جوابي وشعرت بالخوف يترك داخلي عندما تذكرت أنها كانت في السابق تغضب وتيأس من طبيعتي المعقدة كما هو الحال الآن. أجبتها:

- لكنني الآن هنا.

هزت رأسها ورأيت الدمع يملأ عينيها.

- ليس تماماً، ليس تماماً.. لكن دعنا الآن نغادر هذا المكان وإلا ألقي القبض عليَّ بتهمة التحرش بك.

عبرنا الساحة ثم قلت:

- لكنني لا أستطيع دخول المنزل معك.. عليك أن تصرفي الخادمة أولاً.. لقد استأجرت غرفة في أحد فنادق مونستر، حيث لا يعرفني أحد هناك.

توقفت عن السير:

- وكم ستطول فترة إقامتك؟

- لا أعرف حتى الآن؛ فأنا لم أفكر بأكثر من أن أراكِ وأن أحاول بعد ذلك العودة من حيث أتيت.

- وتعبر الحدود؟

- وهل هناك طريق آخر يا هيلين؟

حنت رأسها وتابعت سيرها.. كنت أظن أنني سأكون في قمة

السعادة في مثل هذه اللحظة، لكنني خيَّبت ظن نفسي.

الشعور الحقيقي تجاه الأمور لا يتحسسه المرء إلا فيما بعد.. قلت لها:

- عليَّ أن أكلم مارتينس بالهاتف.

- تستطيع أن تقوم بذلك من منزلك.

جرحتني كلمتها المستمرة (منزلك)، خاصة أنها كانت تتعمد ذلك، حرت لكنني لم أجد جواباً.

- وعدت مارتينس بأن أكلمه بعد ساعة، وإذا لم أقم بذلك فسيعتقد أنه أصابني مكروه وربما دفعه هذا التفكير إلى تصرف أحمق.

لكنه يعلم أنني أتيت لألقاكِ هنا.

نظرت إلى الساعة فوجدت أن الوقت قد تأخر ربع ساعة عن موعد المكالمة.

- سأكلمه من الحانة القريبة ولن يستغرق ذلك أكثر من دقيقة واحدة.

أجابت هيلين بغضب:

- جوزيف! يا إلهي! إنك لم تتغير، بل على العكس، لقد ازدادت دقتك.

- إنها ليست دقة، بل تجارب. رأيت العديد من المآسي بسبب إهمال الأشياء البسيطة، كما أنني أعرف ما يعني الانتظار في ظل الخطر.

أمسكت بذراعها وسرت:

- لولا هذه الدقة المبالغ فيها لما بقيت على قيد الحياة.

ضغطت على يدها بشدة. أجابت:

- أعلم ذلك، لكن ألا تدرك أنني أخاف عليك إن تركتك ولو لدقيقة واحدة؟

أحسست بدفء العالم كله:

- لن يصيبني أي مكروه يا هيلين. إنني متأكد من هذا على الرغم من دقتي المبالغ فيها.

ابتسمت ورفعت لي وجهها الشاحب:

- اذهب وكلِّمه، لكن ابتعد عن الحانة. يوجد هاتف في زاوية الشارع - هاتف عام - أحدث بعد مدة من رحيلك. إنه أكثر أماناً من هاتف الحانة.

دخلت كابينة الهاتف الزجاجية بينما وقفت هيلين تنتظرني في الخارج..

طلبت رقم هاتف مارتينس، لكنه كان مشغولاً، انتظرت قليلاً ثم أعدت الكرَّة ووجدته مشغولاً للمرة الثانية.

أعدت الطلب المرة تلو الأخرى، لكن من دون جدوى.. نظرت إلى هيلين في الخارج تروح جيئة وذهاباً، متنبهة الحواس. لوَّحت لها بيدي، لكنها لم تنتبه لذلك. كانت ترقب الشارع مشرئبة العنق. ها هي حارسي وملاكي بثيابه الأنيقة التي تنبهت لها الآن فقط وتأكدت من مدى ملاءمتها لها. تنبهت أيضاً إلى أحمر الشفاه الذي تزينت به والذي بان وكأنه أسود بتأثير ضوء الشارع الأصفر. تذكرت فجأة أن أحمر الشفاه والزينة غير مرغوب بهما في ألمانيا الجديدة. جاءني صوت مارتينس بعد عدة محاولات. قال:

- كانت زوجتي تتكلم على الهاتف ولمدة ساعة تقريباً ولم أجرؤ على مقاطعتها.. كانت تتحدث عن الأزياء والحرب والأطفال.

- أين هي الآن؟

- في المطبخ. كان عليَّ أن أدعها تتكلم.. أنت تفهم ما أقصد؟

- نعم! الأمور سارت على أفضل وجه.. أشكرك يا رودلف! حاول أن تنسى الأمر كله!

- في أي مكان أنت الآن؟

- أكلمك من كابينة هاتف أحد الشوارع. إنني أشكرك يا رودلف، لست بحاجة إلى أي شيء آخر.. وجدت كل ما أبحث عنه.. إننا الآن معاً.

نظرت إلى هيلين الواقفة في الخارج وهممت بإغلاق السماعة عندما سألني مارتينس:

- هل تعرف أين ستقيم؟

- أظن ذلك؟ لا تقلق بشأني.. حاول أن تنسى هذه الليلة واعتبرها حلماً فقط.

أجاب بلهجة مترددة:

- إذا كان هناك ما أستطيع القيام به فلا تتوانَ عن طلبه. لقد فاجأتني بمجيئك وهذا يفسر دهشتي.. لا بد أنك تفهم.

- إنني أفهم يا رودلف وسأكلمك في حال احتياجي لك.

- إذا كنت تفضل النوم هنا...

ابتسمت.

- سنرى فيما بعد، أما الآن فعليَّ أن أنهي المكالمة.

أجاب بسرعة:

- بالطبع.. اعذرني. ليرافقك الحظ يا جوزيف.. إنها حقيقة مشاعري نحوك.

- شكرا لك يا رودلف.

خرجت من الكابينة بهوائها الفاسد وصفعتني هبة ريح قوية كادت تخطف قبعتي. أسرعت هيلين إليَّ:

- دعنا نذهب إلى البيت وأظن أن عدوى الحذر تسربت إليَّ. فجأة أصبحت أشعر أن هنالك مئات العيون التي تحملق بنا من خلال الظلام.

- أما زالت الخادمة ذاتها؟

- لينا؟ لا! لقد اكتشفت أنها كانت تتجسس عليَّ لحساب أخي، الذي كان يريد أن يعرف إن كنت تكتب لي أو أكتب أنا لك.

- والخادمة الحالية؟

- ابتسمت وبدت جميلة جدًّا.

- أردت أن أتأكد أولاً من وجودك هنا.

- عليكِ أن تصرفيها قبل وصولي كي لا ترانا معاً. ألا نستطيع الذهاب إلى مكان آخر؟

- إلى أين؟

- نعم.. إلى أين؟

فجأة ضحكت هيلين.

- ها نحن نقف هنا، شأننا شأن أي مراهقين يلتقيان سرًّا لقناعة ذويهما بأنهما ما زالا صغيرين على هذا اللقاء.

أين نستطيع الذهاب؟ إلى متنزه القصر.. لكن أبوابه تغلق في الساعة الثامنة.. أوَتفضل الجلوس على أحد مقاعد الحديقة العامة أو دخول أحد المقاهي؟ أظنها مجازفة.

إنها محقة في تخوفها.. هذه الحقائق الصغيرة التي غابت عن مخيلتي.

أجبتها:

- نعم! ها نحن نقف هنا كمراهقين وكأننا عدنا فجأة إلى أيام الشباب.

نظرت إليها.. أصبحت في التاسعة والعشرين من العمر، لكنها بدت كيوم فراقي لها، وشعرت بأن السنوات الخمس انزلقت عنها كانزلاق الماء عن جسد كلب بحر فتي.

قلت:

- نعم عدت كأي مراهق وقد ضرب بالتخوفات كلها عرض الحائط، غير عابئ بما سيحدث بعد ذلك. جئت دون تأكدي من عيشك وحدك أو مع شخص آخر.

لم تجب.. لمع شعرها تحت ضوء فانوس الشارع.. قالت:

- سأسبقك لأصرف الخادمة، لكنني أكره أن أتركك وحيداً هنا، فربما حاورتك نفسك بالاختفاء فجأة، تماماً كما ظهرت فجأة. أين ستبقى في هذه الأثناء؟

- في المكان الذي التقيتني به، في الكاتدرائية. سأعود إليها الآن فالكنائس أماكن آمنة.. أصبحت عارفاً بالكنائس والمتاحف الفرنسية والسويسرية والإيطالية.

همست:

- وافِني بعد نصف ساعة.. هل ما زلت تذكر نوافذ المنزل؟

- نعم.

- إذا كانت نافذة الزاوية مفتوحة فهذا يعني أن الأمور على ما يرام، أما إذا كانت مغلقة فانتظر إلى أن أفتحها.

ذكرني كلامها بمارتينس وبأيام الشباب، عندما كنا نلعب لعبة الهنود وعندما كنا نشعل شمعة فيعني ذلك أن فينيتو ينتظر عند الباب.

- حسناً..

هممت بالانصراف.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- سأمر لأرى إذا كانت كنيسة مارين قد فتحت أبوابها. إنها مثال جميل لفن البناء القوطي على ما أذكر.

تعلمت في المنفى تقدير هذه الأشياء.

- دعك منها ويكفي أنني سأتركك وحدك الآن.

- يا عزيزتي هيلين، تعلمت أن أنتبه لنفسي.

هزت رأسها بينما سقطت عن وجهها كل محاولات الشجاعة.

- لم تتعلم الكفاية منها، لم تتعلم الكفاية بعدُ. ماذا بربك كنت سأفعل لو لم تعد؟

- أنتِ لا تستطيعين عمل أي شيء.. لكن قولي لي: هل ما زال هاتفنا يحمل الرقم القديم؟

- نعم..

لمست كتفيها:

- هيلين.. ستعود الأمور إلى سابق عهدها.

حنت رأسها.

- أوصلك أولاً إلى كنيسة مارين لأتأكد من وصولك إليها سالماً.

سرنا بصمت جنباً إلى جنب.. لم تكن المسافة بعيدة. تركتني هيلين من دون التفوه بكلمة. تأملتها وهي تعبر الساحة بسرعة ومن دون أن تلتفت إلى الوراء.

وقفت في ظل البوابة وكان مبنى البلدية إلى يميني، في الظل أيضاً. انعكست بعض الخيوط من ضوء القمر على الوجوه الحجرية للتماثيل القديمة. أعلن في عام 1648 ومن فوق منصة المبنى ميثاق إنهاء حرب الأعوام الثلاثين، كذلك أعلن من فوقها أيضاً بعث إمبراطورية الألف عام في عام 1933.. سألت نفسي إذا كنت سأعيش يوماً لأسمع من هذا المكان نبأ نهايتها، لكنه كان أملاً ضعيفاً.

لم أحاول دخول الكنيسة لأنني شعرت فجأة بالاشمئزاز من الاختباء المستمر.. لا يعني هذا أنني أصبحت أرفض الحذر، لكني كنت، منذ مقابلتي لهيلين، قد أصبحت أرفض أن أبقى حيواناً مطارداً إلا في الحالات القصوى.

تابعت سيري كي لا أثير الفضول. بدأت المدينة، التي بدت منذ ساعة قريبة وبعيدة، تبتسم بالحياة. كانت الحياة المجهولة التي عشتها في السنوات الماضية لا تعني لي سوى البقاء، والنمو بلا ثمر متنقلاً من اليوم إلى يوم آخر.. فجأة شعرت بأنه كان يكمن فيها الجانب الإيجابي أيضاً: لقد صقلتني هذه السنوات وجعلت مني زهرة متأرجحة تفتحت

فجأة وامتلأت بزهو الحياة. فاجأني هذا الإحساس الذي لم أتعرف إليه من قبل.

لم يكن لهذا الإحساس أي صلة بالرومانسية، لكنه كان جديداً ومثيراً كزهرة استوائية كبيرة مشعة، سحرت على مجموعة من الأغصان النحيلة، ولم يكن من المتوقع أن ينبت عليها سوى بعض الزهرات المتواضعة. وصلت النهر ووقفت على الجسر.. سبح نظري عبر المكان القريب ثم استقر على الماء. ارتفع إلى يساري برج من العهود الوسطى أصبح الآن مغسلة. كانت نوافذه مضاءة وسمعت صوت العاملات.

وقفت هادئاً ومسترخياً ولم يكن هناك سوى صوت خرير الماء وصوت العاملات البعيد المقبل عبر النوافذ المفتوحة. لم أستطِع فهم ما كن يتحدثن به، وكل ما سمعته هو أصوات إنسانية لم تصل بعدُ إلى مرحلة الكلمة. أصوات تشير فقط إلى وجود بشر بالقرب مني وبعيدة كل البعد عن الكذب، الخداع، الظلام والوحدة الجهنمية. فكرت لو كانت هذه الأصوات على شكل كلمات لاحتوت في داخلها، من دون أدنى شك، هذه الصفات كلها.

تنفست بعمق وشعرت بأنني أتنفس بانسجام مع حركة الماء.. شعرت للحظة، لكن من دون الإحساس بالوقت، أنني أصبحت جزءاً من هذا الجسر وأن الماء يجري كجريان تنفسي، يجريان معاً في داخلي.

بدت لي هذه الأمور أكثر الأمور طبيعية، ولم أتعجب من هذه الفكرة. لم أعد أفكر، أصبحت أفكاري تتصرف باللاوعي، تماماً كتنفسي وكجريان الماء.

تجول ضوء مظلل على الرصيف المقابل بين الزيزفون.. تبعته بنظري، لكنني سرعان ما سمعت مرة ثانية أصوت العاملات، وعندها تنبهت إلى أنني توقفت عن سماع أصواتهن لهنيهة. بدأت أشتم رائحة الزيزفون التي حملتها لي ريح واهنة من فوق مياه النهر.

أطفئ ذلك الضوء المتنقل، وفي اللحظة ذاتها عتمت النوافذ من خلفي. بدت صفحة الماء، لدقيقة، سوداء فقط، كالقطران، ولم يلبث أن ظهر على سطحها انعكاس ضوء القمر الذي لم يظهر من قبل بتأثير انعكاس أضواء المغسلة القوي. أخذت هذه الأضواء المنعكسة تتلاعب برقة وتنوع على عكس الضوء الساطع الحاد. فكرت بحياتي وكيف أطفئ فيها النور منذ سنوات وأخذت أتساءل متعجباً إذا كانت هناك بعض الأضواء الرقيقة التي لم أستطِع رؤيتها من قبلُ، وهل ستعود لتظهر من جديد في حياتي، كانعكاس ضوء القمر الحالي على صفحة مياه النهر.

كنت في السابق أشعر بالخسارة فقط، لكنني لم أحاول أن ألتفت إلى بعض المكاسب التي ربحتها بلا شك عن طريق هذه الخسائر. تركت الجسر وذهبت إلى الرصيف المعتم بأشجار الزيزفون وأخذت أقطعه جيئة وذهاباً إلى أن انقضى نصف الساعة. ازدادت حدة رائحة الزيزفون بازدياد توغل الليل، وغطى القمر الأسطح والقباب بالفضة. شعرت وكأن المدينة تبذل قصارى جهدها لتريني أن كل ما جمعته في مخيلتي خلال السنوات الماضية لا يتعدى الكذبة، وأنه لا يمكن أن يكون الخطر متربصاً بي وأنني أستطيع العودة إلى منزلي مرتاحاً بعد طريق طويل من الضياع، أعود لأصبح أنا ذاتي من جديد.

لم يعد من الضروري دفع هذا الشعور عني، انبعث في داخلي وعلى شكل أوتوماتيكي شعور أخذ يزن الأشياء في الاتجاهات كلها. لقد اعتُقلت مراراً في باريس وروما ومدن أخرى، وغالباً بفعل إيماني الكامل بالجمال والأمان بتشجيع من أحلام خادعة عن الحب، التفاهم والنسيان. لكن الشرطة لم تنسَ أبداً والواشون لم يتحولوا، بفعل ضوء القمر وعبير الزيزفون، إلى قديسين.

اتجهت بحذر إلى ساحة هتلر، وقد تنبهت كل حواسي كطائر الخفاش. يقع البيت على زاوية اتصال الشارع بالساحة. نظرت وتأكدت

من أن الشارع ما زال يحمل اسمه القديم. كانت النافذة مفتوحة، وفجأة تذكرت قصة البطل والتاجر وخرافة أطفال الملك وكيف غرق ابن الملك عندما أطفأت الكاهنة الضوء.

لا! إنني لست ابن ملك، كما أنه كانت للألمان الكثير من الخرافات الجميلة. وعلى الرغم من ذلك، أو ربما لهذا السبب، برعوا في بناء أفظع معتقلات للتعذيب في العالم. عبرت الساحة بهدوء وكأنني أعبر بحر الشمال. صادفني في الدهليز المؤدي إلى السلالم شخص. لم أستطِع التراجع؛ لذا تابعت سيري بجدية كإنسان يسير بثقة كاملة إلى هدفه. كان هذا الشخص امرأة عجوزاً لم أرَها من قبل. تقلصت عضلات قلبي.

ابتسم شفارتس وتابع:

- هنا ترى أن هذا التعبير يبدو وكأنه من ضمن الأدبية المرسومة ولا يستطيع المرء فهم حقيقته إلا إذا مرَّ به. سمعت صوت المفتاح في باب المدخل، لم ألتفت إلى الوراء وأسرعت الخطى متسلقاً السلم.

وجدت باب الشقة مفتوحاً حوالي سنتيمتر واحد فقط. دفعته ووجدت نفسي أقف أمام هيلين التي بادرتني بالسؤال:

- هل رآك أحد؟

- نعم.. امرأة عجوز.

- من دون قبعة؟

- نعم، من دون قبعة.

- لا بد أنها الخادمة التي خرجت من غرفتها الموجودة في الطابق الأرضي، صرفتها بإجازة حتى بعد ظهر يوم الاثنين، يبدو أنها أمضت بعض الوقت في غرفتها.. إن هؤلاء النساء يعتقدن أن جميع من يصادفهن في الشارع ليس لهم هم سوى الحملقة في ثيابهن.

- لتذهب إلى الجحيم! إنني أشك بأنها شكت في وجودي.. أصبحت أمتلك حاسة متميزة في معرفة من يشك في أم لا.

تناولت مني هيلين المعطف والقبعة وهمت بتعليقهما.
- لا.. ليس هنا. ضعيهما في إحدى الخزائن تحسباً لقدوم أي زائر.
- لكن لا أحد يأتي إلى هنا.
استدرت وأوصدت الباب ثم تبعت هيلين.
كنت خلال السنوات الأولى من المنفى أفكر كثيراً في منزلي، لكنني أخذت في ما بعد أحاول نسيانه، أما الآن وبعد أن عدت إليه، لم أشعر تجاهه بالكثير، ونظرت إليه كلوحة اقتنيتها لفترة من الزمن وتذكرني بحقبة معينة من حياتي. وقفت في الباب ونظرت حولي. راعى انتباهي كون كل شيء في المنزل قد بقي على سابق عهده دون أن يطرأ عليه تغيير ظاهر. كانت الأرائك فقط قد نُجدت من جديد.
سألتها:
- ألم يكن لون الأرائك أخضر في السابق؟
- لا.. بل أزرق.
استدار شفارتس إليَّ وقال:
- الأشياء لها حياتها الخاصة أيضاً، وكم يصبح الأمر مريعاً عندما تبدأ بمقارنة حياتك بحياتها.
- ولِمَ المقارنة؟
- ألا تقوم أنت بذلك؟
- بلى.. لكن ليس على أصعدة مختلفة، إنني أقتصرها على نفسي فقط، فمثلاً عندما أقف على رصيف الميناء جائعاً أسرع في مقارنة نفسي بذاتي الخيالية التي هي أيضاً تئن في الوقت نفسه تحت وطأة السرطان. تعطيني هذه المقارنة السعادة ولو لدقيقة واحدة، لمعرفتي الأكيدة أنني لست مريضاً بالسرطان بل كل ما أشكوه هو الجوع فقط.
- السرطان!!
قالها شفارتس وحملق بي ثم تابع:

- لماذا فكرت بالسرطان؟

- كان باستطاعتي أن أقول الزهري أو السل، لكنني أظن أن السرطان هو الأقرب.

- الأقرب؟

واتسعت حدقتا شفارتس ثم قال:

- تذكر كلامي دائماً: السرطان هو أبعدها.. هل تفهم؟ إنه الأبعد.

أجبته بكثير من التسامح:

- حسناً.. الأبعد. ذكرته كمثال فقط.

- إنه بعيد جدًّا، وهذا البعد يجعله أمراً غير معقول.

- إن هذا الإحساس يلازم دائماً الأمراض القاتلة يا سيد شفارتس.

هز رأسه وصمت لفترة ثم سألني:

- هل ما زلت جائعاً؟

- لا.. لماذا؟

- لأنك ذكرت الجوع.

- كان ذلك بقصد المثال فقط. لا تنسَ أنني تعشيت مرتين وعلى حسابك.

رفع نظره:

- كم يبدو كلامك غريباً. تقول: تعشيت على حسابك وكأنك تقول تعشيت عندك.

كم تبدو الأمور بعيدة المنال عندما تنتهي!

صمتُّ.. تابع حديثه بعد هنيهة بهدوء ظاهر:

- كانت الأرائك الصفراء قد نُجدت من جديد، وهذه الظاهرة الوحيدة التي تبدلت في المنزل خلال خمس سنوات.. قمت بدزينة من القفزات الدائرية في الهواء أمام سخرية القدر. كل ما أحاول شرحه هو أن هاتين الظاهرتين لا تتناسبان معاً.

- نعم.. يفنى الإنسان ويبقى السرير، والبيت، تبقى الأشياء؛ لذلك يحاول الإنسان أن يدمرها كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

- إنه لا يقوم بذلك تجاه الأشياء التي لا تعنيه.

- على الإنسان أن يحطمها، خاصة إن كانت حياة الفرد لا تعنيه.

- كيف لا؟

أجاب شفارتس بعد أن رفع فجأة وجهه المضطرب:

- غير مهم؟ بالطبع لا. لكن قل لي ما الذي يصبح ذا أهمية إذا فقدت حياة الإنسان أهميتها؟

- لا شيء.

أجبته وكلي يقين بأن ما أقوله هو الحقيقة، لكنني في الوقت ذاته شعرت بعدم حقيقته.

- لا تصبح الحياة ذات أهمية إلا عندما نحاول أن نجعلها هكذا.

شرب شفارتس جرعة من نبيذه القاتم على عجل ثم سألني بصوت عالٍ:

- لماذا لا؟ هل تسمح بأن توضح لي السبب في عدم سعينا لجعلها مهمة؟

- لا أستطيع توضيحه لك. كان ما قلته تعبيراً غبيًّا اعتدتُ عليه. أما أنا فأتطلع في الحقيقة إلى الحياة بجدية كبيرة.

نظرت إلى الساعة التي كانت تشير إلى ما بعد الثانية. عزفت الأوركسترا لحناً راقصاً: لحن تانجو، وتناهى إليَّ صوت أبواق الأوركسترا الخافتة وكأنها صفير بعيد لسفينة مبحرة. كلها بضع ساعات لانبلاج الفجر، وعندها أستطيع أن أغادر. تحسست البطاقتين في جيبي لأتأكد من وجودهما. وسبحت في عالم لا واقعي: الموسيقى التي أصبحت غريبة عنا، النبيذ، الغرفة المحاطة بالستائر وصوت شفارتس.. كانت هذه الأشياء كلها تخبئ في ثناياها دعوة للنوم.. عالماً لا واقعيًّا..

تابع شفارتس حديثه:

- كنت ما زلت واقفاً عند باب الغرفة عندما سألتني هيلين:

- هل تشعر بغربة في بيتك؟

هززت رأسي وتقدمت بضع خطوات إلى الأمام وأحسست بقبضة حيرة غريبة تمسك بي. أحسست بأنني لا أنتمي إلى هذه الأشياء التي تحاول جاهدة الإمساك بي.. اخترقني تيار من الرعب: هل يعقل أنني لم أعد أنتمي لهيلين أيضاً؟ لذا سارعت بالرد وقد أحسست بحرارة جسدي وباليأس في داخلي:

- إنني أشعر أن كل شيء كما كان عليه، لماذا هو كما كان عليه تماماً؟

أجابت هيلين بشدة:

- لا، لا، لم تبقَ الأمور على ما كانت عليه، لماذا عدت؟ هل عدت لتبقى الأشياء على ما كانت عليه؟

- لا، فأنا أعرف أنها لم تبقَ على حالها، لكن ألم نعِش فترة طويلة هنا؟

أين بقيت هذه الفترة؟

- ليس هنا، ولا في الثياب القديمة التي رمينا بها.. هل تعني ذلك؟

- لا، فأنا لا أسأل عن نفسي.. أسأل عنك، أنت التي قضيت الفترة السابقة هنا.

نظرت إليَّ هيلين نظرة غريبة ثم قالت:

- ولماذا لم تسأل عني من قبل؟

- في السابق؟

أجبتها وكمن لا يصدق ما يسمعه وتابعت:

- لماذا في السابق؟ لم أستطِع المجيء.

- أعني في السابق قبل رحيلك.

لم أستطع فهم ما تقصد..

- ماذا كان عليَّ أن أسألك يا هيلين؟

صمتت فترة ثم قالت:

- لماذا لم تسألني أن أذهب معك؟

حملقت بها:

- تذهبين معي؟ تبتعدين عن هذا المكان وعن عائلتك؟ تبتعدين عن كل ما تحبينه؟

- إنني أكره عائلتي..

أحسست بحيرة كبيرة ثم تمتمت:

- إنك لا تستطيعين فهم ما يعني الابتعاد عن هنا والشكل الذي قمت به أنا.

- لم تكن تعلم أنت في ذلك الوقت عن ذلك أيضاً..

كان ما قالته حقيقة. أجبتها كالمشلول:

- لم أفكر في انتزاعك من هنا.

- إنني أكره كل شيء هنا، والآن قل لي: لماذا عدت؟

- لكنك لم تكوني تكرهين هذا المكان في السابق.

أعادت طرح سؤالها:

- لكن لماذا عدت؟

كانت تقف في الجانب الآخر من الغرفة وأحسست بأن ما يفصلها عني أكثر من تلك الأرائك الصفراء وخمس سنوات من الزمن. صفعتني فجأة موجة من العداء وخيبة أمل يقظة وشعرت بعمق أنني آلمتها جدًّا على الرغم من تفكيري البديهي بمحاولة إبعادها عن الصعاب كلها، عندما هاجرت وتركتها وحيدة.

عادت لتسأل:

- لماذا عدت يا جوزيف؟ كم تمنيت أن أجيبها عن سؤالها، لأقول

لها إنني عدت من أجلها، لكنني لم أستطِع قول ذلك في تلك اللحظة.

لم يكن الأمر بتلك السهولة، تجلت لي فجأة الأمور وأدركت، في تلك اللحظة فقط، أن ما أعادني هو يأس واضح وهادئ وأن احتياطيَّ من الإصرار على البقاء بزخم نفد بلا شك ولم يبقَ منه سوى الحقيقة المألوفة: استمرارية البقاء.. فقدت القوة التي تستطيع أن تقف بقوة في وجه جليد الوحدة..

أدركت في تلك اللحظة أنني فشلت في بدء حياة جديدة. وعلى ما يبدو فإنني لم أصر يوماً على ذلك. أدركت أنني لم أكن قد انتهيت من حياتي السابقة؛ فأنا لم أتركها نهائيًّا ولم أستطِع التغلب عليها. استفحلت الغرغرينا في داخلي ووقفت أمام خيارين: إما الاستمرار وسط رائحتها العفنة وإما العودة إلى بدايتها ومحاولة شفائها. لم أكن قد فكرت يوماً بدقة في هذا الموضوع، كما أنه لم يتضح لي في تلك اللحظة إلا بعض جوانبه فقط، لكنني شعرت بالخلاص لتمكني من معرفته. تبدد الثقل والارتباك وتأكدت من سبب وجودي هنا: الشيء الوحيد الذي عدت به بعد خمس سنين من المنفى هو الحس الحاد، والاستعداد للحياة، والحذر، وتجربة مذنب سطحية.

أعلن الأنا الآخر إفلاسه: تلاشت الليالي العديدة التي قضيتها متربصاً بين الحدود، وملل الوجود المريع المثقل بالنضال من أجل الحصول على القليل من الطعام وبعض ساعات من النوم تماماً كدودة الأرض في القاع.

تلاشت هذه الذكريات دونما أثر وأنا أقف على عتبة منزلي. صحيح أنني أعلنت إفلاسي، لكن مربحي من ذلك هو عدم حاجتي لتسديد الديون.

أصبحت حرًّا. هل كان عبوري الحدود انتحاراً بحد ذاته؟ لا عودة بعد الآن.

لقد متُّ وبدأت الآن الحياة بأنا آخر، وكأن هذا الأنا الحي هو هبة الزمن. لم تعد هناك مسؤوليات وأسقطت الأوزان.

استدار شفارتس ونظر إليَّ:

- هل تفهم ما أعنيه الآن؟ إنني أكرر نفسي وأتكلم في المتناقضات.

- أعتقد أنني أفهمك. القدرة على الانتحار هي نعمة لا تقدر قيمتها إلا في الأحوال النادرة. إنها تعطي صاحبها الحلم بالإرادة الحرة، ونحن نقوم في الواقع بالانتحار مرات عدَّة دون أن نعي ذلك. إننا لا نعي ذلك. إننا لا نعي هذه الحقيقة أبداً.

قال شفارتس بحيوية:

- هذا بالذات ما أعنيه. لو استطعنا يوماً أن نتعرف على الانتحار، عندها فقط نملك القدرة على البعث من جديد.. عندها نستطيع أن نحيا لعدة مرات بدلاً من أن تجرنا تقرحات تجاربنا من أزمة إلى أخرى، وبالتالي ننتهي في خضمها.

تابع شفارتس حديثه:

- بالطبع لم أستطِع توضيح هذه الأمور كلها لهيلين، خاصة بعد أن شعرت بعدم ضرورة توضيحها. شعرت بعدم الحاجة إلى ذلك بعد أن تملكني فجأة شعور بالخفة.. ارتأيت العكس وشعرت بأن أي توضيح أو تبرير سيؤدي إلى البلبلة. كانت هيلين تنتظر بلا شك أن أقول لها إنني عدت من أجلها، لكنني أدركت بنظرتي الثاقبة الجديدة أن هذا سيفسد كل ما توصلت إليه، وهذا يعني بالتالي أن الماضي سيعود بكل جداله عن الذنب والتقصير والحب المجروح وهذا كله من دون جدوى. إذا كانت فكرة الانتحار القريبة من الاعتدال ذات نفع، فعليها أن تكتمل الآن، وعليها أن تضم في داخلها ليس سنوات المنفى فقط بل السنوات التي سبقته، وإلا لعاد خطر الغرغرينا، وفي مثل هذه الحالة ستكون غرغرينا قديمة ستظهر عوارضها في الحال. وقفت هيلين أمامي، عدوة مستعدة

لتوجيه ضربتها المليئة بالحب، علاوة على معرفتها الأكيدة بالمواقع التي لا يمكنني الدفاع عنها.. عندها سأكون أنا الخاسر، وعندها سيصبح الإحساس السابق إحساس الميت بالخلاص عجزاً مؤلماً، عندها لا تصبح المسألة مسألة موت وقيامة بل إبادة كاملة. على المرء ألا يحاول إيضاح الأمور لامرأة، عليه فقط أن يتصرف.

اتجهت إلى هيلين وأحسست بارتجافها، لامست يداي كتفيها، عادت لتسألني من جديد:

- لماذا عدت؟

- نسيت سبب ذلك، كل ما أعرفه الآن هو أنني جائع ولم أذق الطعام اليوم بطوله.

شاهدت على طاولة إيطالية صغيرة ملونة إطاراً فضيًّا يحتوي في داخله صورة رجل لا أعرفه.. سألتها مشيراً إليه:

- هل ما زلنا بحاجة إليه؟

- لا..

أجابت مندهشة ثم تناولت الإطار وأودعته جارور الطاولة. نظر إليَّ شفارتش وابتسم:

- لم ترمِ به ولم تمزقه.. كل ما قامت به هو أنها أودعته الدرج وهذا يعني أنه باستطاعتها أن تخرجه في الوقت الذي يحلو لها. راقتني هذه الظاهرة من الاستسلام.

لم أكن لأتفهم مثل هذا الموقف قبل خمس سنوات، بل على العكس، لربما أدى مثل هذا الموقف إلى شجار عنيف. رأيتها الآن تكسر حدة موقف كاد يتطور إلى موقف مبهرج.. إننا نتقبل في الغالب كلمات كبيرة في السياسة، لكننا لا نستطيع تقبلها بما يتعلق بالعواطف.. إنه مؤسف حقًّا عدم استطاعتنا تقبل هذه الأمور على نحو أفضل لو كان العكس صحيحاً.

لـم يبـدُ علـى وجـه هيلين فرنسـي الملامح أي تراجع في العاطفة، لكنه كان صورة واضحة من الحذر الأنثوي. لقد خيبت ظنها مرة، فلماذا عليها أن تثق بي ثانية؟ أما أنا فأدركت أن إقامتي في فرنسا لم تكن هباء؛ لذلك لم أسألها إيضاحاً. وماذا كنت سأسألها؟ وهل لي الحق في ذلك؟ ضحكت ففوجئت عندما رأيت وجهها يشرق وبدأت تضحك. سألتها:

- هل طلقتِ نفسك مني؟

هزت رأسها بالنفي:

- لا، لكن لم تكن أنت السبب وراء ذلك.. ولم أقم بهذه الخطوة إلا بقصد إغاظة عائلتي.

5

قال شفارتس:

- غفوت لساعات قليلة فقط في تلك الليلة، فعلى الرغم من تعبي الشديد استيقظت مرات عدَّة.. كان الليل في الخارج يضغط بشدة على تلك الغرفة الصغيرة التي كنا مستلقيين فيها.. ظننت أنني أسمع بعض الأصوات وأخذت أحلم، خلال ثوانٍ، أحلاماً بين الصحو والنوم، وكلها مثقلة بفكرة واحدة: العودة إلى حالة الفرار، انتفضت مذعوراً.

لم تستيقظ هيلين إلا مرة واحدة عندما سألتني وسط الظلام:

- ألا تستطيع النوم؟

- لا، ولم أكن أتوقع عكس ذلك.

أضاءت النور فقفزت ظلالنا من النافذة. قلت لها:

- لا يمكن للمرء الحصول على كل شيء.. إنني لا أمتلك القدرة على مراقبة أحلامي.. هل ما زال عندك بعض النبيذ؟

- لديَّ الكثير منه؛ فعائلتي ما زالت تهتم بي من هذه الناحية، لكن قل لي:

متى أصبحت ذواقاً للنبيذ؟

- في أثناء فترة إقامتي في فرنسا.

- حسناً.. لكن هل أنت ذواق حقًّا؟

- لا، فأنا تعودت شرب النبيذ الأحمر، خاصة الرخيص منه.

نهضت هيلين وذهبت إلى المطبخ ثم عادت تحمل زجاجتين وفتاحة ثم قالت:

- طور قائدنا العظيم طريقة تحضير النبيذ؛ فبينما كان يمنع في السابق زيادة السكر إلى النبيذ الطبيعي، أصبح الآن بالإمكان قطع فترة

تخمره.

نظرت إليَّ فلاحظت الدهشة التي ارتسمت على وجهي. تابعت حديثها:

- إن هذه الطريقة تجعل من النبيذ السيئ في بعض السنين نبيذاً حلو المذاق، وهذا يعني بالتالي خداعاً موجهاً من الزمرة الحاكمة لرفع كمية الصادرات والحصول بالمقابل على العملة الصعبة.

ناولتني الزجاجتين والفتاحة فقمت بفتح قنينة نبيذ أبيض من نوع الموزل.

جاءت هيلين بكأس نبيذ واحدة. سألتها:

- لكن من أين لك هذه البشرة بنية اللون؟

- ذهبت للتزلج في شهر مارس.

- عارية؟

- لا، على الرغم من وجود إمكانية الاستلقاء عارية تحت أشعة الشمس.

- منذ متى تقومين برياضة التزلج؟

أجابتني وكأنها تسعى لاستفزازي:

- علمني إياها أحدهم.

- عظيم! يقولون إن التزلج رياضة صحية.

ملأت كأساً وقدمتها لها. كانت تفوح من النبيذ رائحة الطيب أكثر من النبيذ البورغندي.

- لم أذق النبيذ الألماني منذ مغادرتي ألمانيا.

سألتني هيلين:

- ألا تود معرفة من علمني التزلج؟

- لا..

نظرت إليَّ متعجبة؛ ففي السابق كنت سأمضي الليل بطوله في

السؤال. لم تعد لهذه الأمور أهمية في نفسي. عادت لا واقعية تلك الليلة تصر على ذاتها.

قالت:

- لقد تغيرت يا جوزيف..

- إنك تكررين هذه الكلمة على مسمعي.. قلتها مرتين في هذه الليلة، اسمعيني الآن! إن الواحدة منهما غير مهمة بقدر عدم أهمية الأخرى.

رفعت كأسها دون أن تشرب.

- ربما لأنني أتمنى في أعماقي ألا تكون قد تغيرت.

شربت.

- كي تستطيعي تحطيمي بسهولة؟

- هل حاولت تحطيمك في السابق؟

- لست متأكداً.. لا أظن. مضت على ذلك العهد سنوات عدَّة، لكني عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء أحاول قراءة نفسي وأتساءل: لماذا لم تحاولي ذلك؟

- يحاول المرء ذلك باستمرار.. ألا تعلم بعدُ؟

- لا، لكني أنذرت الآن.. النبيذ جيد ويبدو أن مرحلة تخمره لم تتعرض للانقطاع.

- كما هو الحال لديك؟

- هيلين يا عزيزتي.. إنك مغرية لكنك غريبة الأطوار أيضاً. إن هذا يعني تركيباً موفقاً، تجانساً نادراً وجذاباً.

- لا تكن واثقاً إلى هذا الحد.

قالتها بغضب وجلست إلى حافة السرير بينما كانت لا تزال تمسك بكأس النبيذ. أجبتها ضاحكاً:

- إنني لست واثقاً، لكن إذا لم تؤدِّ عدم الثقة القصوى إلى الموت

فهي لا بد أن تؤدي إلى ثقة لا يمكن أن تتزعزع. إن هذه بلا شك كلمات كبيرة، لكنها تبقى التجارب الأبسط لوجود كروي.

- وماذا تعني بالوجود الكروي هذا؟

- وجودي، الوجود الذي لا يمكنه الاستمرار في نقطه محددة واحدة.

الوجود الذي لا يمكنه أن يستوطن مكاناً عليه أن يبقى بصورة مستمرة في تدحرج دائم.. إن الحياة كاهن هندي متسول.. إنها نوعية حياة الإنسان العصري. يوجد العديد من المهاجرين وأكثر بكثير مما نتوقعه، لكن غالبيتهم لم تغادر يوماً مكانها.

- هذا الكلام جيد وأجود بكثير من الركون البرجوازي.

حنيت رأسي:

أستطيع أن أوضحه بكلمات أخرى، وعندها ستفقد هذا الانطباع الجيد. الحمد لله أن التخيلية ليست بتلك العظمة ولا لنقص عدد المتطوعين للحرب.

- الأمور كلها أسهل على المرء من الركود والتوقف.

ثم جرعت كأسها حتى النهاية. تأملتها: كم هي فتية، عديمة التجربة، عنيدة وعلى شكل محبب، خطرة ومتهورة. إنها تجهل حقيقة الأمور وتجهل أن الركود البرجوازي هو وضع اجتماعي وليس نقطة جغرافية.

سألتني:

- هل تود العودة إليها؟

- لا أظنني أستطيع ذلك.. لقد أرغمني وطني على أن أصبح مواطناً أممياً، والآن أنا أعجز عن استبداله. لا مجال للعودة.

- حتى ولا العودة إلى البشر الذين عايشوك آنئذ؟

- حتى ذلك لا.. الأرض بحد ذاتها تعتمد على الوجود الكروي.. الأرض مهاجرة من الشمس، لكنها لا تستطيع العودة، ولو حاولت ذلك

لتهشمت.

أجابت هيلين بينما مدت لي كأسها لأملأه:

- حمداً لله، ألم تفكر مرة خلال هجرتك في العودة؟

- دوماً؛ فأنا أعمل دائماً عكس نظرياتي، وهذا ما يعطيها جاذبيتها المضاعفة.

ضحكت هيلين:

- إن ما تقوله ليس صحيحاً.

- بالطبع لا، فما أقوله هو جزء من نسج الخيال أحاول به تغطية أمور أخرى.

- وما هي؟

- أمور بلا كلمات.

- هل هي أمور لا تحدث إلا في الليل؟

لم أجبها.. جلست هادئاً في السرير.. توقفت رياح الزمن عن الهبوب ولم تعد تعصف عاتية في أذني. شعرت بأنني هبطت من طائرة وحططت في بالون: أطير وأسبح في الفضاء ولكن صرير الآلة لم يعد موجوداً.

سألتني هيلين:

- وما اسمك الحالي؟

جوزيف شفارتس.

أخذت تفكر للحظة ثم سألتني:

- وهل أصبح اسمي أيضاً شفارتس؟

أرغمني سؤالها على ابتسامة:

- لا يا هيلين! إنه اسم فقط؛ فالرجل الذي أعطاني إياه ورثه هو أيضاً عن غيره. رجل بعيد ميت يدعى جوزيف شفارتس يعيش كاليهودي الأبدي في داخلي وكأنني حفيده الثالث أصبح ميتاً غريباً سلفي الروحي..

- ألا تعرفه؟

- لا..

- هل تشعر بتغير منذ حصولك على هذا الاسم؟

- نعم؛ لأن قطعة الورق هذه ملازمة لي.. إنها جواز سفري.

- على الرغم من كونه مزيفاً؟

ضحكت.. جاء سؤالها هذا كأنه عالم آخر. الشرطة فقط هي التي تقرر صلاحية وثيقة كهذه أو عدم صلاحيتها.

- للجواب عن سؤالك يتوجب علينا خلق رموز فلسفية تبدأ بتحليل الاسم.. هل هو قدر أم تحديد معالم؟

أجابت هيلين فجأة وبتحدٍّ:

- لقد دافعت عن اسمي الذي كان اسمك أيضاً، وها أنت تعود الآن وقد وجدت اسماً آخر.

- لقد وُهبت هذا الاسم وكان أثمن هدية قُدمت لي في هذا العالم.. إنني أحمله بسعادة؛ فهو يعني لي الرحمة والإنسانية. لو وصلت مرة إلى مرحلة من اليأس فسيذكرني هذا الاسم بأن الرحمة لم تمُت بعدُ. لكن بماذا يذكرك اسمك؟ هل يذكرك بالجنس البروسي المحارب أم بالصياد الذي يحمل صورة العالم على شكل ذئاب، ثعالب، وطواويس؟

- لم أقصد اسم عائلتي.

أجابت بينما كانت تحاول أن توازن حذاءها على أصابع رجليها ثم تابعت:

- إنني ما زلت أحمل اسمك، أعني اسمك السابق يا سيد شفارتس.

فتحت زجاجة النبيذ الثانية.

- روى لي أحدهم أنه جرت العادة في إندونيسيا بأن يغير الإنسان اسمه بين الحين والآخر، فعندما يتعب الإنسان من شخصيته يغيرها: يختار اسماً جديداً ويبدأ مع اسمه كياناً جديداً.. فكرة رائعة.

- وهل هذا يعني أنك بدأت حياة جديدة؟
- اليوم.
جعلت الحذاء ينزلق من على قدميها إلى الأرض.
- ألا يأخذ المرء شيئاً معه في حياته الجديدة؟
- الصدى.
- والذكريات؟
- إنها الصدى، أي الذكريات التي لم تعد تؤلم ولا تخجل.
- وكأن صاحبها يرى فيلماً.
نظرت إليها، بدت وكأنها تتحفز لترميني بالكأس التي في يدها.. تناولتها وملأتها من الزجاجة الثانية ثم سألتها:
- ما نوع هذا النبيذ؟
- إنه نبيذ راين فاخر، ناضج تماماً بحاجة لإعادة صناعته.
- ليس مهاجراً إذاً؟
- لا، إنه ليس كالحرباء التي تغير لونها، وليس كهؤلاء الذين يحاولون التهرب من مسؤولياتهم.
- يا إلهي يا هيلين.. هل صحيح أنني أسمع حفيف أجنحة البرجوازية الشريفة المهذبة من خلال كلامك؟ ألم تقولي إنك تتمنين الهروب من ركودها؟
أجابت بغضب:
- إنك تجعلني أقول أشياء لا أعنيها.. عمَّ نتحدث نحن الآن وفي الليلة الأولى؟ لماذا لا نحب ونكره بعضنا بعضاً؟
- ألا ترين أننا نعانق ونكره بعضنا بعضاً؟
- إنها كلمات فقط.. قل لي من أين لك المفردات الكثيرة؟ هل تظن أن ما نتحدث به الآن صحيح؟
- لا أعرف ما هو الصحيح!

- ولكن من أين أتيت بهذه المفردات كلها؟ هل كنت تمضي الأوقات في الأحاديث؟ وهل كانت لك علاقات اجتماعية كثيرة؟

- لا، بل العكس؛ لذا تخرج مني كلمات وكأنها تفاح يصر على الخروج من السلة، إنني متفاجئ من نفسي بقدر تفاجئك.

- هل هذا حقًّا ما تعنيه؟

- نعم يا هيلين، إنها الحقيقة.. ألا تشعرين وتفهمين ماذا يعني هذا بالنسبة لي؟

- ألا تستطيع توضيحه على شكل أسهل؟

هززت رأسي بالنفي فألحت في سؤالها:

- ولِمَ لا؟

- لأنني أخاف القرارات الثابتة وأخاف الكلمات التي تحمل بين طياتها مثل هذه القرارات. ربما لا تستطيعين تصديق ما أقول، لكنها الحقيقة بالنسبة لي. علاوة على ذلك يأتي الخوف من ذلك، الخوف المستتر الذي يتسلل في الخارج بين الأزقة المعتمة والذي لا أحب أن أفكر به ولا أتحدث عنه لأنني أقنعت نفسي بقناعة غبية وهي: أنه لا يمكن أن يكون هناك خطر ما دمت أنا لا أمر به.. لهذا السبب بالذات دار بيننا هذا الحوار الملتوي الذي بدا فيه الزمن بعيداً كشريط فيلم انقطع من منتصفه.. فجأة تتوقف الأمور كلها، وهذا يعني عدم إمكانية حدوث شيء.

- إن ما تقوله يبدو لي معقداً جدًّا.

- ولي أنا أيضاً.. ألا يكفي أن أكون إلى جانبك؟ ألا يكفي أنك ما زلت على قيد الحياة وأنني لست معتقلاً؟

- ألهذا السبب عدت؟

لم أجبها. كانت تجلس أمامي كعاريات الأمازون تحمل الكأس في يدها، تستحثني من دون مواربة، خبيثة هادئة. عندها فقط سألت نفسي كيف استطاعت أن تستمر معي تلك السنين كلها؟ أحسست أنني كنت

مالـكاً لحمـل وديـع أرعـاه، كما يرعى فـي العادة مالك الحملان، لكنني فجـأة اكتشـفت أن مـا كان لـديَّ لـم يكـن حمـلاً بل قطـة فتية، لا تحفل بالشـرائط الزرق ولا بالفرشـاة الناعمة، بل على العكس، بوما (نوع من القطط) صلبة، تستطيع، بقدرة، أن تعض اليد التي داعبتها.

وجدت نفسي أتحرك على أرض خطرة.. أصبحت طريقة تفكيرها بالأمور واضحة جلية، ومنذ الليلة الأولى فشلت، وعلى أبسط الأشكال. تنبـأت بحـدوث ذلـك، وربمـا لهذا السبب سـارت الأمـور على النحو: الحقيقة الواضحة بالفشل وعدم القدرة، لكن، لحسن حظي، وبما أنني توقعت النتيجة، لم أدخل في حالة اليأس كما هو الحال عادة.

في مقدور المرء أن يوضح الكثير في مثل هذه المواقف ويتذرع بأن الرجـال الفولاذيـن هـم فقـط الذين يتمتعون بمناعة تجاه هذه المواقف، بينما النساء اللاتي يحاولن الادعاء أنهن يتفهمن اليائس ويحاولن مواساته بأمومة قدرية تصبح في مثل هذه المواقف سخرية مفزعة.

ارتبكت هيلين لعدم تعرضي لهذين الإيضاحين وحاولت مهاجمتي.. لم تستطِع فهم عدم مضاجعتي لها في ذلك الوقت وشعرت بالإهانة. كان بـودي أن أسـرد عليهـا الحقيقـة بكاملهـا، لكننـي لم أكن في وضع هادئ يمكنني من ذلك. هنالك نوعان من الحقيقة، الأول: حيث يتوجب على المرء أن يشي بنفسه، والثاني، وهـو استراتيجي: حيث يمتنع المرء عن الوشـاية بنفسـه. تعلمت خلال السـنوات الخمس أنه على الإنسـان الذي يشي بنفسه ألا يندهش إذا أطلق عليه النار. قلت لهيلين:

- بشر في مثل واقعي أصبحوا يؤمنون بالخزعبلات؛ إنهم يؤمنون بأنهم إذا اضطروا لقول أو فعل شيء بطريقة مباشرة فإن النتيجة ستكون عكسية؛ لذلك يحاول هؤلاء البشر الاحتماء بالحذر، بالحذر حتى في كلماتهم.

- كم هو ساذج ما تقوله!

ضحكت:

- لقـد تنازلـت، منـذ فتـرة طويلة، عن الإيمان بالحس، ولولا ذلك لأصبحت مرًّا كليمونة برية.

- آمل ألا تسترسل كثيراً في إيمانك بالخرافات.

- إن إيماني بها قطع مسافة طويلة، إنني أؤمن بأنني لو قلت لك هيلين إنني أحبك فوق الأشـياء كلها فسـأنتظر في الدقيقة المقبلة سـماع طرقات الجستابو على الباب.

كتمت هيلين أنفاسها لدقيقة وكأنها حيوان بري سمع أصواتاً غريبة، ثـم اسـتدارت إلـيَّ ببـطء. ذهلـت عندمـا رأيت هذا التغييـر المفاجئ في ملامحها ثم سألتني بصوت منخفض:

- هل ما تقوله هو السبب؟

- إنه واحد من عدة أسباب.. كيف تتوقعين أن أعيد ترتيب ذهني، أنا القادم من جحيم يائس والمنجرف في طريق الفردوس الخطر؟

- لقد فكرت كثيراً في غيابك كيف سيكون اللقاء لدى عودتك..

كانت تصوراتي عكس ما حدث، تمالكت نفسي عن السؤال.. تطرح الغالبية الكثير من الأسـئلة في حالة الحب، لكن عندما يبدؤون بسـماع الأجوبة الصحيحة يكون الحب قد بدأ بالهروب.

أجبتها:

- الحمد لله أن الأمور تأتي على غير توقعها.

ابتسمت:

- إن الأمـور لا تأتـي علـى غيـر توقعهـا، لكنها تبدو كذلك للوهلة الأولى. هل يوجد بعض النبيذ؟

نهضت ودارت حول السرير وكأنها راقصة باليه، ثم تمددت على الأرض ووضعت الكأس إلى جانبها.. جسـدها بني وقد لوحته شـمس غريبة.. بدت في عريها امرأة بلا هموم، لا تعرف حقيقة جمالها وتأثيره فقط، بل بدت كامرأة سمعت التأكيدات الكثيرة عن ذلك.

سألتها:

- متى يجب أن أرحل؟

- لن تعود الخادمة في الغد.

وبعد الغد؟

- الأمر سهل! اليوم السبت، صرفتها بحجة عطلة نهاية الأسبوع ولن تعود قبل ظهر الاثنين. لها صديق شرطي، متزوج وله ثلاثة أطفال.

نظرت بعينيها نصف المغمضتين ثم تابعت:

- إنها انفجرت من شدة الفرح عندما سمعت بهذه العطلة المفاجئة.

تناهت إلينا من الخارج وقع خطوات عسكرية مصحوبة بأناشيد.

سألتها:

- ما هذا؟

- جند أو شبيبة هتلر. تستطيع أن تسمع كل دقيقة وفي كل مكان في ألمانيا مثل هذه الأصوات.

نهضت ونظرت من خلال شق الستائر. تعرفت على المشاة، فقد كانوا مجموعة من شبيبة هتلر.

- إن خروجك عن إرادة أهلك لهو أمر مفاجئ.

- لا بد أنه تأثير جدتي الفرنسية.. لي جدة فرنسية، لكن الجميع في العائلة يتسترون على هذه الحقيقة وكأنها يهودية.

تثاءبت وتمطمطت وغاب عنها فجأة التوتر.. أحسست أننا نعيش معاً ومنذ أسابيع وأنه لا يمكن أن يكون الخطر متربصاً بنا في الخارج. تجنبنا، نحن الاثنين، حتى تلك اللحظة، الحديث عن أنفسنا. لم تسألني هيلين عن حياتي في المنفى ولم أكن متأكداً من أنها قرأت ما في داخلي ورتبت قرارها.

سألتني:

- ألا ترغب في النوم؟

كانت الساعة قد قاربت الواحدة بعد منتصف الليل.

استلقيت وسألتها:

- هل نستطيع أن نبقي النور مشتعلاً؟ فأنا أرتاح لوجوده؛ لأنني لم أعتَد بعدُ الظلام الألماني، نظرت إليَّ بسرعة:

- دع الضوء كله مشتعلاً إن كان هذا يريحك أيها الحبيب.

استلقينا ملتصقين ولم أستطع التذكر أننا استلقينا على هذا النحو في السابق. تراءى لي الماضي كظل شاحب: ذكرى بلا لون. ها هي مستلقية إلى جانبي، لكنها تختلف عن هيلين التي عرفتها في السابق. ها هي مستلقية ممتلئة ألفة غريبة.. عدت الآن أتعرف من جديد إلى غموضها، صوت تنفسها، رائحة شعرها، لكن، وبالأخص، عدت أتعرف من جديد على رائحة جسدها، الذي ضاع مني لفترة طويلة. لم تعد هذه الرائحة على كامل ما كانت عليه، لكنها عادت بأكثر ذكاء من العقل. ما هذا العزاء الكامن في جسد من أحب؟ إنه أذكى وأصدق تعبيراً من الفم المليء بالأكاذيب.

بقيت يقظاً في تلك الليلة وإلى ساعات طويلة، محتضناً هيلين بذراعي، ناظراً في فضاء تلك الغرفة التي أعرفها ولا أعرفها.. وفي النهاية خففت من طرح الأسئلة على نفسي.. استيقظت هيلين مرة واحدة وسألتني وهي مغمضة العينين:

- هل التقيت نساء كثيرات في فرنسا؟

- لم ألتقِ أكثر من الضروري، لكن ليس بينهن من تساويك.

تنهدت وحاولت أن تستدير، لكن النوم تغلب عليها فلم تكمل ما بدأت به.. دعاني النوم رويداً رويداً، لفَّني وأبعد عني الأحلام، ملأني السكون وأنفاس هيلين ولم أستيقظ إلا عند أولى إشارات الصباح.. لم تعد هناك أمور تقف حائلاً بيننا.. ضممتها وقبلتها.. أحببتها ثم غبت معها في نوم وكأنه الغيمة البيضاء، بعيدة جدًّا عن الظلام.

6

اتصلت، في صبيحة اليوم التالي، بالفندق في مونستر، حيث تركت حقيبتي وأوضحت لهم أنني تأخرت في أوسنابروك، السبب الذي منعني من العودة وأعلمتهم بأنني قادم الليلة، وهذا يعني أن يحتفظوا لي بالغرفة. كان الدافع وراء هذا هو الحذر؛ فأنا لا أريد أن أزج في موقف مع الشرطة لسبب تافه كهذا.. أجابني صوت غير مبالٍ، مؤكداً لي أنه فهم ما أعنيه.

سألت الصوت إن كانت هناك رسائل قد وصلت لي فأجاب بالنفي.

أغلقت السماعة. كانت هيلين تقف خلفي. سألتني:

- رسائل؟ ممكن تتوقع قدوم رسائل؟

- من لا أحد! طرحت السؤال لإبعاد الشبهات فقط؛ فالغالبية لا تتوقع من شخص ينتظر رسالة أن يكون مراوغاً.

- هل أنت واحد منهم؟

- للأسف نعم، لكن رغماً عني.. لكنني لا أخفيك أمراً: إنني أستمتع بهذا أحياناً.

ضحكت..

- هل ستغادر الليلة إلى مونستر؟

- لا أستطيع البقاء هنا لمدة طويلة؛ فالخادمة ستعود في الغد، كما أنني لا أريد المجازفة بالبقاء في هذه المدينة. إن الشارب لا يخفي معالم وجهي الكاملة.

- ألا تستطيع البقاء عند مارتينس؟

- عرض عليَّ قضاء الليل في عيادته، لكنه لا يستطيع إيوائي خلال النهار. من الأفضل لي أن أسافر إلى مونستر، فالخطر هناك أقل عليَّ من هنا، ولا أظن أن أحداً هناك سيتعرف عليَّ، كما أن المسافة من هنا

لا تتعدى الساعة.

- ما المدة التي ستقضيها في مونستر؟

- أستطيع تحديد ذلك فقط عندما أصبح هناك. إن الإنسان الملاحَق يطور في داخله حاسة أشبه بالحاسة السادسة في تحسس الخطر.

- هل تشعر بالخطر هنا؟

- نعم ومنذ هذا الصباح، أما الأمس فلم أحس بذلك.

نظرت إليَّ بحاجبيها المشدودين:

- بالطبع لن تسمح لنفسك بالخروج؟

- ليس قبل حلول الظلام، وعندها سيكون هدفي الوصول إلى محطة القطار فقط.

لم تجب هيلين، تابعتُ:

- لا تفكري في ذلك؛ فالأمور تسير على أحسن وجه. تعلمت أن أحيا من ساعة لأخرى، لكن من دون إهمال التفكير في اليوم المقبل.

- هل تعلمت ذلك حقًّا؟ إنه تفكير عملي بحت.

قالتها بنبرة منفعلة تماماً كما كانت في الليلة السابقة.

- إنه ليس تفكيراً عمليًّا فقط، لكنه ضروري أيضاً، لكنني على الرغم من ذلك أنسى الكثير من الأمور الضرورية في بعض الأحيان، مثلا: لقد نسيت أن أحضر معي من مونستر آلة الحلاقة؛ لذلك سأبدو اليوم كالمشرد. إن قوانين المشردين تنص على تفادي مثل هذه المواقف.

- ما زالت آلة الحلاقة التي تركتها قبل خمس سنوات موجودة بالحمام، كما أنه ما زال لديك بعض الملابس الداخلية وبعض بزاتك.. ستجدها معلقة في الجانب الأيسر من الدولاب.

كانت تتكلم وكأنني رجل تركها قبل خمسة أعوام وفرَّ مع امرأة أخرى وأنني عدت الآن وحيداً لآخذ ما تبقى لي من أمتعة والاختفاء من جديد. لم أحاول تصحيح ما قالته فهذا لن يغير شيئاً، وأنها ستنظر

إليَّ بدهشة وتحاول إقناعي بأنها لم تقصد ما فهمته وعندها أقف مرة ثانية وأزج بنفسي في موقف المدافع عن نفسه. غريب حقًّا أمرنا: نختار طرقاً ملتوية كي لا نظهر حقيقة مشاعرنا.

دخلت الحمام، لم تثُر في رؤية ثيابي القديمة إلا حقيقة واحدة: مدى نحولي عن سابق ما كنت عليه، فرحت بالثياب الداخلية وقررت أخذ عدة قطع منها، لكنني لم أشعر بأي عاطفة تهزني لدى رؤيتي إياها. تيقنت فجأة أن القرار الذي اتخذته منذ ثلاث سنوات قد أعطى ثماره وهو أن المنفى لن يكون بالنسبة لي حادث سوء بل حالة حرب باردة، ما يعني حالة مُلحة لتطوير ذاتي.

مضى النهار في حالة من مشاعر متضاربة. أضفت الحاجة الملحة للسفر جوًّا من الضيق، خاصة أن هيلين لم تكن معتادة على هذه المواقف مثلي، ونظرت إلى الأمر وكأنه إهانة شخصية. كنت أتوقع حدوث مثل هذه الأمور بحكم تجاربي، خاصة تلك في فرنسا. طغت فكرة الفراق ولم تكن هيلين قد تغلبت بعدُ على صدمة اللقيا. لم يحِن الوقت بعد لكبريائها بالمصالحة عندما عاد الموقف ليجدد ذاته، وهذا ما يبرر رد فعلها في مساء الأمس. عادت موجة المشاعر إلى جزرها وطغت فجأة أنقاض كانت مدفونة، طغت على شكل أكبر مما كانت عليه. عدنا نتعامل مع بعضنا بكثير من الدقة وغابت من بيننا مرة ثانية تلك الألفة.

تمنيت أن أبقى ساعة بمفردي لأستطيع تحديد المسافة بيني وبينها، لكنني عندما فكرت في أنه لم يعد أمامي ساعة بل أعشار الساعة لأمكث معها، تيقنت من استحالة هذا الأمر. كنت في السابق، في الأعوام الهادئة من حياتي، أحاول محاورة نفسي في موضوع: ماذا سأعمل لو علمت مسبقاً أنه لم يبقَ لي على قيد الحياة سوى شهر واحد! لم أتوصل يوماً إلى نتيجة واضحة، وبدت جميع الأمور التي ظننت أنني أحب القيام بها قد تجمعت واتخذت حالة قطبية حادة حولتها إلى أمور لا أرغب في

عملها. تمثلت علاقتي بهيلين في ذلك اليوم على هذا النحو؛ فبدلاً من احتضانها وفتح ذاتي لاحتوائها بكل حواسي أخذت أدور حول نفسي، أضغط على هذا الإحساس الملتهب مستبدلاً حذراً فائقاً به وكأنني صُنعت من الزجاج. لاحظت أن هيلين تعاني الحالة ذاتها.

أخذ كلانا يتعذب، مثقلين بزوايانا ومنعطفاتنا الحادة الكثيرة، ثم جاء الغروب ليبعث فينا الخوف من أن يضيِّع الواحد الآخر وسط ظلامه.

طرق الباب في حوالي الساعة السابعة، فزعت، فطرق الأبواب لا يعني لي سوى الشرطة.

همست متسائلاً:

- من سيكون الطارق يا ترى؟

- دعنا نصمت وننتظر، لا بد أنه أحد المعارف وسيعود أدراجه عندما لا يتلقى جواباً.

لكن الرنين لم يتوقف وأخذ الشخص في الخارج يطرق الباب بعنف. همست هيلين:

اذهب واختبئ في غرفة النوم.

- من هو؟

- لا أعرف من يكون.. اذهب أنت إلى غرفة النوم وسأحاول أنا تدبر الأمر. من الأفضل أن أفتح الباب قبل أن يخرج الجيران على صوت الطرقات.

تسللت إلى الغرفة بعد أن تأكدت من خلوها من أشياء تشير إلى وجودي.

سمعت هيلين تسأل:

- من الطارق؟

أجابها صوت رِجل.. عندها أجابت هيلين:

- هل هذا أنت؟ ما بك؟

ثم فتحت الباب:

كان للمنـزل مخـرج آخـر عبـر المطبـخ، لكنني أصبحت الآن بعيداً عنه. لم يبقَ أمامي سوى حل واحد، ألا وهو الاختباء في خزانة ملابس هيلين. لم تكن خزانة عادية، بل كانت عبارة عن غرفة صغيرة في الحائط لهـا بـاب خشـبي، وهـذا يعنـي وجـود الهـواء الكافي بداخلها. سـمعت خطـوات الرجـل داخـل غرفـة الجلوس.. تبينت صوته: إنه صوت أخيها جورج الذي وشى بي وأدخلني المعتقل.

رأيت على منضدة هيلين وحيث تضع زينتها سـكيناً صغيراً لقطع الورق. تناولته من دون أدنى تفكير ووضعته في جيبي ثم تسـللت إلى داخـل الخزانـة. كان مـن البديهـي أن أحـاول الدفـاع عـن نفسـي إذا دعا الأمر، وليس أمامي خيار آخر.. أقنعت نفسي بأنه عليَّ أن أقتله إذا حاول التعرض لي، وعندها سأحاول الفرار.

سمعت هيلين تسأله:

- الهاتف؟ لم أسمع رنينه. كنت مستغرقة في النوم ولم أنتبه إليه.. هل هناك أمر؟

يتحـول الإنسـان فـي لحظـات خـوف كبير إلى خليـة متخفرة مهيأة للاشتعال القوي في أي لحظة يصبح الإنسان، في مثل هذه اللحظات، بعيد النظر، يعمل ويفكر بسرعة فائقة..

أحسست قبل أن أسمع جوابه أنه لا يعلم بوجودي.. قال:

- حاولت الاتصال عدة مرات، لكنني لم أتلقَّ جواباً.. حتى الخادمة لم تجب! لماذا لم تفتحي الباب؟

أجابت هيلين بهدوء:

- كنت مستغرقة في النوم بعد أن نزعت فيشة الهاتف.. إنني أعاني صداعاً حاداً.. إنك أيقظتني..

- صداع؟

- نعـم، وهـا أنـا أشـعر بـه أكثـر من ذي قبـل.. تناولت قرصين من

الدواء وسأحاول النوم ثانية.

- هل هي أقراص منومة؟

- بل هي أقراص ضد الألم.. عليك أن تذهب يا جورج، فأنا أشعر بحاجة ماسة إلى النوم.

- إن الأدوية لا تفيد.. هيا البسي ثيابك لنقوم معاً بنزهة صغيرة.. الطقس جميل في الخارج ولا تنسي أن الهواء الطلق أفضل بكثير من الأقراص المسكنة.

- لقد تناولتها وأشعر من جرَّاء تأثيرها بحاجة ماسة للنوم. ليست لديَّ الرغبة في المشي.

تحادث الاثنان لفترة طويلة وأحسست بأن جورج يزمع على العودة فيما بعد لاصطحابها في نزهة. رفضت هيلين بإصرار. سألها إن كان لديها طعام كافٍ فكان جوابها بنعم، ثم سألها عن الخادمة فأجابته بأنها خرجت لفسحة وستعود لتعد العشاء.

عاد ليسألها:

- هل كل شيء على ما يرام؟

- وما عساه أن يكون قد حدث؟

- نعم! لا شيء، لكن المرء يفكر في كثير من الأحيان بأمور لا تنسى.

سألته هيلين بحيرة:

- ماذا تعني بذلك؟

- هل تذكرين؟

- ماذا؟

- إنك محقة، لماذا التحدث في أمور مضت؟ الأهم أن أمورك جيدة وهذا يريحني. لا تنسي أنني أخوك وأشعر بواجبي في السؤال عنك بين الحين والآخر.

- نعم..

- ماذا؟
- أعني أنك نعم الأخ..
- ماذا بك؟ إنك تختلفين عن بقية الأيام؟
- نعم؟
- إنني أقصد أنك متعقلة اليوم!
- لأنك أخي حقًّا.
- أريدك فقط أن تفهمي قصدي.. إنني أسعى لخيرك.
أجابته هيلين بنزق:
- بالطبع.. لقد سبق أن أوضحت لي ذلك مراراً.
- ماذا بك اليوم؟ إنك لستِ كعادتك.
- صحيح؟
- هل عدت إلى التفكير في الأمور القديمة؟
- لا، لم أعد إليها.. إنني أعاني فقط صداعاً أليماً، وهذا كل ما في الأمر، كما أنني أكره أن أوضع تحت المراقبة.
- لا أحد يراقبك، كنت فقط قلقاً عليك.
- لا تقلق عليَّ، فلا شيء ينقصني.
- هذا ما ترددينه دائماً، هل تذكرين؟
- دعنا مما كان.
- بالطبع، وأنا أيضاً لا أحبذ الحديث عنه.. هل زرتِ الطبيب؟
ردت عليه هيلين بعد فترة صمت:
- نعم..
- ماذا قال لك؟
- لا شيء.
- لكنه لا بد أن قال لك شيئاً؟
أجابت هيلين بعصبية:

- أشار عليَّ بالراحة والنوم عندما أحس بالتعب والصداع ونصحني بألا أتشاجر مع أحد ولا أطلب إذن أحد بالموافقة على خدماتي كرفيقة ومواطنة في إمبراطورية الألف عام العظيمة.

- هل قال لك هذا حقًّا؟

أجابت هيلين بصوت عالٍ وبسرعة:

- بالطبع لم يقُل ذلك، بل أنا التي قلته. نصحني فقط بالابتعاد عن الانفعال.. إن نصيحته هذه لا تعتبر تهجماً وليس من الضروري زجه في أحد معتقلات التعذيب. إنه مواطن موالٍ للسلطة! هل هذا يكفي؟

تمتم جورج ببعض الكلمات.. حسبت أنه يستعد للمغادرة، لكن التجارب علمتني أن هذه اللحظات هي أكثر اللحظات خطورة وتحدث فيها أمور لا تكون غالباً في الحسبان؛ لذا أغلقت باب الخزانة التي كنت مختبئاً داخلها.

لم أكد أقوم بذلك حتى سمعته يدخل غرفة النوم. رأيت ظله من خلال شق الباب ثم سمعته يدخل المرحاض، كما شعرت أن هيلين لحقت به، لكنني لم أتمكن من رؤيتها. أغلقت الباب ووقفت في ظلمة حالكة ممسكا بالسكين بشدة. وقفت هكذا متأهباً وسط ثياب هيلين.

أيقنت أن جورج لم ينتبه لوجودي وأنه سيعود حتماً إلى غرفة الجلوس مارًّا بغرفة النوم. أحسست، على الرغم من معرفتي الأكيدة بذلك، جفافاً في البلعوم وأخذ العرق يتصبب من تحت الإبطين ثم يغطي جسدي بكامله. يختلف الخوف من المجهول عنه من أمر نعرفه. يبدو الخوف من المجهول خطراً، لكنه يبقى غير محدد، ويستطيع الخائف أن يحدده عن طريق العقل وخداع الذات، لكن عندما يكون المرء عارفاً بما ينتظره تصبح فائدة التحكم والإقناع النفسي قليلة أو معدومة.

جابهني النوع الأول من الخوف عندما اعتقلت في المرة الأولى، أما الخوف الثاني فهو ما أجابهه الآن، خاصة بعدما عرفت حقيقة ما

ينتظرني إذا اعتقلت ثانية.

غريب حقًّا أنني لم أفكر، منذ تسللي من الحدود، في إيضاح هذه الأمور لنفسي.. كان السبب في ذلك هو اقتناعي أن هذه المحاورة ستحد من تصرفاتي بينما كنت مصرًّا على المضي بمخططي، كما أنه علينا ألا ننسى أن ذاكرتنا تحاول تزوير الحقائق بقصد الحفاظ على بقائنا. إنها تحاول أن تجعل من اللامحتمل أمراً معقولاً مستعينة بغشاء النسيان. إنك تفهم بلا شك ما أقصد.

نعم إنني أعرفه، لكنه ليس نسياناً، إنه وضع أشبه بنصف النائم، تكفيه هزة صغيرة ليعود إلى ما كان عليه.

حنى شفارتس رأسه موافقاً ثم تابع:

- وقفت وسط ذلك المكان الضيق، المعتم والمعطر، وسط ثياب زادت إحساسي بالضيق وكأنني أقف بلا حراك بين جناحي خفاش كبير، أتنفس بسطحية خوفاً من أن يحدث تلامس أنفاسي مع الحرير صوتاً.. حاولت منع نفسي من السعال أو العطس.

توضحت لي، لأول مرة، خطورة عودتي، وشعرت بأن غازاً أسود يخرج من العمق وارتعدت من خوف الاختناق به.. لم أتعرض خلال فترة وجودي في المعتقل لأساليب تعذيب قاسية كالتي تعرض لها غيري.. عوملت معاملة سيئة، لكنني استطعت مغادرة المعتقل حيًّا، ربما، كان هذا هو السبب الذي أخذ يلف ذكرياتي بغيمة من الكآبة، أما الآن فلقد وجدت نفسي أقف فجأة، للمرة الثانية، أمام ما حدث لي وأكثر من ذلك، أخذت أستعيد ما اقترن في ذاكرتي مما رأيته وسمعت عنه من الأمور التي حدثت لغيري، عندها أيقنت فداحة ما قمت به وكيف تركت بلاداً مباركة وعدت لبلد يؤدي فيه السعي وراء الوجود إلى السجن والإبعاد. بدت لي تلك البلاد وكأنها موانئ الإنسانية الحقة.

سمعت جورج وهو في الحمام، فلم يكن يفصلني عنه سوى حائط

رقيق، لم يكن باستطاعته، كونه منتمياً لسادة البشر، إلا أن يكون صاخباً مدويًّا. رفع غطاء المرحاض بطريقة حادة وجلس يقضي حاجته.

إنني ما زلت أخجل عندما أذكر أنني سمعت صوت تبوله، غير أن تلك الظاهرة كانت تؤكد في تلك اللحظة ارتياحه وعدم شكه بوجود شخص آخر في البيت. ذكرني ذلك الموقف بحوادث سطو وسرقة؛ حيث يحاول اللص - قبل الفرار - أن يوسِّخ البيت، إما بهدف التحقير وإما نتيجة خجل؛ لأن الحاجة إلى التبول في مثل هذه الظروف هي علامة الخوف. سمعت صوت الماء وبعدها صوت مشية جورج التي استعادت حيويتها وصلابتها وهو يعبر الغرفة، ثم سمعت صوت إغلاق الباب البعيد. عندها فتح باب الخزانة ودخل النور ليقهر الظلمة ووقف خلفه شبح هيلين.

همست:

- لقد خرج.

خرجت من الخزانة وتخيلت نفسي للحظة أنني آخيل متستراً بلباس امرأة.. تبدل خوفي إلى السخرية ثم الخجل، وعلى نحو سريع شعرت بأن هذه الأحاسيس الثلاثة اندمجت مع بعضها بعضاً في آنٍ واحد. تعودت في السابق أن يصادفني أحدهم على حدة ولفترة قصيرة ثم يعود ليتركني، لكنه اختلف في هذه المرة..

اختلف لديَّ شعوري بالموت وهو يمسك بعنقي، وأصبح من الصعب عليَّ إبعاده. همست هيلين:

- عليك أن تغادر.

نظرت إليها، ومن دون معرفة السبب، منتظراً نظرة احتقار على وجهها ربما لأنني وجدت نفسي، بعد تجاوز الخطر بدقيقة، خجلاً من نفسي كرجل، خاصة أمام هيلين.

لم يكن وجهها يوحي بشيء سوى خوف عار.

عادت لتلح:

- عليك أن تغادر! كانت عودتك خطوة جنونية.

هززت رأسي رافضاً، على الرغم من تفكيري بما قالته بدقيقة واحدة سبقت.

- ليس الآن، لكن ربما بعد ساعة، فمن المتوقع أن يكون قد وقف ينتظر على الرصيف.

هل تظنين أنه سيعود ثانية؟

- لا أظن ذلك؛ لأنه لم يشتبه بوجود أحد.

ذهبت هيلين إلى غرفة الجلوس وأطفأت النور ثم أزاحت الستائر ووقفت منحنية إلى الأمام، متحفزة وكأنها تراقب وحشاً.. همست:

- لا يمكنك الذهاب إلى المحطة، فربما تعرف أحد عليك، لكن هذا لا يلغي فكرة المغادرة. سأمر الآن على صديقتي وأستعير سيارتها لأوصلك بها إلى مونستر. كم كان تصرفنا أحمق.. لا يمكنك البقاء هنا.

نظرت إليها وهي تقف إلى جانب الغرفة.. المسافة التي تفصلني عنها مسافة عرض الغرفة، لكنني أحسست بألم حاد لبعدها الحقيقي عني. أيقنت هي للمرة الأولى أنه علينا أن ننفصل للمرة الثانية، واختفت كل التحفظات التي كانت تقف بيننا.. أيقنت هيلين الخطر المحدق بنا الذي جعل الأمور الأخرى تبدو فجأة بلا أهمية.

أصبحت فجأة كتلة من الخوف، لكنها، في اللحظة ذاتها، مستعدة لتحمل الوداع والخسارة. أيقنت أنا أيضاً هذه الأمور كلها مثلها، أيقنتها بحدتها وقسوتها، أخيراً بلا حجاب ولا حذر، وتحول هذا الإدراك غير المحتمل إلى شهوة غير محتملة.. امتلأت برغبة عارمة لاحتضانها والاحتفاظ بها. أمسكت بها وكلي رغبة في مضاجعتها ولو لمرة واحدة وقد تملكني شعور بالاستسلام للقدر موقناً بأنني سأخسرها مرة ثانية، لكنني أريدها الآن وهي ممتلئة بالأمل، أريدها قبل أن تستسلم.

تمنعت أمام إلحاحي وهمست:

- ليس الآن.. عليَّ أن أكلم...

- ليس الآن.. علينا أن...

قلت في نفسي: لسنا ملزمين بشيء، أمامي ساعة واحدة فقط ولينهَر العالم بعدها.. لماذا لم تتملكني الرغبة العارمة من قبل؟

شعرت بهذا من قبل لكنني أخذت أتساءل: لماذا لم أحاول تحطيم ذلك الجدار الزجاجي الذي كان يقف بيننا؟

إذا لم يكن معنى لعودتي فما معنى وجودي الآن؟ عليَّ أن أحمل معي شيئاً من هيلين يزودني بالأمل وسط الفراغ الرمادي الذي سأعود إليه، هذا إذا حالفني الحظ في أن تكون في داخلي ذكريات غير ذكريات الحذر والدوران حول الذات واللقاء الأخير بين النوم والنوم. يجب أن أمتلك هيلين بصفاء وبكل حواسي، أمتلكها بعقلها وعينيها، بفكرها، أمتلكها كاملة وليس فقط كمضاجعة حيوانية، تتم بين الليل والفجر.

امتنعت وهمست مشيرة إلى تخوفها من رجوع جورج، لكنني كنت متأكداً من أنها تهمس بأشياء تتعارض مع قناعتها. مررت أنا نفسي بكثير من المخاطر وكنت بعد انتهاء كل خطر أصر على عدم نسيانه، أما الآن وفي هذه الغرفة وفي هذه اللحظة كنت أريد شيئاً واحداً فقط، أريد هيلين بعطرها وثيابها، بالسرير والغروب، أريدها بكل ما أمتلك من قدرة مصحوبة بالشعور الوحيد المؤلم، ذلك الشعور الملح بعذاب الخسارة، واليقين من عدم قدرتي على امتلاكها أكثر مما تسمح به الطبيعة. تمنيت لو أستطيع بسط نفسي عليها كلحاف ولو كانت لي آلاف الأيدي وآلاف الأفواه، تمنيت أن أصبح عدسة مقعرة كاملة أستطيع فيها أن أحسها أينما وجدت ومن دون فراغات؛ حيث يلتصق فيها الجسد بالجسد ممزوجاً بذلك الألم الأزلي لتأكدي من أنه لن يكون سوى التصاق جسدين وليس تدفق دم الواحد بدم الآخر.. لا.. لا اتحاد بل التصاق.. التصاق فقط وليس التحاماً.

7

كنت أستمع إلى شفارتس من دون محاولة مقاطعته.. كان يحدثني على الرغم من تيقني أنني لم أكن أعني له سوى حائط يتلقى منه بين الحين والآخر بعض الصدى. كنت أنا أيضاً أنظر إلى نفسي في تلك الليلة على كوني حائطاً فقط، وإلا لما استطعت الإصغاء إليه بلا حرج. كنت له مجرد حائط؛ لهذا أخذ يسرد قصته بلا حرج، يسرد الأشياء التي يريد أن يبعثها قبل أن يواريها بصمت تراب الذكريات المبتعدة.

كنت مجرد شخص غريب أعترض طريقه لليلة واحدة، وبالتالي لن يكون مكبلاً بالمخاوف تجاهه. التقاني متدثراً بمعطف المجهول لاسم بعيد ميت: شفارتس، لكنه عندما يخلع هذا المعطف سيخلع عنه شخصيته هذه ويعود ليختفي بين الجموع المجهولة التي تسير باتجاه الحدود الأخيرة ببوابتها السوداء، حيث لا يسأل المرء عن هويته ولا يخاف أن يطرد أو يلزم بالعودة من حيث أتى.

أعلمنا النادل أنه يوجد في الحانة، إلى جانب الدبلوماسيين الإنجليز، دبلوماسيون ألمان، وأشار باتجاههم. كان مبعوث هتلر يجلس على بعد خمس موائد منا، بصحبة ثلاثة أشخاص من بينهم امرأتان باديتا الصحة، ترتديان ثياباً حريرية باللونين الأزرق والعاجي. كان الرجل الذي أشار إليه النادل يجلس متجهاً إلينا بظهره، الأمر الذي بعث فينا بعض الهدوء. قال النادل:

- ظننت أن اقتراحي سيهمكم، فأنتم تتكلمون الألمانية أيضاً.

تبادلنا، شفارتس وأنا، بعفوية، نظرة المغتربين: رفع الحواجب والأكتاف، ومن ثَمَّ الالتفات بلا مبالاة وكأن الأمر لا يعنينا.

نظرة المهاجرين تختلف عن نظرة الألمان في ظل السلطة الهتلرية:

الالتفات بحذر إلى الجهات كلها ثم تبادُل المعلومات بهمس، لكن النظرتين ظاهرتان حضاريتان في قرننا العشرين هذا، تماماً كهجرات الشعوب المفروضة: ابتداء بأعداد لا تحصى في ألمانيا من أمثال السيد شفارتس، إلى التهجير الجماعي لمناطق كاملة في روسيا. سيعلن مؤرخ حاذق، بعد مائة عام وعندما يعود صدى صيحات هذه الجماعات الأليمة، هذه الهجرات كمسلمات، كناقل وكسماد وكناشر حضاري.

نظر شفارتس إلى النادل نظرة لا مبالية ثم أجابه:

- نحن لا نعرف.. ائتنا ببعض النبيذ. ثم تابع حديثه بهدوء:

- خرجت هيلين لتعود بسيارة صديقتها وبقيت أنا في المنزل وحيداً أنتظر عودتها. كان الوقت مساء والنوافذ مفتوحة. أطفأت جميع الأنوار كي ألغي الشبهات عن وجود أحد في المنزل.. قررت ألا أفتح الباب لو قرع الجرس وسأحاول في حال عودة جورج الفرار من باب المطبخ.

جلست نصف ساعة إلى جانب النافذة وأخذت أستمع إلى الأصوات المقبلة من الطريق. تسلل شعور مخيف من الخسارة إلى داخلي. لم يكن هذا الشعور مؤلماً، لكنه أشبه بالغروب الذي يتسلل رويداً رويداً ليظلل الأشياء ويفرغها إلى أن يغطي الأفق. ظهر في السماء ظل برج الميزان، ظهر في محاولة لتوازن ماضٍ أجوف مع مستقبل أجوف، بين هذين الزمانين كانت تقف هيلين وكأنها تحمل أقب الميزان على كتفيها. أحسست أنني أقف وسط فترة حاسمة من حياتي وأن الميزان سيحول خطواتي المقبلة التي ستهبط باتجاه المستقبل وستمتلئ أكثر فأكثر باللون الرمادي، لكنها ستكون قادرة في أحد الأيام أن تعيد الميزان إلى اتزانه.

استيقظت من تأملاتي على صوت صرير محرك سيارة مقبلة. رأيت هيلين بفضل ضوء.فانوس الشارع تترجل من السيارة وتختبئ داخل بوابة البناية. مشيت في المنزل الميت المظلم وسمعت صوت المفتاح في المزلاج. دخلت هيلين بسرعة:

- نستطيع الرحيل حالاً! هل يتوجب عليك العودة إلى مونستر؟

- لـديَّ هنالـك حقيبـة ثيـاب، علاوة على ذلك فأنا مسـجل باسـم شفارتس ولا يوجد لي مكان آخر سوى الفندق.. هل يوجد أمامي خيار آخر؟

- حاول أن تسدد فاتورة الفندق وتنتقل إلى فندق آخر.

- أين؟

- نعم.. أين؟

فكرت هيلين قليلاً ثم تابعت:

- أنت على حق.. إنه أقرب مكان إلى هنا.

كنـت قـد وضعـت فـي حقيبتـي - فـي أثنـاء فتـرة غيابهـا - بعض الأشـياء التي ربما أحتاجها. قررنا ألا نسـتقل السـيارة معاً أمام المنزل وأنني سألتقيها في ساحة هتلر، بينما تصحب هيلين الحقيبة معها.

تركـت المنـزل فاسـتقبلتني عندمـا خرجـت إلى الشـارع ريح دافئة وسـمعت حفيف أوراق الشـجر الآتية من الظلام. لم تمضِ دقائق حتى وصلت هيلين بالسيارة وهمست:

- أسرع بالركوب.

كانت السـيارة "كابريوليت" مغلقة، عكسـت لوحة القيادة ضوؤها على وجه هيلين ولمعت عيناها.

- عليَّ أن أقود بحذر، فما ينقصنا الآن هو حادث اصطدام وشرطة.

لـم أجـب؛ لأن المـرء تعـود ألا يتكلـم فـي الأمـور كلها. ضحكت هيلين وانطلقت ممتلئة طاقة قوية كمن داهمته حرارة عالية واسـتوطنته روح المغامرة.

كانت تتكلم مع نفسـها ومع السـيارة ومع السـيارات الأخرى التي تعبرنا وتبدأ باللعنات عندما يوقفنا ضوء أحمر.

- أسرع.. استدر وتحول إلى اللون الأخضر.

لم أستطِع تفسير تصرفاتها.. كانت تعني هذه الساعة ساعتنا الأخيرة، ولم أكن أستطيع التكهن بما عزمت عليه هيلين.

بدأت تهدأ عندما غادرنا المدينة ثم سألتني:

- متى ستغادر مونستر؟

- لم أكن أعلم بالتحديد؛ فأنا لم أكن حتى تلك اللحظة قد فكرت بالهدف الذي سأسير في اتجاهه.. الأمر الوحيد الذي كنت متأكداً منه هو أنني لا أستطيع البقاء هنا لمدة طويلة؛ فالحظ لا يعطي المرء إلا القليل من حرية المهرج، ثم يعود فيخطرنا ويضرب ضربته.. يستطيع المرء، في كثير من الأحيان، الإحساس بدنو مثل هذه الساعة، وهذا ما أحسسته أنا أيضاً.. أجبتها:

- في الغد.

لم تجب على الفور، ثم سألتني:

- وكيف ستغادر؟

فكرت بالأمر في أثناء مكوثي في المنزل المظلم، فكرت في إمكانية عبوري الحدود على شكل علني، لكنهم ربما طلبوا مني وثائق أخرى غير جواز السفر، ربما طلبوا مني إذن خروج أو وثيقة هجرة، وأنا لا أمتلكهما، أجبتها:

- سأعود من الطريق الذي جئت منه، سأقطع الراين من النمسا إلى سويسرا في أثناء الليل، لكن دعينا الآن من هذا الموضوع أو دعينا على الأقل نخفف الحديث عنه.

- أحضرت لك معي بعض المال لعلمي الأكيد بحاجتك إليه، خاصة أنك ستعبر الحدود بلا رقابة.. هل تستطيع صرفه في سويسرا؟

- نعم، لكن ألا. تحتاجينه أنت؟

- لا أستطيع أن أحمله معي، فنحن نخضع لرقابة دقيقة على الحدود؛ لأن القانون لا يسمح لنا إلا بحمل عدد معين من الماركات

عند المغادرة. حملقت بها.. عمَّ تتكلم؟ لا بد أنها أخطأت التعبير.
سألتها:

- ما كمية المال الذي تحميلنه؟

نظرت إليَّ نظرة سريعة:

- كمية ليست بالقليلة كما تظن، قمت بتوفيرها منذ فترة طويلة.. إنها في الحقيبة تلك.

وأشارت إلى حقيبة جلدية صغيرة ملقاة على المقعد الخلفي.

- إنها أوراق نقدية من فئة المائة مارك، وهناك رزمة من فئة العشرين ماركاً، خصيصاً لاحتياجاتك داخل ألمانيا. لا تحاول عدها الآن، خذها، فالمال هو مالك.

- ألم يحجز الحزب على رصيدي في المصرف آنذاك؟

- بلى، لكن الحجز جاء متأخراً قليلاً واستطعت سحب هذه الكمية من المال قبل أن يتم الحجز. ساعدني في ذلك أحد موظفي المصرف. خبأتها من أجلك ولطالما تمنيت أن أرسـلها لك، لكنني لم أكن أعلم مكان وجودك.

- لم أكتب لك لمعرفتي الأكيدة أنك خاضعة لمراقبة شديدة، ولم أكن أريدك أن تنتهي في أحد المعتقلات.

أجابت هيلين بهدوء:

- لا أظن أن هذا هو السبب فقط.

- لا، ربما ليس لهذا السبب فقط.

عبرنا قرية ببيوت بيضاء صغيرة ذات أسطح من القش تزينها أعمدة خشـبية سـوداء، وقد أخذ بعض الشـباب يجوبون طريق القرية الرئيسـي ببزاتهم العسـكرية، بينما انبعث صوت نشـيد من إحدى الحانات. قالت هيلين فجأة:

- يقال إن الحرب تقف على الأبواب! ألهذا السبب عدت؟

- من قال لك ذلك؟

- جورج.. هل عدت لهذا السبب؟

لم أستطع فهم إصرارها على معرفة السبب.. ألا ترى أنني عدت للفرار ثانية؟ أجبتها:

- نعم، عدت لهذا السبب أيضاً.

- عدت كي تصطحبني؟

- حملقت بها.

- هيلين.. يا إلهي! لا تتكلمي هكذا عن الموضوع. أنت لا تدركين ماذا يعني المنفى، إنه ليس مكاناً للمغامرات ويصبح لا يطاق لو اندلعت الحرب، عندها ستقوم السلطات هناك باعتقال جميع الألمان.

توقفنا أمام حاجز للسكك الحديدية. أزهرت أمام بيت الحارس الصغير الورود ووصلت إلى مسامعنا أصوات تضارب الريح بالعوارض الخشبية وكأنه صوت عزف على الجنك. توقفت إلى جانبنا سيارات أخرى: الأولى سيارة "أوبل" صغيرة تقل أربعة ركاب بدناء، ذوي ملامح صارمة. تلتها سيارة صغيرة بمقعدين تقودها سيدة متقدمة في العمر ثم انسابت خلفها سيارة "مرسيدس" فاخرة، سوداء اللون، يقودها سائق يرتدي بزة أعضاء قوى الأمن (الجستابو) بينما جلس في الخلف ضابطان من الصاعقة بوجهين شاحبين.. كانت السيارة تقف بمحاذاتنا.. طال انتظارنا أمام الحاجز. كانت هيلين تجلس صامتة إلى جانبي وأخذت تنظر إلى السيارة السوداء المطعمة بالكروم.

كان مظهر السيارة يصر على اعتبارها سيارة نقل الموتى، وها هي تقوم الآن بنقل جثتين.. كنا نتحدث، قبل ثوانٍ، عن الحرب، وها نحن الآن نقف إلى جانب رمز الحرب، بزات سوداء، وجوه شاحبة، رؤوس أموات فضية، سيارة سوداء وسكون لم يعد يذكر بالأزهار المتفتحة، بل يصر على اللون الأخضر السرمدي المر وعلى الدمار.

عبر القطار الحاجز مصحوباً بضجيج الحياة.. مر القطار من أمامنا وشاهدنا مقصورات النوم ومطعماً مضاءً وقد تدلت على مناضده شراشف بيضاء.. ارتفعت العارضة بعد مروره معلنة فتح الطريق وانطلقت السيارة السوداء مسرعة لتختفي في الظلام وكأنها طوربيد يسرق من الطبيعة لونها على هيئة شبح ويحيل الأشجار إلى هياكل عظمية سوداء.

همست هيلين:

- سأرحل معك.

- ماذا؟ ماذا تقولين؟

- ولِمَ لا.

أوقفت محرك السيارة ولفَّنا السكون كأنه صفعة صامتة، ثم بدأنا نسمع تدريجيًّا صوت الليل.. سألتني هيلين فجأة وبصوت متوتر:

- ولِمَ لا؟ هل أنت مزمع على تركي ثانية؟

نظرت إليها فرأيت وجهها شاحباً في ظل انعكاس ضوء لوحة القيادة، وكأنه وجه أحد الضابطين من ذي قبل.. بدت لي وكأنها الموت وقد تسلل في تلك الليلة من يونيو ورسم شارته عليها. تأكدت عندها أن هذا هو السبب في خوفي العميق الدائم؛ الحرب ستقف حائلاً بيننا، وأننا لن نلتقي بعد أن يكون هياجه قد توقف ليمنعنا من التفكير والأمل في سعادة صغيرة. تماماً كما هو الحال بعد زلزال هدم الأشياء كلها في أثناء هياجه.

قالت هيلين وهي ترتجف من الغضب:

- لو أنك لم تعد لاختلف الأمر، أما الآن وبعد أن عدت سيصبح تركك لي جريمة لا تغتفر.

- نعم.

- لماذا تتهرب من اصطحابي؟

- إنني لا أتهرب، لكنك لا تفهمين بعدُ معنى المنفى.

- هل تفهمه أنت؟ هل أنت متأكد من سبب عودتك؟ لا تكذب! هل عدت لتقول وداعاً للمرة الثانية؟

- لا.

- لماذا إذاً؟ ألتبقى هنا؟ إن هذا يعني انتحاراً على طريقة خاصة.

هززت رأسي.. كنت أعلم أن هناك جواباً واحداً فقط تستطيع هيلين فهمه، وعليَّ الآن أن أقوله على الرغم من تأكدي من عدم إمكانية تنفيذه.

- هيلين.. لقد عدت لاصطحابك.. ألم تشعري بذلك حتى الآن؟

تغيرت تعبيرات وجهها واختفت علامات الغضب وتحول إلى وجه رائع الجمال. تمتمت:

- بلى.. إنني أشعر به، لكن عليك أن تقوله أنت.

- لملمت شجاعتي كلها وقلت:

- كم أود أن أقوله لك مئات المرات.. أن أقوله لك كل دقيقة، لكنني أريد أن أوضح لك أن الأمر مستحيل التطبيق.

- لا، ليس مستحيلاً؛ فأنا أحمل جواز سفر.

صمتُّ فترة وقد صعقني كلامها، وكأنها ضربة صاعقة عصفت بغيوم أفكاري المبلبلة، أجبتها متسائلاً:

- هل تحملين حقًّا جواز سفر؟

فتحت هيلين في الحال حقيبة يدها وأخرجت جواز سفرها وتأملته كما يتأمل المتصوف حامي الحمى المقدس. جواز سفر ساري المفعول، وهذا لعيني إيضاح وحق في الوقت ذاته.

سألتها:

- منذ متى تحملين جواز سفر ساري المفعول؟

- منذ سنتين ويبقى ساري المفعول ثلاث سنوات مقبلة. استعملته ثلاث مرات: مرة إلى النمسا عندما كانت لا تزال بلداً مستقلاً، ومرتين لدى زيارتي لسويسرا.

- تصفحته وحاولت التماسك، فلقد وقف الواقع أمامي وقفة تحدٍّ. فلقد كان عذري في السابق عدم تمكنها من عبور الحدود إلا على الطريقة التي عبرتها أنا.

أجابتني هيلين التي كانت ترقبني بانتباه:

- الأمر سهل كما ترى.. أليس كذلك؟!

حنيت رأسي موافقاً وكأنني أبله:

- هذا يعني أن باستطاعتك ركوب القطار ومغادرة البلاد! لكنك لا تمتلكين إذن دخول لفرنسا!

- أستطيع السفر إلى زيوريخ، ومن هناك أستطيع الحصول على إذن دخول.. بينما سويسرا لا تطلب إذن دخول.

حملقت بها:

- هذا صحيح، لكن ما رأي عائلتك في هذا الأمر؟ هل يسمحون لك بالمغادرة؟

- لن أسألهم رأيهم ولن أبلغهم بما اعتزمته. سوف أبلغهم بأنني مضطرة للسفر إلى زيوريخ لزيارة الطبيب، فلقد قمت بذلك مرتين.

- هل أنت مريضة؟

- بالطبع لا! تذرعت بذلك للحصول على جواز سفر والخروج من هنا بعد أن كنت قد وصلت إلى مرحلة الاختناق. تذكرت أن جورج سألها إن كانت قد زارت الطبيب؛ لذا كررت سؤالي:

- ألستِ مريضة؟

- هراء! لكن عائلتي تعتقد ذلك بعد أن حاولت طويلاً إقناعها بذلك كي أستطيع الخروج من البلاد بقصد الراحة.. ساعدني مارتينس بذلك، خاصة أنه من الصعب جدًّا إقناع ألماني معتد بقوميته بأنه ربما وُجد في سويسرا مختصون أكثر مهارة من أذناب السلطة في برلين.

ضحكت هيلين فجأة ثم قالت:

- لا تكن مأساويا لهذا الحد؛ فالأمر لا يتعلق بقضية حياة أو موت، كما أن سفري لن يكون قراراً في ليلة ضبابية.. سأغادر في الغد، وبكل بساطة لأقضي بضعة أيام في زيوريخ بقصد إجراء بعض الفحوصات اللازمة، تماماً كما فعلت في السابق وسأراك هناك، هذا إذا وُجدتَ هناك فعلاً، هل يبدو ما أقوله الآن أكثر إقناعاً من قبل؟

- نعم، لكن دعينا الآن نتابع سفرنا.. إنني ما زلت كشخص يضع رأسه، على شكل متكرر، في حوض ماء يغلي ثم في حوض ماء جليدي؛ لذا لا أستطيع بعدُ التفريق بين الأمور.. لماذا لم أفكر بهذا كله من قبل؟ بدت الأمور فجأة سهلة جدًّا؛ لذلك انتابني شعور بأن سرية من رجال الجستابو ستخرج في الحال من الغابة المعتمة.

أجابت هيلين برقة:

- الأمور كلها تبدو سهلة جدًّا عندما يكون الإنسان يائساً يا عزيزي.. إنه تعويض غريب! هل الأمور هكذا دائماً؟

- آمل ألا نصبح يوماً ما عرضة للتفكير بها على هذا النحو.

عادت السيارة وتخطت الطريق الجانبي المليء بغبار الصيف وتابعت سيرها على الطريق الأسفلتي.

- إنني مستعدة للنظر إلى الحياة من خلال هذا المنظار.

قالتها هيلين بنبرة لا تحمل في ثناياها أي دلائل لليأس.

رافقتني للفندق بينما كنت لا أزال مندهشاً من سرعة تفهمها للموقف.. أوضحت لي:

- سأرافقك إلى قاعة الاستقبال؛ فالرجل الذي يظهر برفقة امرأة أقل عرضة للشبهات من الرجل الوحيد.

- إنك تتعلمين بسرعة.

هزت رأسها:

- تعلمت هذه الأمور كلها قبل مجيئك وفي أثناء سني الوشاية.. إن

مرحلة البعث القومي هي كالحجر الذي يبعد عن مكانه ليظهر ما تحته من الحشرات الزاحفة، هذه الحشرات التي تغطي ابتذالها بالكلمات البراقة.

سلمني المساعد الفندقي مفتاح غرفتي.. صعدت إليها بينما بقيت هيلين تنتظرني في القاعة. وجدت حقيبتي موضوعة على حمالة حقائب إلى جانب الباب. جلت بنظري في أرجاء الغرفة: إنها غرفة أشبه بباقي الغرف التي اعتدت النزول فيها. حاولت استحضار الذكرى وكيف وصلت إليها، لكنني وجدت أن هذه الذكريات أخذت تسبح بعيداً. تيقنت من أنني لم أعد أقف على الشاطئ، أو أجلس متخفياً وأراقب التيار، بل وجدت نفسي أسبح في وسطه.

وضعت الحقيبة التي أحضرتها معي إلى جانب الحقيبة التي كنت قد ابتعتها مؤخراً ثم عدت إلى هيلين.

سألتها:

- كم لديك من الوقت؟

- عليَّ أن أعيد السيارة الليلة.

نظرت وشعرت برغبة إليها جعلتني عاجزاً عن التفوه بكلمه.. جلت بنظري في أطراف القاعة بأرائكها البنية والصفراء ثم نظرت إلى مكتب عامل السنترال وإلى المربعات الصغيرة التي تحمل رقم كل غرفة ومكان البريد وعندها تيقنت من أنني لا أستطيع اصطحاب هيلين إلى غرفتي.. قلت لها:

- نستطيع أن نتناول العشاء معاً ونتصرف وكأننا سنتقابل في الغد.

- ليس غداً، لكن بعد غد.

ربما كان بعد غد يعني لها الكثير، أما بالنسبة لي فهو لا يعني شيئاً، أو يعني خطًّا متأرجحاً في دورة "يا نصيب" أعداد الرابحين فيها قليلة، بينما أعداد الخاسرين كثيرة لا متناهية. لقد عشت كثيراً من أوهام بعد غد وكلها جاءت عكس ما تأملت. قلت:

- بعد غد أو اليوم الذي يليه، هذه الأيام كلها متعلقة بمزاجية الطقس، لكن لندع اليوم التفكير بها جانباً.

أجابت:

- لكنني لا أستطيع التفكير في شيء آخر.

ذهبنا إلى قبو الكاتدرائية، مطعم معد على النحو الألماني القديم. جلسنا إلى إحدى الطاولات البعيدة بحيث يصعب على أحد الاستماع لحديثنا.

طلبت زجاجة نبيذ وتحدثنا بالمواضيع التي كان علينا التحدث فيها. أكدت لي هيلين أنها ستغادر إلى زيوريخ في صباح الغد وستنتظرني هناك، أما أنا فسأسلك الطريق الذي جئته وسأكلمها عندما أصل إلى زيوريخ.

سألتني:

- وإن لم تصل؟

- يسمح لنزلاء سجون سويسرا بكتابة الرسائل.. أما إذا لم تصلك رسالة مني لمدة أسبوع فحاولي العودة.

تأملتني هيلين مليًّا وفهمت قصدي.. لا توجد إمكانية للكتابة من داخل السجون الألمانية. همست:

- هل الحراسة شديدة على الحدود؟

- لا. والآن حاولي ألا تفكري كثيراً في هذا الأمر.

لقد عبرت الحدود إلى الداخل.. وما المانع في إعادة المحاولة ثانية إلى الخارج؟

حاولنا أن نتجاهل الوداع، لكننا لم ننجح في ذلك كثيراً، فلقد كان يقف بيننا كعمود أسود شامخ، وكل ما كنا نستطيعه هو الدوران حوله واستراق بعض النظرات إلى وجهينا المشتتين. قلت:

- إن الموقف الآن كما كان قبل خمس سنوات، لكننا في هذه المرة نغادر كلانا.

هزت هيلين رأسها:

- كن حذراً... أستحلفك بالله أن تكون حذراً. سأنتظرك أكثر بكثير من أسبوع. سأنتظرك المدة التي تريدها، لكن لا تجازف!

- سأكون حذراً، والآن دعينا من هذا الحديث؛ فالمرء يستهلك في بعض الأحيان الوقت كله في الحديث عن الحذر.

أراحت يدها على يدي:

- الآن فقط أعي أنك عدت، وذلك قبل رحيلك بلحظات وعي متأخر!

- وأنا أيضاً، وربما كان هذا الوعي المتأخر أفضل لكلينا.

- الآن فقط وقبل رحيلك؟

- لا. ليس الآن. فلقد كنا نعلم ذلك في قرارة أنفسنا، ولولاه لما عدت ولولاه لما انتظرتِني هذه الفترة كلها، لكننا الآن نستطيع التحدث عنه.

قالت:

- لكني لم أنتظرك هذه الفترة كلها.

صمت، فأنا أيضاً لم أنتظرها خلال هذه الفترة، لكنني كنت أعلم أنه لا يجوز لي الاعتراف بذلك، خاصة في هذه الليلة. كنا، نحن الاثنين، واضحين ومن دون دفاع. لو قُدِّر لنا، نحن الاثنين، أن نمضي الحياة معاً، فسيكون هذا المكان مطعماً صاخباً في مونستر، مكاناً يلوذ إليه أحدنا ليستقي منه القوة والتأكيد... سيصبح هذا المكان مرآة نستطيع النظر إليها ورؤية صورتين:

الأولى هي صورة ما أرادنا القدر أن نكونه، والثانية صورة ما نجح القدر في جعلنا إياه، هذا شيء كبير؛ فالأخطاء تترتب في الغالب من جرَّاء ضياع الصورة الأولى.

قلت:

- عليك الآن أن تعودي، كوني حذرة ولا تسرعي!

ارتجفت شفتاها، أما أنا فشعرت بالسخرية بعد أن نطقت بهذه الكلمات. وقفنا في الطريق العاصف بالريح وسط المنازل القديمة. قالت:

- كن أنت حذراً، فأنت بحاجة إليه أكثر مني.

مكثت فترة في غرفتي، لكنني لم أستطِع البقاء لمدة أطول. اتجهت إلى محطة القطار وابتعت بطاقة سفر إلى ميونيخ ودونت موعد تحرك القطارات، وجدت أحدهم سيغادر في تلك الليلة؛ لذا قررت أن أستقله.

كانت المدينة هادئة. مررت بالكاتدرائية ووقفت أمامها، لكنني لم أستطِع تبين جميع معالمها في الظلام.

فكرت بهيلين وبي، وما عسى أن يحدث لنا، لكن الأفكار كانت شامخة وغير واضحة كنوافذ الكاتدرائية أمامي. عدت فجأة أشكك بالأمور كلها: هل اصطحابها معي إلى المنفى خطوة موفقة أم أنها ستؤدي بنا، نحن الاثنين، إلى التهلكة؟ هل هي جريمة أم نعمة كبيرة؟ ربما كانت هذه الخطوة تحتوي على الاثنين. سمعت بالقرب من الفندق أصواتاً مكبوتة ووقع أقدام، وخرج من أحد الأبواب رجلا جستابو يدفعان أمامهما رجلاً تبينته بواسطة ضوء أحد فوانيس الشارع. كان وجهه نحيلاً بلون الماء، وقد سال خيط من دم أسود في الجهة اليسرى من فمه.. رأسه بلا شعر، لكن نبت له سالفان أسودان، أما عيناه فكانتا واسعتين مشدوهتين، مليئتين بفزع لم أرَه منذ زمن طويل.

كان الرجل صامتاً بينما يقوم سجاناه بركله وشده، مستحثين إياه على المضي أمامهما. لم يكونا صاخبين والمشهد كله يوحي بكثير من الكبت. مشهد فيه الكثير من مناخية أساطير الأشباح، نظر إليَّ رجلا الصاعقة بغضب واستفزاز عندما مروا أمامي، بينما حملق بي المعتقل بعينيه المشلولتين وكأنه يطلب النجدة، وتحركت شفتاه، لكن لم يصدر عنهما أي صوت. كان ذلك هو المشهد الأزلي للبشرية - السلطة الضحية

والعبد، والثالث ليس سوى المتفرج الذي لا يرفع يده احتجاجاً ولا يندفع للدفاع عن الضحية ولا يقوم بمحاولة لتحريره؛ لأنه يخاف على سلامته، وبالتالي، ولهذا السبب، تبقى سلامته مهددة دائماً.

كنت متأكداً من عدم قدرتي على مساعدة المعتقل؛ فرجلا الجستابو يستطيعان، وبسرعة، التغلب عليَّ، كما أني تذكرت، في تلك اللحظة، حادثة رواها لي أحد الأصدقاء وهي كالتالي:

كان المشهد يشابه المشهد الذي رأيته: رأى صديقي رجل جستابو يعتقل رجلاً يهوديًّا ويضربه، فأسرع لنجدته وضرب رجل الجستابو ضربة قوية أردته أرضا، وأفقدته وعيه، ثم صرخ بالضحية حاثًّا إياها على الفرار، لكن المعتقل أخذ يلعن محرره ويصيح به موبخاً؛ فعمله هذا سيؤدي به إلى الموت؛ لأن ضربه رجل الجستابو سيزيد من عقوبته، ثم أسرع باكياً وأحضر ماءً بارداً لنجدة رجل الجستابو الذي اقتاده بدوره إلى الموت المحتم. تذكرت هذه الواقعة، لكنني على الرغم منها وقفت مشتتاً خاضعاً لكفاح عنيف ممزوج بعدم القدرة على العمل واحتقار الذات، الخوف، وشعور غريب من الاستهتار في التطلع إلى حفنة حظ، بينما يقتل الآخرون؛ لذا قررت، على عجل، الذهاب إلى الفندق. رتبت أمتعتي واتجهت إلى محطة القطار، على الرغم من أن موعد تحرك القطار ما زال مبكراً وقررت الجلوس في قاعة المحطة بدلاً من الجلوس في غرفتي بالفندق. أعادت لي هذه المخاطرة الصغيرة التي قمت بها وعلى طريقة طفولية بعضاً من الثقة بالذات.

8

أمضيت الليل ونهار اليوم التالي في السفر، ووصلت النمسا بلا صعوبة، كانت الصحف مليئة بالمطالب التي تحث على تبرئة الذات، كما كانت ترد فيها أخبار مختصرة عن حوادث الحدود التي تسبق في الغالب الحروب. عجت الصحف بالاتهامات.. أمر غريب، وكيف تتهم الشعوب القوية الشعوب الضعيفة بالعدوانية؟ شاهدت قطارات كاملة تحمل جنوداً، وتكلمت مع كثير من الأشخاص وجميعهم كانوا يستبعدون فكرة نشوب الحرب، بل كانوا يؤمنون بأنه ستكون هناك معاهدة ميونيخ جديدة تحل مكان سالفتها، وأن أوروبا أضعف من أن تجرؤ على خوض حرب ضد ألمانيا. كان رأيهم هو النقيض لرأي البشر في فرنسا، الذين كانوا يؤمنون بأن الحرب مقبلة لا محالة، وهذا يؤكد النظرية القائلة: إن المهدد يعرف أكثر وعلى شكل أسرع من المعتدي ذاته. وصلت إلى فيلد كيرشن واستأجرت غرفة في أحد البنسيونات الصغيرة.. الوقت صيف وموسم سياحة، وهذا يعني أنه لن ينتبه لوجودي أحد، كما أن الحقيبتين جعلتا مني سائحاً حقيقيًا. قررت تركهما في الغرفة وأخذ القليل فقط مما أحتاجه وأستطيع حمله في أثناء عبوري النهر.. وضعت هذه القلة من الأشياء في كيس سفر يُحمل على الظهر ودفعت أجرة الغرفة مسبقاً عن أسبوع.

باشرت مخططي في اليوم التالي لوصولي. اختبأت قرب الحدود خلف مجموعة من الشجيرات حتى منتصف الليل. ما زلت أذكر لذعات البعوض في ذلك النهار، كما أنني قضيت معظم وقتي في مراقبة سمندر أزرق استوطن مياه بركة صاخبة صغيرة، له مشط ويطفو بين الحين والآخر على وجه الماء ليستنشق بعض الهواء وأظهر في إحدى المرات بطناً

أصفر ومرقطاً.

راقبته وفكرت بأن حدود عالمه تنتهي بحدود هذه البركة، لكن ربما كانت تعني له هذه البركة أو حجر الماء هذا سويسرا، ألمانيا، فرنسا، أفريقيا، أو يوكوهاما.. هذه الدول كلها مجتمعة في بركة واحدة.. كان يطفو ثم يغوص بسلام منسجماً مع بدايات الماء.

غفوت لبضع ساعات في مخبئي ثم وقفت أُعد نفسي.. كنت حذراً جدًّا، لكن، بعد مضي عشر دقائق، ظهر أمامي موظف حدود وكأنه نبت من الأرض.

- مكانك، لا تتحرك.. ماذا تعمل هنا؟

شعرت بأنه راقبني لفترة طويلة، لم يُعِر إيضاحي بأنني مجرد سائح أي اهتمام.

- تستطيع أن تدلي بكل هذه المعلومات في نقطة الجمارك، وقادني أمامه مصوباً إلى ظهري فوهة رشاشه إلى القرية المجاورة. سِرتُ محطم الأوصال، متعباً لكنني، في إحدى زوايا دماغي، كنت يقظاً جدًّا، فكرت في محاولة للهرب ولكن بدا الأمر مستحيلاً؛ فموظف الحدود مؤمن بواجبه الإيمان كله. كان يسير على بعد عدة خطوات مني وبذلك لا يمكنني مباغتته ولا حتى الهروب منه لمسافة خمسة أمتار وإلا قام بإطلاق النار.

فتح في محطة الجمارك باب إحدى الغرف:

- ادخل وانتظر.

- وكم سيطول انتظاري؟

- إلى أن يتم استجوابك.

- ألا تستطيع أن تستجوبني أنت؟ إنني لم أقترف ذنباً لأعتقل من أجله.

- إذا كان الأمر هكذا فلا داعي للقلق.

- لست قلقاً.

- قلت ذلك وأنزلت الكيس من على ظهري ثم سألته:

- هل نبدأ الآن بالاستجواب؟

- سنبدأ عندما نريد نحن هذا.

قالها وكشف عن أسنان ناصعة البياض، تأملته.. إن شكله يوحي بأنه صياد.

- سيحضر الموظف المختص في صباح الغد. تستطيع أن تنام على هذه الأريكة، كما أنه لم يبقَ على الصباح إلا بعض السويعات. يحيا هتلر!

جلت بنظري في أرجاء الغرفة؛ فالنافذة مزودة بالقضبان الحديدية والباب موصد من الخارج وأنا لا أستطيع الفرار. سمعت أصواتاً في الخارج. جلست وانتظرت انتظار اليائس.. انتظرت إلى أن أصبحت السماء رمادية ثم تحولت إلى زرقاء. عدت أسمع أصواتا وشممت رائحة القهوة. فُتح الباب، تظاهرت بأنني استيقظت لتوي وأخذت أتثاءب. دخل الغرفة موظف جمارك، أحمر اللون، بدين ومظهره يوحي بالاسترخاء على غير مظهر الصياد من ليلة البارحة، قلت:

- أخيراً! إن هذه الأريكة غير مريحة للنوم.

- ماذا كنت تهدف من وجودك على الحدود؟

ثم أخذ يتفحص الكيس وتابع:

- هل أنت مهرب أم هل كنت تنوي الفرار؟

- لا يليق تهريب الثياب البالية، خاصة القمصان منها.

- حسناً.. ولكن ماذا كنت تبغي من وجودك ليلاً في تلك المنطقة؟

وضع الكيس جانباً، فكرت فجأة بالنقود التي كنت أحملها والتي ستكون نهايتي لو وجدوها وأخذت أبتهل بألا يقوم بتفتيشي.

أجبته ضاحكاً:

- كنت أريد مشاهدة نهر الراين في الليل، فلا تنسَ أنني سائح..

ورومانسي.

- من أين قدمت؟

ذكرت له اسمي، اسم البنسيون الذي أنزل فيه واسم المدينة التي قدمت منها.

- كنت سأغادر المدينة في صبيحة الغد عائداً إلى مدينتي. ما زالت حقائبي في البنسيون، كما أنني دفعت أجرة الغرفة مسبقاً، إن هذا لا يشير إلى كوني مهرباً.

- هكذا! سنقوم الآن بتقصي الأمور كلها. سوف أعود إليك بعد ساعة وأصطحبك إلى البنسيون، لنرى ماذا يوجد في حقائبك.

بدا لي الطريق إلى البنسيون طويلاً جدًّا، كما أن البدين لم يكن أقل يقظة من سلفه، كان يقظاً ككلب حراسة.. أمسك بدراجته ومشى إلى جانبها وأخذ يدخن.

- إنه هو! إنه مقبل.

علا صوت من خلال إحدى نوافذ البنسيون ولم تلبث أن وقفت مالكته أمامي وقد احمرت من شده الانفعال فشابهت الديك الرومي:

يا إلهي! ظننا جميعاً أنه أصابك مكروه.. أين أمضيت الليل؟

كانت المرأة قد اكتشفت، في صبيحة ذلك اليوم، فراشي الذي لم يُمس، وظنت أنني قُتلت، فهناك شخص يجوب المنطقة متخفياً ويسرق ما تمكن سرقته؛ لذا سارعت صاحبة البنسيون بإبلاغ الشرطة. وقف خلفها الشرطي وكان يشبه الصياد. أجبتها بهدوء شديد:

- أضعت الطريق.. كانت الليلة جميلة فنمت في العراء. إنها المرة الأولى منذ طفولتي التي أقضيها في العراء. كم كان الأمر جميلاً، لكنني آسف لتسببي في إزعاجك، كما أنني اقتربت من الحدود من دون معرفة أرجوك أن توضحي لموظف الجمارك أنني أقطن هنا.

قامت صاحبة البنسيون بما طلبت منها وأبدى موظف الجمارك

تفهماً، لكن الشرطي عاد ليسألني:

- من أين تأتي؟ هل قدمت من الحدود؟ هل لديك أوراق ثبوتية؟ من أنت؟

شعرت، لدقيقة واحدة، بأنني فقدت الهواء للتنفس؛ فالنقود من هيلين ما زالت في جواز السفر. لو اكتشفه لافتضح أمري ولظن أنني مزمع على تهريبها إلى سويسرا، وعندها سيلقي القبض عليَّ. أما ما يلي ذلك فهو أمر صعب التفكير والتكهن به.

ذكرت له اسمي، لكنني لم أبرز جواز سفري، فالألمان والنمساويون ليسوا بحاجة لإبراز جواز سفرهم داخل حدود بلدهم.

أجاب الشرطي:

- لكن من يستطيع أن يقنعنا بأنك لست اللص الذي نبحث عنه.

ضحكت.. رد عليَّ بغضب وبدأ بتفتيش حقائبي برفقة موظف الجمارك:

- إن الأمر لا يدعو للضحك.

تصرفت وكأن ما يحدث لي مجرد طرفة، لكنني لم أتوصل، حتى تلك اللحظة، إلى حل لإخفاء النقود، خاصة إذا فكرا بتفتيشي، قررت أن أبرر وجود النقود بأنني قدمت إلى هنا بقصد شراء بيت؛ حيث إنني مزمع للهجرة إلى هذه المنطقة.

وجد الموظف، لشدة دهشتي، رسالة في جيب الحقيبة الثانية، التي أحضرتها هيلين، فتح الشرطي الرسالة وبدأ بالقراءة، راقبته وتحفزت كل أعصابي وأصبحت كلي رجاء أن تكون رسالة قديمة ليست ذات أهمية.

ابتسم الموظف ورفع نظره إليَّ:

- هل اسمك جوزيف شفارتس؟

هززت رأسي بالموافقة.. سألني:

- لكن لماذا لم تخبرنا بذلك من قبل؟

- لقد أجبتك من قبل.

أجبته وحاولت أن أقرأ الرسالة المطبوعة من الخلف.. أكد موظف الشرطة:

- بالتأكيد.. لقد حاول أن يشرح لنا ذلك.

سألني الشرطي:

- الرسالة تعنيك إذاً.

مددت يدي، تمنع للحظة ثم أعطاني الرسالة وعندها رأيت العنوان المطبوع في أعلاها:

عنوان الحزب الاشتراكي القومي، فرع أوسنابروك.. ثم بدأت أقرأ ما ورد في الرسالة: إن فرع الحزب في أوسنابروك يطلب من الرفاق الحزبيين مساعدة الرفيق جوزيف شفارتس في مهمته السرية، أما التوقيع فكان باسم العميد جورج يورينز، لكنني تبينت خط هيلين.

احتفظت بالرسالة.. سألني الشرطي بكثير من الاحترام:

- هل صحيح ما ورد في الرسالة؟

أخرجت في تلك اللحظة جواز سفري، قلبت صفحاته وأشرت إلى اسمي المدون فيه ثم أعدته ثانية إلى جيب سترتي:

- إن مهمتي سرية.

- لهذا السبب إذاً؟

- نعم.. لهذا السبب.

قلت بجدية وأخفيت الرسالة في جيبي ثم تابعت:

- آمل أن يكفي ما علمته.

- بالطبع.. إنني أفهم الآن.. مهمة خاصة في مراقبة الحدود.. قالها مداعباً وغمز لي بعينيه الزرقاوين الشاحبتين.. رفعت يدي مهدداً:

- أطالبك بعدم التحدث عن هذا الأمر لأحد.. إنها مهمة سرية جدًّا؛ لذلك لم أستطِع البوح بها من قبل، لكنكم أصررتم على معرفة

سبب وجودي.. هل أنت رفيق في الحزب؟

- بالتأكيد.

أوضح الشرطي.. عندها فقط تنبهت إلى شعره الأحمر، ربت على كتفه المبللة بالعرق:

- إنني أحترم إخلاصكم لعملكم؛ لذلك أدعوكم الليلة لتناول كأس من النبيذ على حسابي لقاء جهودكم معي.

ابتسم لي شفارتس ابتسامة حزينة.

- إنه لعجيب حقًّا، كيف يستطيع المرء في بعض الأحيان أن يوقع بأشخاص يحتقرون عملهم؟! هل تعرضت لمثل هذه المواقف؟

- لكن لا يستطيع المرء ذلك إلا إذا كانت بحوزته أوراق من نوع خاص. إنني أجد نفسي ملزماً بأن أقدم احترامي لزوجتك التي تنبأت باحتياجك لمثل هذه الرسالة.

- ظنت ربما أنني لن أقبل الرسالة لو قدمتها لي، ربما من قبيل التمسك بأخلاقية معينة أو لظنها أنني سأرفضها لاعتبارها ورقة خطرة ولا أستطيع الاحتفاظ بها. إنني أرجح الفرضية الثانية أنني كنت سأقبلها لو عرضتها عليَّ فأنت ترى أنها كانت سبب نجاتي.

أخذت أستمع لشفارتس برغبة متزايدة. نظرت حولي فرأيت الدبلوماسيَين البريطاني والألماني قد توسطا حلبة الرقص، لكن كان من الواضح أن الدبلوماسي البريطاني هو الراقص الأفضل، أما الألماني فكان يحتاج إلى مساحة أوسع.. يرقص بعدوانية ظاهرة ويحرك رفيقته كما يحرك مدفعيته. تراءى لي فجأة وسط ذلك الظلام النصفي أن ما أراه أمامي ليس إلا رقعة شطرنج يتحرك عليها أشخاص أحياء، والملكان ليسا سوى الألماني والبريطاني، يقتربان في بعض الأحيان من بعضهما بعضاً اقتراباً مثيراً للفزع، لكن لا يلبث البريطاني من الابتعاد.. سألت شفارتس:

- ماذا فعلت بعد ذلك؟

- صعدت إلى غرفتي.. كنت متعباً وبحاجة لبعض الهدوء كي أستطيع التفكير بموضوعية. أنقذتني هيلين، على شكل غير متوقع، وبدت لي الحالة التي مررت بها وكأنها خدعة مسرحية، تحوِّل حالة مستعصية إلى نهاية سعيدة.

فكرت في أنه عليَّ أن أغادر المكان بسرعة، قبل أن يتحدث الشرطي إلى أحد أو قبل أن يفكر جديًّا في الأمر. قررت أن أثق بالحظ وأستغل وقوفه إلى جانبي.. استفسرت عن موعد سفر القطار المغادر إلى سويسرا ووجدت واحداً سيغادر بعد ساعة. أعلمت صاحبة البنسيون أنني ملزم بالمغادرة إلى سويسرا ليوم واحد فقط وطلبت منها الاحتفاظ بإحدى حقيبتيَّ. توجهت بعدها إلى محطة القطار، لكن هل تعرف هذا الشعور؟ كيف يتنازل المرء فجأة عن حذر سنين؟

- نعم! لكن في الغالب يخطئ المرء في ذلك. يظن المرء أن الحظ يطالبه بالثأر، لكنه في الواقع لا يطلب شيئاً.

- بالتأكيد.. المرء يشكك في مثل هذه الطرق بتقنيته المتبعة ويظن أن عليه اختلاق تقنية جديدة. أرادت هيلين أن أسافر معها ونغادر الحدود معاً، لم أكن يوماً لأقبل اقتراحها، لكنني وجدت أنني كنت سأهلك حتماً لولا ذكاؤها؛ لذا فكرت في أنه عليَّ الآن أن أتبع طريقة تفكيرها وأقوم بما اقترحته.

- هل قمت بذلك؟

حنى رأسه موافقاً:

- نعم، ذهبت إلى المحطة وابتعت بطاقة سفر في الدرجة الأولى، فالترف يوحي في الغالب بالثقة، ولم أفطن للنقود التي أحملها في جيبي إلا بعد أن تحرك القطار.

لم أستطِع إخفاءها في المقصورة لوجود ركاب غيري.. كان يجلس

في المقصورة رجل شاحب ومتوتر جدًّا.. ذهبت إلى المرحاض، لكنه كان موصداً. اقترب القطار من الحدود، واقتادني حسي الغريزي إلى قاطرة المطعم. جلست إلى إحدى الموائد وطلبت زجاجة نبيذ باهظة الثمن ووجبة طعام.

سألني النادل:

- هل لدى السيد أمتعة؟

- نعم.. في مقصورة الدرجة الأولى المجاورة.

- ألا يرغب السيد في إنهاء معاملات الجمارك ثم يعود بينما أحتفظ له بالمكان؟

- ما زال أمامنا المزيد من الوقت. ائتني بالطعام، فأنا أتضور جوعاً.. سأدفع الحساب مقدماً كي لا تظن أنني أنوي التهرب من الدفع.

لم يتحقق أملي في أن يتخطاني موظفو الجمارك لكوني أجلس في قاطرة الطعام. لم يكد النادل يأتيني بالنبيذ وطبق الحساء حتى دخل القاطرة موظفان ببزتين رسميتين. كنت خلال ذلك قد وضعت النقود التي في جيبي تحت غطاء الطاولة ووضعت رسالة هيلين في جواز السفر.

طلب مني الموظف بنبرة قاسية:

- جواز سفرك!

ناولته إياه.. فسألني قبل أن يتفحصه:

- ألا توجد لديك أمتعة.

- حقيبة يد فقط في مقصورة الدرجة الأولى المجاورة.

خاطبني الموظف الثاني:

- عليك أن تفتحها بنفسك لتفتيشها.

نهضت وخاطبت النادل:

- أرجو أن تحتفظ لي بالمكان.

- بالطبع، فالسيد سدد الحساب.

نظر إليّ موظف الجمارك الأول وسألني باستغراب:

- هل سددت الحساب مسبقاً؟

- بالطبع؛ لأنه يتطلب مني، بعد عبور الحدود، دفع ضريبة، وهذا يعني أن وجبة الغداء ستكلفني كثيراً، وأنا لا أستطيع تحمل الأمر ماديًّا؛ فأنا لا أحمل نقوداً كثيرة معي.

ضحك الموظف فجأة وقال:

- إنها فكرة رائعة! غريب أن المسافرين عادة لا يفطنون إلى هذه الحقيقة. تستطيع أن تسبقنا إلى المقصورة؛ لأننا سنقوم بتفتيش قاطرة الطعام أولا.

- وجواز سفري؟

- لا تخَف! سنعثر عليك بالتأكيد.

عدت إلى المقصورة فوجدت المسافر الآخر قد ازداد توتره عن ذي قبل. ازداد تعرقه وأخذ يمسح وجهه ويديه بقطعة قماش مبتلة. فتحت النافذة وحملقت بالمحطة: لا أمل يرجى من القفز وسيلقى عليَّ القبض في الأحوال كلها. لا مجال للفرار، لكن النافذة المفتوحة أعادت لي بعض الهدوء.

وقف الموظف الثاني في باب المقصورة وقال:

- أمتعتك!

أنزلت حقيبتي وفتحتها. نظر إلى داخلها ثم انبرم يفتش أمتعة رفيقي في المقصورة:

- حسناً.

ثم ألقى التحية وهمَّ بالانصراف.. سألته:

- لكن أين جواز سفري؟

- إنه بحوزة زميلي.

دخل المقصورة في تلك اللحظة زميله، موظف آخر غير الذي

شاهدته في قاطرة الطعام. بدا واضحاً من بزته أنه رفيق حزبي: نحيل، يلبس نظارة، وينتعل حذاء عالياً لامعاً.

ابتسم شفارتس:

- لا أظن أنه يوجد شعب مولع بالأحذية أكثر من الشعب الألماني.

أجبته:

- إنهم بحاجة للأحذية؛ فهم دائمو الوقوف في الوحل.

أفرغ شفارتس كأسه، لكنه شرب قليلاً في تلك الليلة.. نظرت إلى الساعة فوجدت عقاربها تشير إلى الثالثة والنصف صباحاً. تنبه شفارتس لذلك وقال:

- لن يطول حديثي كثيراً وسيبقى أمامك متسع من الوقت للوصول إلى السفينة وإنهاء أمور أخرى، أما الحديث الذي سأسرده عليك الآن فيتضمن زمن الحظ، وأنت تعلم أن المرء لا يستطيع التحدث عن الحظ كثيراً.

سألته:

- وكيف عبرت الحدود؟

- كان الرفيق الحزبي قد قرأ رسالة هيلين ثم أعاد لي جواز السفر وسألني إن كان لي رفاق في سويسرا.

هززت رأسي بالإيجاب..

السيدان روتربرغ وامير. كان هذان الاسمان معروفين في سويسرا لكل المهاجرين الموجودين هناك... كانا بالطبع مكروهين.

- وهل لك معارف آخرون؟

- الرفيق بيرن، وليس من الضروري تسميتهم جميعاً.. ألا توافقني الرأي؟

حياني تحية رفاقية..

حظًّا سعيداً.. يحيا هتلر!

لـم يكـن رفيـق سـفري سـعيداً مثلـي، كان عليـه أن يبـرز عدداً من الأوراق ويخضع لاستجواب دقيق. تعرق وتلعثم ولم أستطِع الاستمرار في النظر إليه مدة أطول؛ لذلك سألت الموظف:

- هل أستطيع العودة إلى قاطرة الطعام؟

أجابني الرفيق الحزبي:

- بكل تأكيد.. أتمنى لك شهية ممتازة.

وجـدت قاطـرة الطعـام قد امتلأت بالركاب واحتلت عائلة أمريكية الطاولة التي كنت أجلس عليها.

سألت النادل:

- لكن أين المكان الذي حجزته؟

رفع منكبيه:

- لم أستطِع منعهم، وماذا أستطيع التصرف إزاء الأمريكان؟

- إنهم لا يفهمون الألمانية ويجلسـون حيث يشـاؤون.. لماذا لا تجلس إلى المائدة الثانية؟ فلقد وضعت زجاجة النبيذ إليها.. وما الفرق بين هذه المائدة وغيرها؟

وقفت حائراً فيما سأفعله.. كانت العائلة التي احتلت الطاولة مرحة وجلست مكاني، وفي الزاوية التي خبأت فيها نقودي فتاة تقارب السادسة عشرة من العمر، جميلة وتحمل آلة تصوير. سيثير إصراري على استرجاع مكاني انتباه من في القاطرة وربما الموظفون أيضاً، ونحن ما زلنا نوجد على أرض ألمانية.

خاطبني النادل بينما كنت أقف حائراً:

- لماذا لا يجلس السيد إلى هذه المائدة ويعود إلى مكانه القديم عندما تفرغ العائلة من تناول طعامها فالأمريكان يلتهمون بسرعة عجيبة الساندويتشات وعصير البرتقال.. وعندها سأقدم لك الطعام.

- حسناً.

جلست إلى زاوية الطاولة بحيث أستطيع مراقبة النقود المخبأة. أمر غريب حقًّا: كنت قبل ذلك بدقيقة مستعدًّا للتنازل عن كل أموال العالم لقاء الانتهاء من موظفي الحدود بسلام، والآن أجلس ولا يشغلني أمرٌ سوى إمكانية استعادة النقود، وخيل لي أنني لو كنت في أثنائها داخل الحدود السويسرية لهجمت على العائلة الأمريكية واسترجعت نقودي.

نظرت إلى الخارج، فرأيت ذلك الرجل القصير، رفيق سفري، يهرول مسرعاً إلى القطار. أشفقت عليه وكأنني أحاول بهذه الشفقة المبتذلة رشوة الحظ، بينما ملأتني من الداخل سعادة حقيقية لكون المقاد شخصاً آخر وليس أنا. تملكني بعدها شعور بالاشمئزاز من ذاتي، لكنني وجدت نفسي غير مندفع لطرد هذا الشعور. أريد أن أنجو وأستعيد نقودي التي لا تغنني كونها نقوداً بل لأنه يكمن فيها قسط كبير من الأمان: هيلين وأشهر المستقبل المقبلة، لكنها تبقى في نهاية المطاف نقودا.. إنها تعني الحفاظ على سلامتي وعلى سعادتي الأنانية.. لن نستطيع الهروب أو التخلص منها، لكن علينا أن نحاول التحكم في هذا الشيء الذي يكمن في داخلنا ونبتعد عن التمثيل.

قاطعته:

- لكن يا سيد شفارتس، كيف استعدت نقودك؟

- أنت محق، ولا تنسَ أن هذه الكلمات الرنانة هي جزء من هذه التمثيلية. عاد موظفو الجمارك إلى قاطرة الطعام ووجدوا أن العائلة الأمريكية لديها الكثير من الأمتعة؛ لذا عليها أن تغادر قاطرة الطعام وتخضع أمتعتها للتفتيش.

ذهب الأطفال بعد أن فرغوا من تناول طعامهم. توجهت على الفور إلى الطاولة ووضعت يدي على غطاء الطاولة وتحسست رزمة النقود. سألني النادل بعد أن أحضر لي زجاجة النبيذ:

- هل أنهيت معاملات الجمارك؟

- بالطبع! والآن ائتني بالطعام. هل نحن الآن على أرض سويسرية؟

- ليس بعدُ، وسنصبح هناك عندما يبدأ القطار بالتحرك.

ذهب بينما أخذت أنتظر تحرك القطار. كانت هذه لحظة الصبر الأخيرة المسرعة التي تعرفها أنت أيضاً.. حملقت في رصيف المحطة ورأيت قزماً يلبس لباساً رسميًّا وبنطالاً قصيراً، يحاول إقناع بعض المسافرين - بإلحاح - لشراء ما لديه من النبيذ والشوكولاته المرصوفة على عربته المصنوعة من النيكل، ثم رأيت ذلك الرجل شديد التعرق عائداً إلى القطار وحده ومن دون مرافقة أحد الموظفين. تنبهت إلى صوت النادل وهو يقول:

- إنك رجل ذو نفس سريع.

- ماذا؟

- أعني أن السيد يجترع النبيذ بالسرعة التي يقوم بها رجال الإطفاء بعملهم. نظرت إلى الزجاجة فوجدتها قد قاربت على الانتهاء. شربتها دون وعي. اهتزت في تلك اللحظة قاطرة الطعام واهتزت معها الزجاجة، ثم مالت، لكنني التقطتها بسرعة قبل أن تقع.. بدأ القطار في التحرك.

- ائتني بزجاجة نبيذ ثانية.

اختفى النادل، أما أنا فأخرجت النقود من تحت غطاء الطاولة وأخفيتها في جيب سترتي ودخلت في تلك اللحظة العائلة الأميركية وجلست على الطاولة التي كنت أجلس عليها من قبل وطلبوا قهوة. أخذت الفتاة الشابة تلتقط صوراً فوتوغرافية للطبيعة التي كنا نمر بها. وجدتُ أنها محقة في التقاط الصور؛ فالطبيعة التي كنا نمر بها كانت أجمل المناطق الطبيعية في العالم.

عاد النادل يحمل الزجاجة:

- إننا الآن، من دون أدنى شك، على الأراضي السويسرية.

دفعت له ثمن الزجاجة وقدمت له بقشيشاً جيداً ثم قلت:

- احتفظ بالنبيذ، فلم أعد بحاجة إليه. كنت أريد أن أحتفل، لكنني أشعر بأن زجاجة واحدة وفت بالغرض.

أوضح لي النادل:

- لا تنسَ يا سيد أن السبب في ذلك هو اجتراعك السريع على معدة خاوية.

- إنه السبب بلا شك

ثم نهضت.. سألني النادل:

- هل يحتفل السيد بعيد ميلاده؟

- إنني احتفل باليوبيل.. اليوبيل الذهبي.

جلس الرجل القصير بصمت في المقصورة ولم يعد يتعرق، لكن كان واضحاً أن ثيابه مبتلة.. سألني بعد فترة صمت:

- هل نحن الآن في سويسرا؟

- نعم.

صمت ثانية ونظر من النافذة.. مررنا بالمحطة الأولى وكانت تحمل اسماً سويسريًّا. لوَّح موظف المحطة السويسري بينما كان يقف شرطيان سويسريان إلى جانب نافذة كشك لبيع بعض أنواع الشوكولاته والسجق السويسري. انحنى الرجل الجالس في المقصورة من النافذة وابتاع جريدة سويسرية ثم سأل البائع:

- هل هذه البلدة جزء من سويسرا؟

- بالتأكيد، وأي بلدة أخرى ستكون؟ عشرة سنتيمات.

- إليك السنتيمات ثمن الجريدة واحتفظ بالسنتيمات العشرة الباقية.

دفع الرجل السنتيمات وكأنه ربح جائزة الـ"يا نصيب" الكبرى.. النقود السويسرية. تصفح الجريدة ثم وضعها جانباً، مضت فترة طويلة قبل أن أستطيع فهم ما قاله، فلقد خدرني شعور الحرية الجديدة وأحسست بأن عجلات القطار تمر من وسط رأسي، تنبهت إليه وإلى

أنه يتكلم.. عندما رأيت شفتيه تتحركان بدأ الكلام وأخذ يحملق بي:

- ها نحن قد خرجنا أخيراً من بلدكم الملعون أيها الرفيق الحزبي! خرجنا من البلد الذي أحلتموه إلى ثكنة عسكرية وإلى معتقل تعذيب كبير أيها الخنازير! غادرنا بلدكم ونحن الآن في سويسرا، البلد الحر، الذي يرفض أن تلقوا أوامركم على أرضه. إننا الآن نستطيع أن نتفوه بلا خوف من أن تكسر أحذيتكم أسناننا. ماذا صنعتم بألمانيا أيها اللصوص والمجرمون، يا عبيد لذة التعذيب؟! حملق بي كما تحملق امرأة مجنونة بسلحفاة، بينما أحاطت زوايا فمه فقاعات صغيرة بيضاء.

من الواضح أنه ظنني رفيقاً حزبيًّا، وهذا متوقع بعد الذي سمعه من موظف الجمارك. استمعت إليه بهدوء عميق جدًّا.. لقد نجوت.. ثم خاطبته:

- إنك رجل جريء حقًّا، فأنا أزيدك حوالي عشرين كيلوجراماً وأطول منك بحوالي خمسة عشر سنتيمتراً، لكن ما عليك.. تكلم، فالكلام يريح.

- هل تسخر أيضاً؟

قالها واستشاط غضباً ثم تابع:

- إنك تريد أن تسخر أيضاً؟ إنني انتهيت منكم وللأبد، ماذا فعلتم بوالدي؟ وما الأذى الذي ألحقه والدي بكم؟ وها أنتم الآن تصرون على إشعال النار في العالم كله.

سألته:

- هل تظن أن الحرب مقبلة؟

- تتابع سخريتك وكأنك لا تعي ما يدور حولك! ماذا ستحصدون أيها الساخرون بإمبراطوريتكم ذات الألف عام وبأسلحتكم الآثمة أنتم يا من تخصَّص في القتل والتعذيب؟! بالطبع سينهار اقتصادكم الكاذب إذا لم تشعلوا الحرب، وبانهياره ستنهارون أنتم أيضاً.

- إن هذا رأيي أيضاً.

أحسست بدفء الشمس على وجهي، أحسست بها تداعبني، سألته:

- لكن ماذا لو انتصرت ألمانيا؟

حملق بي الرجل صاحب الثياب المتعرقة وبلع ريقه ثم أجاب بعناد:

- إذا كانت نهاية الحرب لصالح ألمانيا فهذا يعني عبث الإيمان بوجود الله.

- وهذا رأيي أيضاً.

ثم نهضت، فصاح مرافقي فجأة:

- لا تقترب مني، لا تلمسني، سوف أعتقلك وأستطيع أن أوقف القطار عن طريق سحب فرامل الخطر، سأقدم شكوى ضدك بتهمة الجاسوسية...

- إن الحديث الذي سمعته من قبل والذي دار بينك وبين موظف الجمارك يؤكد شكي.

- فكرت وقلت في نفسي إن هذه المشادة كانت تنقصني.

قلت له:

- لا تنسَ أن سويسرا بلد حر، وهذا يعني عدم الاعتقال عن طريق الوشاية. لكن ثق بأنني أحترمك؛ فأنا أيضاً تعلمت الكثير في الداخل.

حملت حقيبتي واتجهت إلى مقصورة ثانية؛ فأنا لا أريد الدخول في معركة أيضاً مع ذلك الرجل المجنون، كما أنني قررت الابتعاد من قبالته كي لا أثيره. الكراهية هي أحد أنواع الحوامض التي تتلف النفس، ولا يفرق هذا الحامض بين كره النفس لذاتها أو كره الآخرين لها. تعلمت هذا خلال تجوالي وهكذا وصلت إلى زيوريخ.

9

توقفت الموسيقى، للحظة، عن العزف، وتناهت إلينا أصوات غاضبة مقبلة من حلبة الرقص، لكن لم تلبث الفرقة الموسيقية أن عادت إلى العزف وباندفاع أكبر، وقد ظهرت امرأة بثوب أصفر طويل وزينت شعرها بعقد ماسي مزيف وبدأت بالغناء. لقد حدث ما كان متوقعاً: اصطدام أحد أفراد الجانب الألماني في أثناء الرقص بأحد أفراد الجانب البريطاني، وأخذ كل طرف يتهم الآخر بأنه تعمد ما حدث، بينما اتخذ مدير الحانة واثنان من الندل موقف عصبة الأمم، محاولين تهدئه الموقف، لكنهم كالعادة لم يتوصلوا إلى حل للنزاع بين الطرفين المتنازعين. كانت الفرقة الموسيقية أكثر ذكاء منهم: غيرت اللحن السابق واستبدلت به لحن تانجو، وهكذا لم يبقَ أمام الدبلوماسيين إلا خياران: إما أن يقفا وسط الحلبة ويتابعا الشجار، وهذا يعني السخرية، وإما أن يتابعا الرقص. كان من الواضح أن الجانب الألماني لا يفقه بأمور التانجو، بينما التفت الدبلوماسي البريطاني برشاقة إلى شريكته وانسابا معاً بانسجام مع اللحن. شجع اللحن العديد من الجالسين ولم تلبث أن امتلأت الحلبة بالراقصين واصطدم الواحد بالآخر. هنا تلاشى سبب خلاف الدبلوماسيين وانصرف الطرفان غاضبين كل إلى طاولته.

قال شفارتس بنبرة هادئة:

- مبارزة! لماذا لا يتبارز الأبطال!

أجبته:

- وماذا حدث بعد وصولك لزيوريخ؟

ابتسم ابتسامة واهنة:

- هل ترغب في أن نترك هذا المكان؟

- إلى أين؟

- لا بد من وجود بعض الحانات الشعبية التي تفتح أبوابها الليل بطولـه، أمـا هـذه فهـي أشـبه بالقبـر، يرقـص من في داخلـه ويلعب لعبة الحرب.

سـدد شـفارتس الحسـاب وسـأل النادل عن حانة أخرى، فدون له عنـوان إحداهـا علـى قطعـة ورق صغيـرة انتزعها من دفتر الحسـاب، ثم أوضح لنا شفويًا كيفية الوصول إليها.

خرجنا من باب الحانة لتستقبلنا ليلة جميلة: كانت النجوم ما زالت تبتسط السماء، لكن الصباح والبحر التقيا عند الأفق البعيد في حالة عناق زرقاء أولي. السماء لا تزال عالية مترفقة، لكن رائحة ملح البحر والورد عبقت بقوة أكثر من ذي قبل. سيكون اليوم المقبل يوماً صافياً.. إن لشبونة مدينة تتميز بمناخية مسـرح بدائي خلال النهار، تسـحر البشـر وتشـدهم إليها، أما في الليل فتصبح مدينة أسطورية تهبط ببطء بسلاسلها الحجرية وأضوائها المتلألئة إلى البحر كامرأة تزينت بكامل حليها، تنحني لتقبل حبيبها الأسمر.

وقفنا لفترة طويلة يلفنا الصمت ثم قال شفارتس بحزن:

- لقد تخيلنا الحياة يوماً جميلة على هذا الشكل.. أليس كذلك؟ تخيلناها بآلاف الأضواء والطرقات المؤدية إلى اللانهاية.

لم أجب، فلم تكن تعني الحياة بالنسبة لي في تلك اللحظة سوى السفينة الراسية في الميناء، وهي لن تبحر في طريق اللانهاية، بل ستبحر إلـى أمريـكا. لقـد تعبـت مـن المغامرة بعد أن رمانا بها الزمن، كما يرمي الواحد الآخر بالبيض الفاسد. أما الآن فتكمن لي قمة المغامرة في جواز سفر ساري المفعول: فيزا وبطاقة سفر.

وهكذا، وعلى الرغم من أن الرحلة هي ذاتها تتحول اليوميات إلى وهم سحري وتصبح المغامرة بلوى مضنية.

تابع شفارتس حديثه:

- بدت لي زيوريخ في ذلك الوقت تماماً كما تبدو لك لشبونة في هذه الليلة. هناك بدأ من جديد ما كنت موقناً من ضياعه في السابق. أنت تعلم أن الزمن ليس سوى إحدى نقاعيات الحياة التي تتسلل إلى داخلنا كالسم الذي لا خطر منه؛ يحيينا في البداية حتى إنه يبدأ في إقناعنا بأننا خالدون، لكن، مع كل نقطة منه؛ حيث تلي النقطة النقطة الأخرى، ويلي اليـوم اليـوم الآخـر، يتبـدل إلى حمض يحيل دماءنا إلى سـائل حزين ثم يتلفه. لو افترضنا أننا حاولنا، بالسنين المتبقية لنا، شراء واستعادة شبابنا فإننا لن نسـتطيع ذلك، فحمض الزمن يكون قد بدلنا، وسـندرك عندها أن المعادلة الكيماوية لم تبقَ على حالها، وعندها لا يمكن الوصول إلى ما نأمله إلا عن طريق المعجزة.. هناك في زيوريخ حدثت المعجزة.

ظل شفارتس واقفاً في مكانه يحملق في المدينة المتلألئة.

- كـم بـودي أن تتحـول هـذه الليلـة فـي ذاكرتـي إلى أسـعد ليالي عمـري؛ لأنهـا أكثـر ليلـة مروعـة، ألا تظـن أن الذاكرة تسـتطيع ذلك؟ لا بد أنها قادرة. المعجزة، حين يعيشـها المرء، تكون ناقصة، والذكريات، وحدها فقط، تعطيها الكمال، وعندما تموت السـعادة، لا يسـتطيع المرء تغيير الأشـياء، ولا يسـتطيع أن يخضعها لخيبة الأمل؛ فالذكريات تبقى متكاملة. لو أستطيع الآن استحلاف الذاكرة ألا تظن أنني سأطلب منها أن تبقي هذه الليلة في ذاكرتي كما أراها الآن.. ألا تظن أنها يجب أن تحيا في داخلي على هذا النحو ما دمتُ حيًّا؟

- بدا لي وكأنه من مهووسي القمر وهو يقف على عتبة ذلك الصباح المقبل بعظمته. بدا أمامه كشبح مقبل من الليل، شخص مسكين منسي. أحسست فجأة بألم حاد من أجله. قلت له برفق:

- إن ما تقوله صحيح! كيف نستطيع حقًّا معرفة إن كنا سعداء وما هو مقدار سعادتنا، ما دمنا لا نعرف ماذا سيبقى وأي شكل سيتخذ بقاؤه؟

همس شفارتس:

– نستطيع ذلك عندما نعلم أنه لا يمكننا التمسك به وأننا وفي قرارة أنفسنا لا نرغب في ذلك أيضاً.

كان ما زال ينظر إلى المدينة التي تحتوي على نعش من خشب الصنوبر في داخلها وسفينة رأسية في مينائها. تغيرت ملامح وجهه من شدة الحزن الذي في داخله، فبدا وكأنه استطال حتى وصل إلى خاصرته، لكن، بعد فترة، أخذت تعابير وجهه تكتسب معاني متحركة فلم يعد الفم كهفاً أسود ولا العينان حجرين صوانين.

هبطنا باتجاه الميناء.

– يا سيدي.

قالها بعد فترة ثم تابع:

– من نحن؟ من أنت؟ ومن أنا؟ من الآخرون؟ ومن هؤلاء الذين لم يعودوا موجودين؟ ما الحقيقة؟ هل هي صورة المرآة أم صورة الشخص الواقف أمامها؟ هل هي الإنسان الحي أم الذكريات: الصورة بلا ألم؟ هل انصهرنا معاً الآن: المتوفاة وأنا؟ هل أصبحت الآن ملكاً لي في عالم الكيمياء المروع هذا؛ حيث تجيب فقط عندما أسألها والجواب الذي أريد سماعه؟ ألم تنتهِ كجسد وبقيت مستمرة داخل جمجمتين؟ ألم تضِع مني وها أنا أضيعها أكثر وأكثر مع انطفاء كل لحظة من لحظات الذكريات؟ عليَّ أن أتمسك بها أيها السيد.. هل تفهمني؟

وضرب جبينه بقبضة يده.

وصلنا إلى طريق تؤدي سلالمه إلى أسفل الهضبة.. كان الطريق يوحي باحتفال أقيم في ساحة.. فلقد تدلت حبال من الورد الذابل والأضواء الكهربائية التي وصلت البيوت بعضها ببعض.. تدلت أزهار الزينة الذابلة، التي تذكر بورد المقابر، على عصي خشبية، وظهرت من بينها إجاصات ضوئية كبيرة.. لا شك أن هذه الزينة أُعدت لاحتفال ديني.

الآن، وبعد انتهاء الاحتفال، قبعت هذه الأزهار ذابلة مستهلكة في ظل ضوء الصباح.. أما أنوار الأضواء الكهربائية فبدت تائهة في ظل الضوء الذي يخلف الليل ويسبق الفجر.

- ها نحن قد وصلنا المكان.

دفع أمامه باباً، فوجدنا نفسينا وسط حانة مضاءة. استقبلنا رجل داكن اللون، قوي البنية، وأشار إلى طاولة.. نظرت حولي فرأيت العديد من براميل النبيذ ورجلاً وامرأة يجلسان ملتصقين..

- إن صاحب الحانة لا يستطيع تقديم شيء لزبائنه سوى النبيذ والسمك المقلي البارد.

سألني شفارتس:

- هل تعرف زيوريخ؟

- نعم، فلقد اعتقلتني الشرطة السويسرية فيها أربع مرات. السجون السويسرية جيدة وأجود بكثير من السجون الفرنسية، خاصة في فصل الشتاء. للأسف لا يسمح بالبقاء في هذه السجون أكثر من أسبوعين، وهذا أقصى حد، يبعد السجين بعدها وتبدأ رقصة الحدود من جديد.

قال شفارتس:

- حررني قراري بعبور الحدود من خلال الطريق الرسمي من الخوف؛ فلم أعد عبداً له ولم يعد قلبي يتوقف عن الخفقان لدى رؤيتي شرطيًّا في الشارع، بل بالعكس؛ فلقد كانت هذه اللحظات التي أقابل فيها شرطيًّا تعطيني صدمة خفيفة، لكنها من القوة بحيث تجعلني أعي، في اللحظة التي تليها، حريتي.

- تزداد عادة الرغبة في الحياة بحضور الخطر.. إنه إحساس عظيم عندما يحيا الخطر أفق الحياة.

نظر إليَّ شفارتس نظرة غامضة ثم قال:

- هل تظن ذلك حقًّا؟ لا، إن الأمر لا يقف عند هذا الحد؛ بل

يتعداه إلى أن يصل إلى نقطة ندعوها الخوف، لكنه لا يلبث أن يتخطاه أيضاً. هل ستكون هناك خسارة لو استطاع الإنسان التمسك بالأحاسيس؟ وهل تختفي مدينة إذا غادرها الإنسان؟ وهل تعيش مدينة دُمرت في داخل إنسان؟ هل يعرف أحد ما الموت؟ هل يعني الموت تلاشي نور من أمام أعيننا؟ وهل يعقل أنه كان لنا، قبل أن ندخل هذا العالم، وجه آخر سيبقى ويجب أن يبقى بعد الدمار المرحلي الذي ننتظره؟

تسللت قطة من بين أقدام الكرسي فرميت لها قطعة سمك. رفعت ذيلها ثم استدارت عائدة.

سألته بحذر:

- وهل التقيت زوجتك في زيوريخ؟

- التقيتها في الفندق واختفى في تلك اللحظة القهر كله، الانتظار، الألم، والإهانة التي شعرت بها في أوسنابروك. التقيت في زيوريخ امرأة لم أكن أعرفها لكنني أحبها وتربطني بها تسعة أعوام صامتة من الماضي، والتي لم تعد تقيدها سلطة التملك المروعة. لاحظت أن سموم الزمن أخمدت في داخل هيلين بعد اجتيازها الحدود. أصبح الماضي ملكاً لنا ولم نعد ملكاً له. تبدلت الصورة؛ فبدلاً من أن تهيمن علينا صورة الماضي الثقيل، كما هي العادة، استدارت وأصبحت مرآة تعكسنا ومن دون ارتباط بها. جعلنا قرارنا باجتثاث نفسينا منها نبتعد فعليًا عن كل ما مضى، وهكذا أصبح المستحيل حقيقة: إحساس جديد بالحياة بعيداً عن تجاعيد الماضي.

نظر إليَّ شفارتس وعاد ذلك التعبير الخاص يغطي وجهه ثم تابع:

- وهكذا استمر الحال بيننا، وكانت هيلين هي التي تسعى لتأكيد استمراريته. لم أكن أستطيع أنا إعطاء هذا الشعور استمراريته، لكن كان يكفي ما كانت تقوم به هيلين من أجل ذلك وعليها كان المعول. ألا تظن ذلك؟ أما الآن فقد جاء دوري في محاولة تأكيد استمراريتها، ولهذا

السبب أتحدث إليك، فقط لهذا السبب.

سألته:

- هل مكثتما في زيوريخ؟

- مكثنا أسبوعاً واحداً في تلك المدينة وفي ذلك البلد الوحيد في أوروبا الذي لم يكن بعدُ قد بدأ بالتزعزع. كان بحوزتنا مال يكفينا لعدة شهور، كما أن هيلين أحضرت حليها التي كنا نستطيع بيعها متى نشاء. أما أنا فكنت لا أزال مالكاً للوحات التي أورثني إياها شفارتس والتي كانت مخبأة في فرنسا.

صيف عام 1939! بدا هذا الصيف وكأن الله يريد به أن يري البشرية ما معنى السلام وماذا ستخسر بخسارته.. كانت الأيام تزخر برخاء ذلك الصيف، وبدت وكأنها من نسج الخيال، خاصة بعد أن غادرنا زيوريخ باتجاه الجنوب إلى بحيرة ماجورة.

تلقت هيلين رسائل ومكالمات من عائلتها؛ فلقد تركت لهم خبراً صغيراً: أنها عادت إلى سويسرا لمراجعة الطبيب. كان من السهل على عائلتها، في ظل نظام المخابرات الألمانية، أن تتعرف بسرعة على مكان إقامة هيلين، وهكذا خضعت لكثير من العتاب والأسئلة.. ما زالت أمامها إمكانية العودة، وعلينا الآن أن نقرر ذلك.

كنا ننزل في الفندق، لكن في غرفتين مستقلتين، نحن زوجان، لكن جواز سفر كل واحد منا يحمل اسماً يختلف عن الآخر، وبما أن الورقة هي المنتصرة دوماً، لم نستطِع أن نقيم في غرفة واحدة. كان هذا بالطبع موقفاً غريباً، لكنه عزز فينا الإحساس بأن الزمن عاد ليبدأ دورته من جديد. كنا - بحكم قانون ما - زوجين، وبحكم قانون آخر لا. البيئة الجديدة، الفراق الطويل، وهيلين التي تغيرت بعد وصولها.. هذه الأمور كلها خلقت حالة من اللاواقعية، لكنها، في الوقت ذاته، حالة واقعية مضيئة ومن دون ارتباط، تسبح في ذيولها آخر خطوط حلم صبياني لم

تعد تستطيع تذكره. لم أكن أعي في تلك الفترة كيف حدثت الأمور، لكنني أخذت أتقبلها كهدية غير منتظرة وكأن القدر سمح لي باستعادة جزء من وجودي سيئ الطالع واستبدال حياة جميلة به - تحولت من خلد أمضى حياته مختبئاً في تلول الحدود إلى طائر لا تعوقه الحدود.

التقيت في صباح أحد الأيام - عندما كنت ذاهباً إلى هيلين لاصطحابها - رجلاً يدعى "كراوزة" قدمته هيلين على أنه أحد موظفي القنصلية الألمانية وخاطبتني منذ دخولي الباب بالفرنسية وقدمتني للسيد تحت اسم "لينوار". لم يفهم الرجل كلامها كله، وسألني بلغة فرنسية سيئة إذا كنت أنا ابن الرسام المشهور رينوار!

ضحكت هيلين ثم أوضحت:

- السيد لينوار من جنيف، لكنه يتكلم الألمانية أيضاً، ولا يربطه برينوار إلا إعجاب كبير.

سألني كراوزة:

- هل تحب اللوحات الانطباعية؟

قالت هيلين:

- إنه يمتلك بعضها.

أجبت:

- نعم، فأنا أمتلك بعضها.

ذكرت ذلك منوهاً باللوحات التي ورثتها عن المتوفى شفارتس، متبعاً بذلك طيش زوجتي الجديد، شاركتها لعبتها بعد أن تذكرت أن إحدى قفزاتها البهلوانية أنقذتني يوماً من معتقلات التعذيب.

سألني كراوزة بطريقة مصطنعة بتحببها الزائد:

- هل شاهدت مجموعة أوسكار راينهارت في فينترتور؟

- إن راينهارت يحتوي أيضاً على لوحة لفان جوخ.. إنني مستعد أن أعطي شهراً كاملاً من عمري مقابل الحصول عليها.

سألتني هيلين:

- أي شهر تقصد؟

ثم سأل كراوزة:

- وأي لوحة لفان جوخ؟

- لوحة حديقة مستشفى المجانين.

ابتسم كراوزة:

- لوحة رائعة!

ثم أخذ يتحدث عن لوحات أخرى.. تعرض للحديث عن اللوفر، فدخلت معه في حوار مفصل والشكر يعود للمتوفى شفارتس.. عندها فهمت تكتيك هيلين: أرادت أن تبعد عني أي شبهة كوني زوجها أو مهاجراً؛ فالملحقيات الألمانية لها طرقها الخاصة في التأثير على شرطة الأجانب.

لاحظت أن كراوزة يحاول التعرف على نوعية العلاقة التي تربطني بهيلين التي أحست بذلك أيضاً؛ لذا حاولت أن تمهد له الجواب وقبل أن يحاول طرح السؤال وبطريقتها زوجتني لامرأة تدعى لوسي وأكسبتني طفلين، مؤكدة أن ابنتي الكبرى عازفة بيانو ماهرة.

أخذت عينا هيلين تنتقلان بسرعة بيننا، نحن الاثنين. أما هو فاغتنم فرصة هذا الحديث ليدعونا إلى عشاء في أحد مطاعم السمك الصغيرة الممتدة على شاطئ البحيرة معللاً دعوته:

- من الصعب أن يلتقي المرء أشخاصاً واسعي الثقافة، خاصة بما يتعلق باللوحات الفنية.

وافقت على دعوته بحرارة، مؤكداً أنني سأتقبلها في زيارتي المقبلة لسويسرا، وهذا لن يكون قبل أربعة أو ستة أسابيع. فوجئ لدى سماعه قولي؛ لأنه اعتقد أنني من سكان جنيف.

أوضحت له أنني في الأصل من جنيف، لكنني أعيش في بلفورت،

المدينة الصغيرة في فرنسا، التي من الصعب عليه تقصي الحقيقة فيها. لم يستطع كبح سؤاله الأخير عن الوداع، وهو كيف التقينا - هيلين وأنا - لأنه من الصعب أن يصادف المرء شخصين لطيفين.

نظرت إليَّ هيلين:

- التقينا عند الطبيب يا سيد كراوزة، فأنت بلا شك تعلم أن المرضى ألطف من...

ابتسمت له ابتسامة خبيثة وتابعت:

- من هؤلاء الذين يتفتقون صحة والذين تنمو لديهم العضلات على حساب الأعصاب.

تقبل كراوزة هذه النهاية بنظرة متفهمة:

- إنني متفهم يا سيدتي.

سألته كي لا أبقى في ظل هيلين:

- ألم يوضع رينوار في بلدكم على لائحة الفن المنحط، كما أن فان جوخ من ضمن هذه اللائحة أيضاً؟

- الأمر يختلف بالنسبة لنا نحن متذوقي الفن.

ثم انسل من الباب إلى الخارج.

سألت هيلين:

- ماذا يريد هذا الرجل؟

- التجسس! حاولت أن أنذرك، لكنك كنت قد غادرت غرفتك.. أخي هو الذي أرسله.

- كم أمقت هذه الأمور كلها!

تخطت يد الجستابو الحدود ولامستنا، كي تذكرنا بأننا لم ننجُ بعدُ من قبضتها. نصح كراوزة هيلين بأن تزور القنصلية بين الحين والآخر، ليس بغية شيء، لكن للتوقيع على جواز سفرها. إن هذه - على حد زعمه - إجراءات جديدة وتحل مكان إذن الخروج.

أوضحت هيلين:

- إنه يزعم أن هذه هي التعليمات الأخيرة التي وصلتهم.

أجبتها:

- إنه يكذب، وإلا لعرفت بهذه الإجراءات؛ فالفارون يعرفون بهذه الأمور في الحال. ربما كانت هذه خدعة للاحتفاظ بجواز سفرك.

- عندها أصبح من عداد الفارين مثلك؟

- نعم، إن لم تعودي للمطالبة به.

- سوف أبقى هنا، لن أذهب إلى القنصلية ولن أعود.

لم يسبق لنا أن تحدثنا بهذا الأمر وما قالته هيلين الآن يعني: الفرار. لم أجب، بل نظرت إليها فقط.

رأيت من خلفها السماء وأشجار الحديقة وشريطاً ضيقاً لامعاً من صفحة ماء البحيرة. بدا وجهها داكناً وسط تلك الأضواء الكثيرة.

قالت كمن نفد صبره:

- إنك لست المسؤول عن قراري، ولم تحاول أن تقنعني يوماً بذلك. كما أنه ليس لقراري علاقة بك؛ فأنا لن أعود حتى لو لم تكن أنت هنا.. هل هذا يكفي؟

- نعم.

أجبتها تحت تأثير المفاجأة بشيء من الخجل:

- لكنني لم أعنِ ذلك.

- أعرف يا جوزيف؛ لذا دعنا نكف عن الحديث حوله.. الآن وفي المستقبل أيضاً.

قلت:

- لكن كراوزة سيعود أو أنهم سيرسلون رجلاً آخر.

- وعندها سيحاولون معرفة من أنت وسيلقون علينا المتاعب. دعنا نغادر إلى الجنوب.

- لا نستطيع الذهاب إلى إيطاليا؛ فالجستابو صديق حميم لشرطة موسوليني.

- ألا يوجد جنوب آخر؟

- بلى، تيسين سويسرا، لوكارنو ولوجانو.

غادرنا زيوريخ بعد ظهر ذلك اليوم وجلسنا بعد مضي خمس ساعات على شواطئ أسكونا أمام مقهى سفنسيرا. كنا في الحقيقة نبعد مسافة خمسين ساعة عن زيوريخ وليس خمس ساعات. الطبيعة إيطالية والمدينة تعج بالسياح. بدت الجموع وكأنها لا تفكر بشيء سوى السباحة، الاستلقاء في أشعة الشمس واقتناص ما يمكن اقتناصه من الحياة.. كانت مناخية أوروبا غريبة في تلك الشهور، هل تذكرها؟

- نعم، كان الجميع يعيش أمل حدوث معجزة في إبرام اتفاقية ميونيخ ثانية وثالثة.

كان غسقا: تلك الحالة ما بين النور والظلمة، تحتوي بداخلها على الأمل واليأس، وبدا كأن الزمن يكتم أنفاسه ويرمي ظله في إطار شفاف وغير واقعي، ظل الخطر المحدق، كان ذلك الوقت أشبه بشهاب لامع مقبل من العهود الوسطى، يقف جنباً إلى جنب مع الشمس وسط سماء ساطعة: كل شيء مهلهل وكل شيء متوقع حدوثه.

سألته:

- متى عدت إلى فرنسا؟

- سؤالك محق! كانت كل المحطات التي توقفت بها مجرد محطات مؤقتة، بينما تبقى فرنسا وطن المشردين المضطرب والطرق كلها تؤدي إليها. تلقت هيلين، بعد رحيلنا من زيوريخ بأسبوع، رسالة من كراوزة يطلب فيها منها أن تراجع القنصلية في زيوريخ أو لوجانو لأمر في غاية الأهمية. تأكدنا بعد وصول الرسالة أنه علينا مغادرة المكان؛ فسويسرا بلد صغير منظم جدًّا؛ لذا يسهل العثور علينا بسرعة، كما أنني

أصبحت أعيش في خطر أن يقبض عليَّ ويدقق في جواز سفري؛ وهذا يعني إبعاداً قسريًا. سافرنا إلى لوجانو وتوجهنا إلى القنصلية الفرنسية بدلاً من الألمانية للحصول على فيزا لفرنسا. توقعت أن تصادفني متاعب كثيرة، لكن الأمور سارت على أسهل مما توقعته، وحصلنا على فيزا سياحية لسنة كاملة، بينما توقعتها لثلاثة أشهر فقط.

سألتني هيلين:

- متى سنرحل؟

- غداً.

تناولنا في الليلة الأخيرة طعام العشاء في حديقة قلعة البرج في قرية كأنها عش الحساسين، معلقة على كتف الجبال المطلة على البحيرة. كانت الريح تنساب من بين الأشجار كانسياب الخطوط الشعاعية، وتسللت القطط بخفة على السلاسل، بينما عبقت رائحة الورد والياسمين البري المتدلي على حافة الشرفة. قبعت الجزر الصغيرة وسط تلك البحيرة، ويقال إن معبد فينوس بُني على إحداها.. أحاطتنا الجبال الزرقاء كالكوبالت بصمت.. جلسنا وتناولنا الاسباغيتي وشربنا النبيذ الأحمر المخمر في أديرة رهبان تلك المنطقة.. كانت تلك الليلة صعبة الاحتمال من شدة حلاوتها وكآبتها أيضاً.

قالت هيلين:

- من المؤسف حقًا أن نغادر هذا المكان؛ فأنا أتمنى تمضية صيف كامل في ربوعه.

- ستقولين هذا مراراً.

- هل يوجد قول أجمل من هذا؟ فكم من مرة قلت العكس!

- ماذا؟

- كنت في السابق أردد: من المؤسف أن أبقى هنا.

أمسكتها من يدها.. كانت بشرتها بنية ملوحة وزادت شدة زرقة

عينيها.. لم تحتَج إلى أكثر من يومين لاكتساب هذا اللون.

قلت:

- أحبك كثيراً، أحبك وأحب هذه اللحظة وهذا الصيف الذي لن يدوم.. أحب هذه الطبيعة وهذا الفراق.. وأحب، لأول مرة في حياتي، ذاتي؛ لأنني أشعر بأنني مرآة أستطيع أن أعكسك في داخلي، وهكذا أقدر أن أحتضنك مرتين وفي آن واحد.. ليتبارك هذا المساء ولتتبارك هذه الساعة.

- لتتبارك جميع الأشياء! دعنا نشرب نخبها ولتتبارك أنت؛ لأنك أصبحت تجرؤ على قول أشياء كنت في السابق تحمر خجلاً من ذكرها.

- إنني ما زلت محمرًّا خجلاً، لكنه احمرار داخلي ومن دون خجل..

أمهليني بعض الوقت؛ فعلي أن أعتاد الأشياء.. حتى اليسروع يحتاج لبعض الوقت كي يكتشف أن له أجنحة عندما يخرج من جحره المظلم إلى النور. ما أسعد البشر هنا! وكم هو عذب أريج الياسمين البري! قالت النادلة إنه توجد هنا أحراش كاملة ملأى بهذا الياسمين.

شربنا النبيذ وسرنا عبر الأزقة الضيقة متجهين إلى الأعلى، إلى الطريق المؤدي إلى أسكونا. تداخلت قبور أسكونا بالشارع، التي أثقلت بورودها وصلبانها. الجنوب فاتن مُغرٍ، يمسح الفكر المتحجر ويتوج الخيال ملكاً؛ فالخيال يحتاج إلى مساعدة أقل وهو بين النخيل منه وبين منتعلي الأحذية وقاطني الثكنات. كانت السماء كراية كبيرة ترفرف فوقنا وأخذت نجومها تتزايد كل دقيقة وكأنها راية أمريكا تتسع وتتسع لتغطي الكون.. أخذ طريق أسكونا الرئيسي يتلألأ بأضواء مقاهيه متجهاً إلى البحيرة وهبت ريح خفيفة مقبلة من الوديان.

وصلنا إلى البيت الذي كنا قد استأجرناه، الواقع بمحاذاة البحيرة؛ له غرفتان للنوم، وهذا النمط اعتراف واضح بالأخلاقية السائدة في تلك

المنطقة.

سألتني هيلين:

- كم هو الوقت الذي تبقى لنا من الحياة؟

- تبقى لنا سنة إن كنا حذرين، وإن كثّفنا الحذر فستزيد المدة نصف عام..

- وإذا عشنا من دون حذر؟

- عندها تنتهي حياتنا بانتهاء هذا الصيف.

أجابت فجأة بحدة:

- لكن الصيف قصير.

- نعم، الصيف قصير والحياة قصيرة أيضاً، لكن ما أهمية قِصرها؟ فما نعرفه عن قصرها تعرفه القطط في الخارج، لكن هل تعرف الطيور والفراشات هذه الحقيقة؟ إنها بلا شك تظنها خالدة فلم يخبرها أحدٌ بالحقيقة.. لماذا أبلغنا نحن فقط بهذه الحقيقة؟

- هناك العديد من الأجوبة عن سؤالك.

- أعطني جواباً واحداً.

كنا نقف وسط الغرفة مشرعة الأبواب والنوافذ:

- الحياة ستصبح غير محتملة لو اتسمت بالأبدية: هذا أحد الأجوبة.

- هل تعني أنها تصبح مملة كما هو الإله أيضاً؟ إن ما تقوله ليس صحيحاً أعطني جواباً آخر.

- لأن التعاسة في الحياة أكثر بكثير من السعادة؛ لذا فعدم أبديتها رحمة كبيرة.

صمتت هيلين فترة ثم قالت:

- كل ما تقوله ليس له علاقة بالحقيقة.. إننا نحاول - بقولنا هذا - تبرير الحقيقة بعدم بقائنا وعدم قدرتنا على التمسك بالحياة.. لا علاقة للرحمة بذلك.. إننا نوجد الرحمة كي تعطينا الأمل.

سألتها:

- ألا نؤمن بها على الرغم من عدم وجودها؟

- إنني لا أؤمن بها.

- حتى ولا بالأمل؟

- لا أؤمن بشيء.. والكل سيأخذ دوره يوماً.

ثم رمت ثيابها على السرير بعصبية:

- الجميع سيكونون في الصف في انتظار دورهم.. حتى المعتقل منهم، ولو هرب فدوره لا بد مقبل.

- وهذا بالذات ما يتأمله.. إنه يسعى باستمرار في ظل هذا الأمل.

- نعم.. الأمل! هو الشيء الوحيد الذي نستطيع فعله، كما هو حال البشرية تجاه الحرب: تأمل في مرة مقبلة، لكنها لا تستطيع القيام بعمل حياله.

- ربما استطاعت البشرية قهره، لكنها لن تستطيع قهر الموت.

صاحت:

- لا تهزأ.

اقتربت منها فابتعدت عني وخرجت مسرعة إلى العراء.

سألتها متعجباً:

- ماذا بك يا هيلين؟

كان الضوء في الخارج أقوى مما عليه في الداخل ورأيت وجهها وقد ملأته الدموع. لم تُجِب هي ولم ألح أنا في السؤال.

عادت للحديث بعد فترة صمت:

- إنني ثملة، ألا ترى ذلك؟

- نعم.

- لقد شربت الكثير من النبيذ.

- ربما شربت القليل منه.. لدينا زجاجة نبيذ ثانية.

وضعت الزجاجة على طاولة حجرية مقامة في حديقة البيت الخلفية، ودخلت المنزل لأحضر كأسين، لكنني رأيت هيلين عندما عدت، تهبط المنحدر باتجاه البحيرة. لم أتبعها على الفور وملأت الكأسين.. بدا النبيذ قاتماً بين السماء والبحيرة. سرت باتجاه النخيل المحاذي للشاطئ. قلقت بشأن هيلين، وما إن وجدتها حتى تنفست الصعداء. كانت تقف على الشاطئ ناظرة باتجاه الماء.. كانت وقفة سلبية، غريبة، منحنية، ناظرة باتجاه الكتفين وكأنها في حالة انتظار صوت أو أي شيء سيخرج إليها من الماء.. وقفت صامتاً ليس بغية مراقبتها بل كي لا أخيفها. تنفست بعد فترة نفساً عميقاً.. عدلت من وقفتها ثم خطت باتجاه الماء.

عدت إلى المنزل لأحضر منشفة وثوب البحر بعد أن رأيتها تسبح في الماء ثم عدت وجلست على كتلة جرانيتية وأخذت أنتظرها. رأيت رأسها بشعرها المعقوص إلى أعلى والذي بدا صغيراً جدًّا وسط الماء، وفكرت: إنها كل ما أملك، وتمنيت لو استطعت الصراخ لأقول لها: عودي! لكنني تأكدت في تلك اللحظة أيضاً أنها تنهي صراعاً أجهله في داخلها؛ فالماء يعني لها القدر: السؤال والجواب. عليها الآن أن تنهي صراعها بمفردها كما ينهيه أي فرد مع ذاته.

أما القليل الذي يستطيع المرء تقديمه في مثل هذه الحالة فهو أن يكون موجوداً كي يعطي هذا الشخص بعض الدفء.

سبحت هيلين على شكل قوس إلى البعيد ثم استدارت وعادت بخط مستقيم في اتجاهي. كم كان شعوراً مبشراً أن أراها عائدة: لوحة راقصة، الأفق بلونه الأرجواني وأمامه ذلك الرأس الأسود الصغير يقترب تدريجيًّا ثم يرتفع جسدها من الماء ويظهر نحيلاً ثم يسرع إليَّ.

- الماء بارد وغامض.. قالت لي الفتاة التي تقوم بتنظيف المنزل: إن هناك عفريتاً يعيش في قعر البحيرة.

- لا تصدقي هذا الكلام؛ فأكبر سمك في هذه البحيرة هو سمك الكركي.

قلت ذلك ثم لففتها بالمنشفة وتابعت:

- لا توجد هنا عفاريت.. إنها توجد في ألمانيا فقط عام 1933... الماء كله يصبح غامضاً ومخيفاً في أثناء الليل.

قالت هيلين:

- إذا كنا نستطيع أن نتخيل وجود العفاريت، فلا بد من وجودها فعلاً. لا أظننا نستطيع تخيل أشياء لا وجود لها.

- وهذا يعني اعترافاً واضحاً بوجود الإله!

- ألا تؤمن أنت بوجوده؟

- إنني أؤمن بوجود كل شيء في هذه الليلة.

التصقت بي.. أسقطت المنشفة وألبستها ثوب البحر.

سألتني:

- هل تؤمن بأننا نحيا عدة مرات وليس مرة واحدة فقط؟

أجبتها ومن دون تردد:

- نعم.

تنهدت:

- حمداً لله؛ فأنا لست الآن في حالة تسمح لي بدخول جدال.. إنني أشعر بالبرد وبتعب يمنعني من الدخول في جدال.. إنني متعبة.

من الغريب أننا نسينا أن هذه البحيرة تقع وسط جبال شاهقة. كنت قد ابتعت - إلى جانب زجاجة النبيذ - زجاجة "غرابا" وهو مشروب ثقيل يقابل المارك في فرنسا: ذو نكهة متميزة وشديد الفعالية، إنه المشروب الأنسب لمثل هذه اللحظات.

أخرجت الزجاجة وصببت لها منه كأساً كبيرة. شربت ببطء ثم قالت:

- إنني أغادر هذا المكان مرغمة.

- ستنسين في الغد ما قلته الآن، فنحن ذاهبان إلى باريس.. إنكِ لا تعرفينها، لكنها أجمل مدن العالم.

- إن أجمل مدينة في العالم هي التي يشعر فيها المرء بالسعادة. هل تظن أن ما قلته مجرد عبارة مبتذلة؟

ضحكت.

- إلى الجحيم بكل الحذر في انتقاء الكلمات، تنقصنا العبارات المبتذلة، خاصة الشبيهة بجملتك.. هل تأخذين كأساً ثانية؟

أومأت بالإيجاب ودخلت البيت ثانية لأحضر لي كأساً. جلسنا إلى جانب تلك المنضدة الحجرية وسط الحديقة حتى داهمها النعاس.. أخذتها إلى سريرها ونامت إلى جانبي، أما أنا فنظرت إلى الحديقة التي أخذت تتحول ببطء إلى زرقاء ثم فضية. استفاقت هيلين بعد ساعة وذهبت إلى المطبخ لتحضر ماء ثم عادت تحمل رسالة وصلت خلال وجودنا في رونكو. لم ننتبه إلى الرسالة لأنها ألقيت في الغرفة الثانية.

قالت:

- إنها من مارتينس.

قرأتها ووضعتها جانباً. سألتها:

- هل يعرف بوجودك هنا؟

- إنه الذي أوضح لعائلتي أنني قصدت سويسرا بإيعاز منه للقيام ببعض الفحوصات التي تتطلب بضعة أسابيع.

- هل كنت تقصدينه كمريضة؟

- بين الحين والآخر.

- لمعالجة ماذا؟

قالت:

- ليس الأمر بذي أهمية.

ثم وضعت الرسالة في حقيبة يدها ولم تعطني إياها لقراءتها.

سألتها:

- لكن من أين جاءتك هذه الندبة؟

كان هناك خيط رفيع أبيض فوق معدتها.. لاحظت هذه الندبة من قبل، لكنها ظهرت الآن بوضوح أكثر.

عملية جراحية صغيرة.. الأمر لا يستحق الذكر.

- وما نوع هذه العملية؟

- واحدة من اللاتي لا تحب النساء التحدث عنهن.

أطفأت النور وهمست:

- إن قرارك في العودة لاصطحابي قرار رائع؛ فلقد أصبحت حياتي هناك لا تطاق.. ضمني.. قبلني.. ولا تسألني عن شيء.. أبداً.

10

قال شفارتس:

- السعادة! كيف تتقلص في الذاكرة كتقلص قماش رخيص حين غسله؟ أما سوء الطالع فيصر على بقائه. وصلنا باريس وعثرنا على غرفة في فندق صغير يقع على ضفة السين اليسرى في شارع أوغستين. كان الفندق يفتقر إلى مصعد كهربائي وبان القدم على سلالمه المتعرجة، أما الغرف فكانت صغيرة وضيقة، لكنها تحمل ميزة إطلالتها على السين وعلى المكتبات ونوتردام.

كان في حوزتنا جوازا سفر، وهذا يعني الحياة حتى نهاية سبتمبر 1939.

عشنا كبشر حقيقيين حتى سبتمبر، ولم يكن يزعجنا إن كان جوازا سفرنا حقيقيين أو مزيفين، أما فيما بعدُ، وعندما بدأت الحرب الباردة، اختلفت الأشياء، ولم تعد الأمور سيان بالنسبة لنا.

سألتني هيلين بعد وصولنا إلى باريس بعدة أيام، وكان ذلك في شهر يوليو:

- ممَّ كنت تعيش خلال إقامتك هنا؟ هل سُمح لك بالعمل؟

- بالطبع لا.. لم يُسمح لي بالوجود، فكيف يُسمح لي بالعمل؟

- لكن من أين كنت تنفق على نفسك؟

أجبتها بصدق:

- لم أعد أذكر.. عملت في مهن مختلفة، وفي الغالب لفترات قصيرة. الأمور في فرنسا لا تخضع للدقة التي نعرفها، وهنالك العديد من الفرص للعمل غير المشروع، خاصة إذا كان هناك الاستعداد للعمل وبسعر بخس. عملت لنقل الصناديق في سانت هال، عملت نادلاً،

تاجرت بالجوارب والقمصان والكرافاتات، أعطيت دروساً خاصة في الألمانية، كنت أحصل بين الحين والآخر على دعم مادي بسيط من رابطة المهجرين، بعت كل ما أملك، عملت سائقاً وكنت أكتب في بعض الأحيان مقالات قصيرة لبعض الجرائد في سويسرا.

- ألا يمكنك أن تعود إلى عملك كمحرر مرة ثانية؟

- نعم. فهذا العمل يتطلب إقامة وإذن عمل.. كان آخر عمل قمت به ككاتب عناوين وبعدها جاء شفارتس وبدأت معه حياتي المشكوك بها؟

- ولماذا المشكوك بها؟

- لأنها حياة عرضية، متخفية تحت حماية رجل متوفى واسم غريب.

- كم أتمنى لو تعطي حياتك هذه اسماً آخر.

- نستطيع أن نسميها بالاسم الذي يحلو لنا: حياة مزدوجة، حياة محمية أو حياة ثانية. إنني أفضل الاسم الأخير، فإنني أنظر إليها كحياة ثانية.. إننا نشبه الناجين من سفينة محطمة، أضاعوا ذاكرتهم؛ لذلك فهم لا يندمون على شيء، فالذكريات غالباً ما تحمل بين طياتها الندم: الندم من عدم الاحتفاظ بالأشياء الجيدة وإباحتها، والندم على عدم القدرة على تصحيح الأخطاء.

ضحكت هيلين:

- ماذا نحن؟ هل نحن مراوغون، أموات أم أشباح؟

- إننا سياح من وجهة النظر القانونية، نستطيع العمل هنا، لكن من دون إذن عمل.

- حسناً؛ لذا دعنا نعِش بلا عمل.. لنذهب إلى حديقة السانت لويس، نجلس على أحد المقاعد هناك ونتنعم بأشعة الشمس ثم نذهب بعدها إلى مقهى فرنسي ونتناول الغداء على أحد أكشاك الرصيف.. ما رأيك في هذا البرنامج؟

- إنه برنامج جيد بلا شك.

اتبعنا خطوات هذا البرنامج ولم أجهد نفسي في البحث عن عمل. كنا نمضي أيامنا معاً من الصباح الباكر وحتى صباح اليوم التالي، أسبوعاً بعد أسبوع.

كان الوقت يمر في الخارج بجرائده، تحذيراته، وجلساته الخاصة، لكنه لم يستطِع النفاذ إلى داخلنا. كنا نعيش بعيداً عنه وأصبح مُلغًى بالنسبة لنا. ماذا حل مكانه؟ الأبدية! عندما تملأ الأحاسيس المرء لا يبقى مكان للوقت.. وصلنا إلى شاطئ آخر، الجانب الآخر للزمن.. ألا تؤمن بذلك؟

عاد وجه شفارتس ليكتسب تلك المعاني اليائسة المكثفة التي رأيتها من قبل.. سألني بإصرار:

- ألا تظن ذلك؟

- كنت متعباً وأحسست أن صبري قد نفد، ورغماً عني أصبح الكلام عن الحظ والسعادة لا يمتعني تماماً كتصورات شفارتس عن الأبدية.

أجبته وأنا شارد الذهن.

- لا أعلم: ربما كانت لحظة الحظ والأبدية هي التي يموت فيها الإنسان، وعندها لا يستطيع الزمن أن يبرز مفكرته ويقبل بالواقع، لكن عندما تستمر الحياة فلا يمكن تخطي الزمن، فكل لحظة من الحياة تعني قطعة من الزمن والزوال.

قال شفارتس فجأة بحدة:

- يجب ألا تموت، بل عليها أن تتوقف كتمثال من المرمر وليس كقلعة من الرمل تصغر كلما هبت من فوقها الرياح.. ماذا سيحدث لأمواتنا الذين نحبهم؟ ماذا سيحدث لهم أيها السيد؟ ألا تظن أننا نحكم عليهم بالموت مرات عدَّة؟ هل يوجد لهم مكان آخر غير ذاكرتنا؟ ألا تظن أننا نصبح قتلة رغماً عنا؟ هل تريدني أن أترك ذلك الوجه تحت

رحمة الزمن، ذلك الوجه الذي أعرفه أنا وحدي فقط؟ إنني أعلم أنه سيزوَّر ويتغير في داخلي إن لم أحاول إخراجه ووضعه في مكان آمن، كي لا تزخرفه أكاذيب عقلي المصر على البقاء كسيقان اللبلاب، ثم تحطمه، والذي سيصبح تربة خصبة للزمن الطفيلي.

إنني أعلم أن هذا سيحدث؛ لذلك عليَّ أن أحميه من نفسي، أحميه من أنانية البقاء النهمة في داخلي، هذه الأنانية التي تريد أن تنساه وتدمره.. ألا تفهم ما أعني؟

أجبته برفق:

- إنني أفهمك يا سيد شفارتس، وهذا هو السر الكامن وراء حديثك معي. إنك تريد أن تحميه من نفسك.

ثُرت على نفسي لأنني أجبته قبل قليل بعدم اكتراث.. كان الرجل الجالس أمامي - من وجهة نظر المفهوم المنطقي والشعري - رجلاً مجنوناً، دون كيشوت يريد أن يصارع طاحونة الزمن، كما أنني أحترم الحزن؛ لذلك لا أستطيع أن أقدر إلى أي مدى سيصل في صراعه هذا.

قال شفارتس بصوت مختنق:

- إذا استطعت التوصل إلى ذلك، عندها تصبح هذه الذكريات بمأمن من نفسي.. هل أنت مقتنع بما أقول؟

- نعم يا سيد شفارتس! ذكرياتنا ليست تحفة عاجية معروضة في متحف محكم ضد الغبار، بل حيوان يعيش ويلتهم ويهضم.. إنها كالتنين في الأساطير، تلتهم نفسها لأنها الطريق الوحيد الذي تستطيع من خلاله الاستمرار، ولا نقع تحت خطرها في تدميرنا لها.. هل تريد أن تمنع حدوث ذلك؟

نظر إليَّ شفارتس نظرة امتنان:

- هذا بالذات ما أريده.. إنك تقول إن الذكريات تتحجر فقط عندما يموت الإنسان؛ لذا سأموت.

أوضحت له وأنا متعب:

- إن ما قلته في السابق جنون.

كم كنت أكره هذه الأحاديث.. لقد تعرفت على الكثيرين من ذوي المزاج العصبي، فالمنفى غني بمثل هؤلاء كغنى حقل بالفطر بعد الشتاء.

- لا.. لن أنتحر.

قالها شفارتس وابتسم وكأنه توقع ما كنت أفكر به:

- لا.. لن أنتحر؛ فالحياة تصر على البقاء لأهداف أخرى.. سوف أنتهي كجوزيف شفارتس الذي لن يعود له وجود عندما نفترق في صبيحة الغد.

اخترقتني في تلك اللحظة فكرة مصحوبة بأمل غريزي.. سألته:

- ماذا تنوي فعله؟

- الاختفاء.

- ستختفي كجوزيف شفارتس؟

- نعم.

- كاسم؟

- وبكل ما يتعلق بجوزيف شفارتس.. سأختفي أيضاً بكل ما كنته قبل أن أحمل اسمه.

- وماذا تنوي أن تفعل بجواز سفرك؟

- لن أعود بحاجة إليه.

- هل بحوزتك جواز سفر آخر؟

هز شفارتس رأسه بالنفي:

- لن أكون بحاجة لجواز سفر آخر.

- هل يحتوي جواز سفرك على فيزا لأمريكا؟

- نعم.

- هل تستطيع أن تبيعني إياه؟

طرحت عليه السؤال على الرغم من معرفتي الأكيدة أنني لا أملك المال الكافي لشرائه.. هز شفارتس رأسه بالنفي ثانية. سألته:

- ولِمَ لا؟

- لا أستطيع بيعه؛ فلقد حصلت عليه كهدية.. هل ستكون بحاجة إليه في صباح الغد؟

- يا إلهي! إن كنت بحاجة إليه؟ إنه سيكون منقذي؛ فأنا لا أحمل في جواز سفري إذن دخول لأمريكا ولا أظنني سأستطيع الحصول عليه حتى بعد ظهر غد.

ابتسم شفارتس بكآبة:

- غريب.. كيف تعيد الأمور ذاتها؟! إنك تذكرني بذلك الوقت، عندما جلست إلى جانب المحتضر شفارتس وكان كل ما يشغل ذهني في تلك اللحظة هو جواز سفره الذي سيصنع مني إنساناً جديداً. حسناً.. سأعطيك جواز سفري ولن تحتاج إلا لتغيير الصورة.. أما العمر فهو متقارب على ما أعتقد.

قلت:

- خمسة وثلاثون عاماً.

- ستصبح أكبر بسنة مما أنت عليه. هل تعرف أحداً بارعاً في تزوير جوازات السفر؟

- إنني أعرف أحدهم ولا تنسَ أن تغيير الصورة أمر سهل.

- أسهل من تغيير شخصيته.

حملق بي فترة:

- ألا تظن أنه سيصبح أمراً غريباً أن شرعت في الاهتمام باللوحات كما كان المتوفى شفارتس ومن بعده أنا؟! أحسست برعشة تسري في جسدي، فقلت:

- لكن جواز السفر ليس سوى قطعة ورق وليس سحراً.

- لا.

- ربما، لكن ليس على الشكل الذي تقوله، هل طالت إقامتك في باريس؟

تملكتني فوضى وتوتر داخلي من تأثير وعد شفارتس بإعطائي جواز سفره ولم أستطع متابعة سماع ما يقول. شُغلت بالتفكير في كيفية الحصول على فيزا لروث أيضاً، ربما استطعت إبلاغ القنصلية الأمريكية أنها أختي. لا أظن أن هذه الكذبة ستجدي نفعاً، فالقنصليات الأمريكية كانت معروفة بدقتها. عليَّ أن أحاول أو أنتظر حدوث معجزة أخرى.. فجأة سمعت شفارتس يقول:

- وقف فجأة في باب غرفتنا في باريس وقد احتاج ستة أسابيع من الوقت للعثور علينا.. لكنه جاء بنفسه ووقف أمامنا وسط تلك الغرفة الصغيرة بجدرانها المزينة بلوحات العاشقين من القرن الثامن عشر. وقف أمامنا جورج يورجنز، أحد قادة الجستابو، شقيق هيلين، طويل عريض، يزن حوالي مائة كيلوجرام وقد زادت ألمانيته ثلاثة أضعاف على المرة الأخيرة التي رأيته فيها في أوسنابروك وعلى الرغم من ظهوره في الزي المدني.

- حملق بنا وقال:

هكذا إذاً! أكاذيب.. ساءلت نفسي: من أين تنبعث هذه الرائحة النتنة؟

أجبته:

- وماذا يدهشك في الأمر؛ فالرائحة النتنة تفوح أينما حللت وبشدة، تفوح لأنك قدمت.

ضحكت هيلين، صاح بها جورج:

- دعي الضحك جانباً.

أجبته:

- دع أنت الصياح جانباً، وإلا أرسلت من يطردك خارجاً.
- لماذا لا تحاول أن تخرجني بنفسك؟
هززت رأسي.
- أما زلت تصر على وضعية البطل عندما لا يكون الموقف محفوفاً بالخطر؟ إنك أثقل مني بعشرين كيلوجراماً ولا يمكن لأي حكم أن يقبل بنا كمتصارعين في حلبة واحدة.. ماذا تريد هنا؟
- سبب مجيئي لا يعني خونة الأوطان أمثالك.. لتنصرف أنت فأنا أريد التحدث إلى أختي.
أجابته هيلين وقد شعت عيناها ببريق الغضب:
- ابقَ هنا.
ثم نهضت بهدوء وحملت بيدها منفضة مصنوعة من المرمر ووجهت كلامها إلى جورج بكل هدوء:
- جملة أخرى من هذا القبيل وستطير هذه المنفضة لتهشم وجهك.. لا تنسَ أنك لست في ألمانيا!
- للأسف ليس بعدُ، لكن انتظرا قليلاً، فستصبح هذه البلاد جزءاً من ألمانيا.
أجابته هيلين:
- لن تصبح هذه البلاد جزءاً من ألمانيا.. ربما استطعتم أيها الممثلون البلهاء احتلالها لفترة من الزمن، لكنها ستبقى فرنسا رغماً عنكم.. هل جئت إلى هنا لتناقشنا بهذا الأمر؟
- جئت إلى هنا لأعود بكِ إلى البيت.. ألا تعرفين ماذا سيحل لو فاجأتك الحرب وأنت هنا؟
- ليس الكثير.
- سوف يقبضون عليكِ.
نظرت إلى هيلين فوجدت الدهشة مرتسمة على وجهها. أجبته:

- ربما سيقبضون علينا، لكنهم سيضعوننا في معتقلات وليس في معسكرات تعذيب كما هو الحال في ألمانيا.

سخر جورج:

- وماذا تعرف أنت عن معتقلات التعذيب؟

- الكثير! فوساطتك هي التي عرفتني بها.

أجابني جورج ساخراً:

- أيها الدودة! إن ما تعرفت عليه ليس سوى معتقل تأديبي، لكن من الواضح أن إقامتك فيه لم تجدِ نفعاً. لا تنسَ أنك هربت خارج البلاد بعد أن أطلق سراحك، وهذا يؤكد خيانتك لوطنك.

قلت له:

- إنني أحسدك على ألفاظك، هل يصبح من نجا من قبضتكم خائناً لبلاده؟

- وماذا إذاً؟ صدرت لك الأوامر بعدم مغادرة ألمانيا.

قمت بحركة يد مستهترة. وتذكرت كم من المرات دخلت معه في مثل هذه المناقشات قبل أن يوعز إلى كلابه بالقبض عليَّ.

قالت هيلين:

- كان جورج دائماً متصنعاً الغباء، مهووساً بعظمة العضلات.. إنه بحاجة دائماً إلى نظرة مجنزرة عن الحياة، كما تحتاج المرأة إلى مشد، خوفاً من الذوبان. لا تتشاجر معه؛ فثورته علامة خوفه.

- دعكِ من هذا.

أجابها جورج بنبرة مسالمة لم أكن أتوقعها.. ثم تابع:

- هيا احزمي ثيابك يا هيلين، فالأمر في غاية الجدية.. سنعود الليلة.

- وما جدية الموقف؟

- الحرب مقبلة، ولهذا السبب أتيت.

قالت هيلين:

- إنني متأكدة من أنك كنت ستحضر لو لم تكن هناك حرب مقبلة، تماماً كما لحقت بي إلى سويسرا قبل عامين عندما رفضت العودة. إنه من العار لرفيق حزبي أمين على مبادئ حزبه أن تحيا أخته في بلد خارج ألمانيا. توصلت قبل عامين إلى إقناعي بالعودة، أما الآن فلا يمكنك أن تثنيني عن عزمي. سأبقى هنا ولا أريد سماع المزيد من الكلام في هذا الموضوع.

حملق بها جورج:

- هل جاء قرارك من أجل هذا الوغد الوضيع؟ هل حاول إقناعك؟

ضحكت هيلين:

- وغد؟! كم مضى من الوقت الذي لم أسمع خلاله هذه الكلمة.. إنكم تمتلكون فيضاً من المفردات. لا، إن هذا الوغد زوجي، وهو لم يقنعني بشيء، بل على العكس: حاول بكل الطرق إقناعي بالعودة، لكن لأسباب أفضل من الأسباب التي طرحتها.

قال جورج:

- أريد أن أكلمك على انفراد.

- لن يجديك ذلك نفعاً.

- لا تنسي أننا أخوان.

- لا تنسَ أنني متزوجة.

- الزواج لا يعدو صلة رحم.

ثم غير كلامه وقال بنبرة طفل مدلل:

- إنك لم تأذني لي حتى الآن بالجلوس.. قطعت مسافة طويلة من أوسنابروك إلى هنا لأجد نفسي ملزماً بالوقوف إلى أن تنتهي مهمتي.

ضحكت هيلين..

- لا تنسَ أن هذه ليست غرفتي، فزوجي هو الذي يدفع إيجارها.

قلت له:

- تفضل بالجلوس أيها الضابط وعبد هتلر، لكن حاول أن تختصر الوقت لتغادر هذا المكان بسرعة.

نظر إليَّ جورج بغضب ثم رمى نفسه بضجة على الأريكة المصابة بجميع أمراض الشيخوخة ثم سألني:

- ألا تفهم أنني أريد التحدث إلى أختي على انفراد؟

سألته:

- وهل سمحت لي في السابق عندما اعتقلتموني أن أحدث زوجتي على انفراد؟

- الأمر يختلف الآن.

قالت هيلين بسخرية:

- الأمور تختلف بالنسبة لجورج ورفاقه دائماً، على الرغم من أنها هي الأمور التي يريدها الآخرون. إنهم يبررون قتل وتعذيب الآخرين الذين يختلفون معهم في الرأي بحجة حماية الفكر منهم، وعندما يزجون بك في معتقلات التعذيب يبررون عملهم بحجة الثأر لكرامة وطنهم التي دنست.. أليس ما أقوله هو الحقيقة يا جورج؟

- تماماً.

تابعت هيلين:

- ولا تنسَ أن جورج دائماً على صواب؛ فهو لا يشكك أبداً ولا يخالجه أي شعور بتأنيب الضمير.. إنه يقف دائماً إلى جانب السلطة؛ فالقائد مثلاً هو أكثر إنسان مسالم في هذا العالم، ويا حبذا لو عمل الجميع بما يرتئيه؛ لأن ما يرتئيه هو الصواب. الآخرون هم دائماً أعداء السلام.. هل هذا صحيح يا جورج؟

- لكن ما دخل هذا الحديث بموضوعنا نحن؟

- لا شيء، وكل شيء.. ألا ترى كم تبدو سخيفاً هنا في وسط هذه المدينة المتسامحة يا أحد أعمدة متلهفي السلطة؟ إنك تنتعل الحذاء

- على الرغم من ارتدائك زيًّا مدنيًّا - لتدوس به الآخرين، لكنك نسيت أنه لا سلطة لك هنا.. ليس بعدُ! إنك لا تستطيع هنا أن ترغمني على أن أصبح عضواً في حزبك الذي تفوح منه رائحة الأرجل العفنة، ولا تستطيع أن تضعني تحت الرقابة كالسجناء. هنا أستطيع أن أتنفس؛ لذا أريد أن أبقى هنا.

- لا تنسي أنك تحملين جواز سفر ألمانيًّا وستدخلين السجن إذا اندلعت الحرب.

- لم يحِن الوقت بعدُ، لكن إذا آل الحال إلى السجن، فأنا أفضله هنا عن ألمانيا، فأنتم لن تتوانوا عن اعتقالي؛ لأنني لو عدت لن أبقى خرساء.. لن أصبح خرساء بعد أن تنفست هواء الحرية ونجوت من قبضتكم، من ثكناتكم وأوكاركم وابتعدت عن صيحاتكم اليائسة.

وقفت لأمنعها من الاستمرار في فضح نفسها أمام تلك الكتلة النازية التي لن تستطيع فهم ما تقول.

أشار إليَّ جورج وزمجر:

- إنه هو المسؤول، هذا الشعوبي الملعون.. لقد أفسدك! انتظر أيها الغلام فسيأتي اليوم الذي نستطيع فيه أن نصفي حسابنا. نهض وأحسست بأنه إذا تقدم باتجاهي فسوف يقضي عليَّ. إنه أقوى مني بكثير، كما أن يدي اليسرى ما زالت تفتقر إلى مرونة الحركة منذ مخلفات المعتقل التأديبي.

خاطبته هيلين بصوت منخفض:

- لا تلمسه!

سألها جورج:

- وهل تدافعين عن هذا الجبان؟ ألا يستطيع أن يتولى الدفاع عن نفسه؟

استدار شفارتس إليَّ:

- إنها مسألة غريبة تلك التي تتعلق بالتفوق العضلي، إنها أكثر المسائل بدائية وليس تفوقها دليل شجاعة أو رجولة؛ فمثلا يستطيع مسدس في يد معوق أن ينهي هذه المسألة بلحظات.. المسألة العضلية تعتمد على عدد الكيلوجرامات وقوة العضلات، لكن على الرغم من ذلك يشعر المرء بالذل والإذعان عندما يصادفها. يعرف الجميع أن الشجاعة الحقيقية تنطلق من مكان آخر غير العضلات التي هي مستفز خاسر أمام الشجاعة الحقيقية، لكننا، على الرغم من هذه المعرفة، نحاول العثور على تبريرات عاجزة وأعذار بائسة، ونشعر بالخزي إن نحن امتنعنا عن منازلة هذه القوة العضلية ونتجنب بذلك التشويه: أليس هذا هو الواقع؟

- جنون! وهذا بالذات هو المحزن في الموضوع.

- كان بإمكاني الدفاع عن نفسي وكنت سأقوم بذلك بالطبع.

رفعت يدي:

- يا سيد شفارتس.. لماذا توضح لي هذا؟ فأنا لست بحاجة إليه.

ابتسم ابتسامة واهنة:

- صحيح، لكن ألا ترى كيف ينفذ مثل هذا الأمر إلى داخلنا، فتراني أحاول تبريره بعد هذه الفترة الطويلة؟! إنها مغروسة فينا كانغراس الكلاب في اللحم. متى سنتحرر من غرور الرجولة هذا؟

- ماذا حدث بعد ذلك؟ هل تنازلتما؟

- كلا.. فلقد أخذت هيلين تضحك فجأة ثم خاطبتني:

- انظر إلى هذا الأبله! إنه يظن أنني سأشكك في رجولتك إن هو ضربك وسأعود نادمة ذاعنة إلى ذلك البلد بسلطته المستبدة.

ثم استدارت إلى جورج:

- وأنت.. ألا تستطيع أن تترك الثرثرة عن الشجاعة؟ هذا الرجل - وأشارت إليَّ - يمتلك شجاعة أكثر مما يستطيع عقلك استيعابه..

لقـد جـاء خصيصـاً لاصطحابـي.. عـاد - على الرغم من الأخطار - إلى ألمانيا لكي يصطحبني معه.

حملق بي جورج:

- ماذا؟ عاد إلى ألمانيا؟

تنبهت هيلين إلى ما قالته وتابعت:

- لا يهم! أنا الآن هنا ولن أعود.

سألها جورج:

- عاد يصطحبك أنت؟ من ساعده في ذلك؟

أجابت هيلين:

- لا أحد.. هل تشعر بالحاجة لاعتقال المزيد؟

لـم يسـبق لـي أن رأيتهـا علـى هـذا الحال: كانـت ممتلئة بالرفض، الاحتقار، الكراهية، والنصر المشع؛ لأنها نجت من قبضتهم، معبأة بهذه الأحاسـيس كلها بشـدة؛ لذا بدأت ترتجف. وجدت نفسـي بحالة شـبيهة بحالتهـا واجتاحتنـي فكـرة مفاجئـة كالبـرق ميزتنـي عـن هيلـين في تلك اللحظة: فكرة الثأر الأزلية.. إن جورج لا يمتلك أية سلطة هنا، كما أنه لا يستطيع أن يصفر فيحضر في الحال رجال الجستابو.. إنه هنا بمفرده.

أحدثـت هـذه الفكـرة اضطرابـاً شـديداً في نفسـي ولـم أعد أعي ما يمكنني فعله من شـدة تأثيرها. لم يكن في اسـتطاعتي مصارعته. أردتُ أن أمحو هذا الشخص الواقف أمامي من الوجود. بدت لي الفكرة عادلة ومحقة وليسـت بحاجة إلى حكم، تماماً كما أن طرد الروح الشـيطانية المتجسدة في شخص لا يحتاج إلى حكم مسبق.

كانت هذه حالتي وأنا أواجه جورج؛ فالقضاء عليه ليس مجرد عملية أخذ بالثأر فقط، بل هي محاولة لخلاص عدد كبير من الضحايا المقبلة. اتجهت - من دون وعي - إلى الباب وتعجبت من أنني لم أتعثر. عليَّ أن أبقـى بمفـردي كـي أسـتطيع التفكيـر بالأمر. نظرت إلـيَّ هيلين بانتباه

لكنها لم تقُل شيئاً. أما جورج فأخذ يتأملني بازدراء وعاد ليجلس ثانية ثم زمجر عندما رآني أخرج من الباب.

- وأخيراً!

هبطت السلالم وشممت رائحة طعام الغداء: سمك. كان عند نهاية السلالم صندوق إيطالي مزخرف.. مررت بجواره كثيراً، لكنني للمرة الأولى رأيته. تمعنت في الزخارف المنقوشة عليه وكأنني أتفحصه بقصد شرائه، ثم تابعت سيري وكأنني من هؤلاء الذين يتجولون في أثناء نومهم.

رأيت غرفة في الطابق الأول مفتوحة الباب، مطلية بطلاء أخضر، مشرعة النوافذ، وكانت الخادمة تقوم بترتيب الأسرَّة. كم هو غريب أن يرى المرء كل الأمور التي لا يراها في الغالب، يراها في حالة اضطرابه، وعندما يظن أن هذا التوتر سيمنعه من رؤية أي شيء.

طرقت باب أحد المعارف، كان يقطن في الطابق الأول، اسمه فيشر ويمتلك مسدساً أراني إياه يوماً وعلل وجوده: إنه يجعل الحياة أكثر احتمالاً. كان السلاح يعطيه الوهم بأنه يعيش حياة المهاجر البائس الذي يستطيع أن ينهيها في الوقت الذي يريد.

لم يكن فيشر موجوداً، لكن غرفته لم تكن موصدة الباب؛ فليس لديه شيء يخفيه. دخلت الغرفة بقصد انتظاره. لم أدرِ ماذا أريد منه على الرغم من اقتناعي التام بأنني جئته لأستعير السلاح. من الغباء قتل جورج في الفندق. يجب أن أستدرجه إلى الخارج؛ فقتله في الداخل سيعرضنا للخطر: هيلين، أنا، وبقية المهاجرين. جلست على مقعد وحاولت تهدئة نفسي، لكنني لم أنجح في ذلك. جلست وأخذت أحملق في اللاشيء.

بدأ عصفور كناري يغرد وقد علق قفصه بواسطة سلك حديدي بين النافذتين. انتابني الفزع عندما سمعت صوته وكأن شخصاً ركلني؛ فأنا لم أتنبه لوجوده من قبل. لم تمضِ لحظات حتى دخلت عليَّ هيلين. سألتني:

- ماذا تفعل هنا؟

- لا شيء، لكن أين جورج؟

- ذهب.

لم أتنبه للفترة التي قضيتها في غرفة فيشر، لكنني شعرت بقصرها. سألتها:

- هل سيعود؟

- لا أدري، لكنه عنيد جدًّا. لماذا خرجت من الغرفة؟ هل قصدت بذلك تركنا بمفردنا؟

- لا. ليس لهذا السبب، لكنني شعرت فجأة بأنني لا أستطيع تحمل وجوده.

وقفت أمام الباب وتأملتني:

- هل تكرهني؟

سألتها بدهشة عميقة:

- أنا أكرهك؟ لماذا؟

- خطرت لي الفكرة عندما غادر جورج الغرفة: لو لم تتزوجني لما كنت تعرضتَ لهذا كله.

- إن الأمر لا يتعلق بك.. إن ما حدث لي ربما كان سيحدث لي وبطريقة أعنف. إنني أشك في أن جورج حاول تخفيف تعذيبي بسببك.. فأنا لم ألاحق كي أعبر الأسلاك الكهربائية ولم أعلق على كلابة اللحم. أنا أكرهك؟ كيف خولت لك نفسك التفكير بذلك؟

نظرت ورأيت، من خلال النافذة، الصيف الأخضر، كانت غرفة فيشر تطل على الفناء الداخلي للفندق وقد توسطته شجرة كستناء شامخة، زهت أوراقها تحت أشعة الشمس. تحول التشنج في عضلات الرقبة إلى عويل قطط عند قدوم المساء، وشعرت بقرف من نفسي، على الرغم من معرفتي الأكيدة باليوم الذي نحن فيه وأن الصيف يشع في الخارج، وأننا في باريس المدينة التي لا يطلق الرصاص فيها على البشر كما

يطلق على الأرانب.

قلت لها:

- كنت أفكر في أنكِ ربما كرهتِني أو ازدريتِني.

- أنا؟

- نعم؛ لأنني لم أستطِع إبعاد أخيك عنك؛ لأنني صمتُّ وخُيِّل لي أن الدقائق الأخيرة كانت بعيدة جدًّا. إن كل ما قاله جورج اليوم هو حقيقة. عليك أن تضعي نصب عينيك أنه لو اندلعت الحرب، فسيعتبروننا من المعسكر المعادي وستكونين أنت مهددة أكثر مني.

فتحت هيلين الباب والنوافذ:

- إن رائحة الغرفة تشير إلى أحذية العسكر والإرهاب.. دع يوليو يدخل الغرفة. سوف أترك النوافذ مفتوحة إلى حين عودتنا. هل الوقت مناسب لتناول الغداء؟

- نعم، كما أن الوقت قد حان لمغادرة باريس.

- لماذا؟!

- سيحاول جورج أن يشي بنا..

- لن يفكر بهذا؛ فهو لا يعرف أنك تنتحل اسماً آخر.

- إنه لا بد أن يتنبه لهذه الحقيقة ويعود لزيارتنا.

- ربما! لكنني سأطرده.. دعنا الآن نخرج.

ذهبنا إلى مطعم صغير خلف حديقة قصر العدل وتناولنا طعامنا على إحدى الموائد المصفوفة على الرصيف. كانت وجبة الطعام مؤلفة من: فطائر، لحم العجل، السلطة، والجبن. تناولنا النبيذ إلى جانب الطعام وبعدها احتسينا القهوة. إنني ما زلت أذكر دقائق الأمور، حتى الخبز المحمص بلونه الذهبي وفناجين القهوة. شعرت في ذلك الوقت بتعب مبعثه سكر عميق وغامض. تخيلت نفسي خارجاً من قناة مظلمة قذرة ولا أستطيع العودة للنظر إليها؛ لأنني أعتبر نفسي جزءاً من قذارتها ومن

دون أن أعـي هـذه الحقيقـة مـن قبـلُ. نجـوت، وها أنا أجلس إلى مائدة مجللة بشرشف يحمل مربعات حمراء وبيضاء.

شـعرت أننـي طهـرت وأنقـذت، وهـا هي الشـمس ترسـل أشـعتها الصفراء لتخترق النبيذ.. كانت رفوف من الحساسـين تضج فوق كومة من فضلات الخيل، بينما أخذت قطة صاحب الحانة تنظر إليها شبعة ومن دون اهتمـام. هبـت ريـح خفيفـة علـى ذلك المكان الهادئ وعاد الوجود ليأخذ صورته الجميلة وكأنه قطعة من أحلامنا.

تمشـينا بعد ظهر ذلك اليوم الباريسـي بلونه العسـلي وتوقفنا أمام متجر أنيق لبيع الألبسة. كان هذا المتجر محطة نتوقف أمامها باستمرار في أثناء سيرنا.

قلت:

- أريدكِ أنْ تبتاعي ثوباً جديداً.

- ماذا؟ الآن حيث تقف الحرب على الأبواب؟! ألا تظن أن هذا العمل يعتبر تبذيراً؟

- خاصة في مثل هذا الوقت؛ لأنه تبذير.

قبلتني.

- حسناً.

- جلسـت مسـترخياً في أحد المقاعد أمام غرفة تبديل الملابس. جاءت الخياطة بمجموعة من الثياب، ولم تلبث أن سيطرت على هيلين متعة حقيقية ونسيت وجودي.

سمعت صوت أقدام النسوة وهن يرحن ويجئن، ورأيت الثياب من خلال شق الباب وكان يظهر بين الحين والآخر كتف هيلين العارية البنية. لفَّتنـي غيمـة مـن نعـاس لطيـف وكأنه جزء من موت غير موجع، لكنه لا يحمل اسم الموت.

أيقنـت، بخجـل، السـر الـذي دفعني للاهتمام بشـراء ثوب لهيلين.

كانت هذه المحاولة رشوة ذلك اليوم وإبعاد شبح جورج عنه وإبعاد شبح عجزي. محاولة طفل عاجز وتبرير طفولي. استيقظت لأرى هيلين تقف أمامي مرتدية تنورة متعددة الألوان وفضفاضة جدًّا وسترة سوداء ضيقة قلت لها:

- الزي المناسب! سنبتاعه.

- لكنه باهظ الثمن.

حاولت الخيَّاطة أن تفهمنا أنه موديل من إحدى دور الأزياء المعروفة. كذبة خفيفة، لكننا اتفقنا على شرائه. إنها متعة حقيقية أن يبتاع المرء أشياء لا يمكنه في العادة الحصول عليها. لقد أبعد جنون الخطوة بقايا شبح جورج. ارتدت هيلين الثوب في تلك الأمسية ولم تخلعه في أثناء الليل أيضاً.

استيقظت في الليل ووقفت أمام النافذة أنظر إلى المدينة القابعة في ضوء القمر.. كم هو غريب شبح النوم هذا والمعرفة الأكيدة أن هذه الفترة لن تطول.

11

- ماذا يبقى؟ إنني أشعر الآن بأن الذاكرة تقلصت كقميص غسل وفقد ما كان عليه من نشاء. لم يعد منظور الزمن موجوداً لديَّ، فما كان في السابق طبيعة متحركة أصبح الآن صورة مستوية تنعكس عليها أضواء مختلفة: لم تعد صورة بل أصبحت ذكريات جارية ترتفع من بينها صور منفصلة: نافذة الفندق، كتف عارية، كلمات هامسة، حياة أشباح، ضوء يلف الأسطح الخضراء، رائحة الماء الليلية، القمر وهو مستلقٍ فوق حجارة الكاتدرائية الرمادية، وذلك الوجه المندفع بشغف، ثم يليه وجه آخر في الريف ووجه في جبال البرينيه، وأخيراً ذلك الوجه المتشنج، الوجه الأخير الذي لم أعرفه من قبلُ، يحاول أن يبعد الوجوه الأخرى ليؤكد أن ما سبقه لم يكن إلا مجرد أخطاء.

رفع نظره إليَّ وعاد ذلك الألم ليغطي وجهه.. حاول أن يرغمه على الابتسام، لكن من دون جدوى:

- إن هذه الذكريات كلها باقية هنا.

وأشار إلى رأسه.

- وحتى هنا أصبحت هذه الذكريات في خطر كثوب معلق في خزانة يملؤها العث، لهذا السبب أسردها عليك؛ لأنك تستطيع أن تحافظ عليها ولا خطر عليها منك. إن ذاكرتك لن تحاول إبادتها كي تحافظ على ذاتها كما هو حال ذاكرتي.. إنها ليست في مأمن عندي، فمنذ الآن يحاول ذلك الوجه المتصلب أن ينفذ كالسرطان إلى أعماق الوجوه الأخرى السابقة.

تابع حديثه وقدِ ارتفع صوته:

- الوجوه الأخرى هي الوجوه الحقيقية، وجوهنا وليس ذلك الوجه الأخير: المجهول والمخيف.

سألته:

- وهل بقيت في باريس؟

قال:

- عاد جورج مرة ثانية وحاول أن يصل إلى مبتغاه عن طريق اللين تارة وعن طريق التهديد تارة أخرى.. لم أكن في الفندق لدى زيارته الثانية، لكنني قابلته وهو خارج.. وقف أمامي وقال بصوت خافت:

- أيها الوغد.. إنك تحاول تدمير حياة أختي، لكن انتظر قليلاً، فسنلقي عليك القبض بلا شك. لن تطول هذه الفترة أكثر من أسبوعين أو ثلاثة، وعندها سنمسك بكما، وعندها، يا ولدي العزيز، سأتولى أنا أمرك بنفسي وستركع أمامي وتستعطفني لأن أطلق عليك الرصاصة الأخيرة وأريحك، هذا إذا افترضنا أنه ستكون لديك القدرة على الكلام.

- إنني أستطيع تخيل الموقف.

- لو تستطيع تخيل هذا كله لما كنت أقدمت على هذه الأمور كلها.. إنني أعطيك الفرصة الأخيرة.. سأغفر لك الكثير إن عادت أختي إلى أوسنابروك في غضون ثلاثة أيام. هل فهمتني؟ ثلاثة أيام فقط.

- لا يتعذر فهم ما تقول.

- لا؟ تذكَّر إذاً أن أختي يجب أن تعود، كما أنك تعرف ما بها أيضاً أيها الوغد اللئيم، أم هل تريد أن تقنعني بأنك لا تعلم بمرضها؟! لا تحاول هذا معي..

حملقت به! هل ما يقوله من وحي خياله أم أنه حقيقة أم أنه صدَّق ما قالته هيلين من أن مرضها خدعة كي تستطيع السفر إلى سويسرا؟

أجبته:

- لا.. ليس لي علم بذلك.

- لا؟ الأمر ليس مريحاً، أليس كذلك؟ عليها أن تعاود الطبيب وفي الحال أيها الكاذب.. اكتب لمارتينس واسأله، فهو يعلم بمرضها.

- رأيت شبحين أسودين يدخلان باب الفندق في وضح النهار..

همس جورج:

- لا تنسَ أنها يجب أن تعود في غضون ثلاثة أيام، وإلا جعلت روحك تتقيأ ذاتها. سأعود إليك في القريب، لكنني سأكون مرتدياً بزتي العسكرية.

- تسلل من بين الواقفين في قاعة الفندق وخرج بمشيته العسكرية. سبقني الرجلان في صعود السلم. تبعتهما ووجدت هيلين تقف في الغرفة إلى جانب النافذة سألتني:

- هل التقيته؟

- نعم. وأخبرني أنك مريضة وعليك أن تعودي.

هزت رأسها بالنفي:

- غريب أمره، فهو يتخيل أشياء لا وجود لها.

سألتها:

- هل أنت مريضة؟

- هراء! كان هذا كله مجرد أكذوبة مني، كي أستطيع السفر إلى الخارج.

- قال إن مارتينس له علم بالأمر.

- بالطبع يعرف مارتينس بالأمر، هل نسيت أنه أرسل لي رسالة إلى أسكونا؟! لقد اتفقت معه على الأمر.

- إذاً، فأنت لست مريضة؟

- هل مظهري يوحي بالمرض؟

- لا، لكن هذا لا يعني الكثير.. ألست مريضة حقًّا؟

أجابت كمن نفد صبره:

- لا.. هل كلمك جورج بأمور أخرى؟

- كالعادة.. تهديد ووعيد، لكن ماذا أراد منك؟

ابتسمت هيلين ابتسامة غامضة:

- إنه يظن أنني ملك له.. هذا حاله دائماً منذ طفولته؛ فكثيراً ما تظهر هذه الظاهرة بين الإخوة في العادة، وهو يدعي أن تصرفه هذا نابع من منطلق مبدئي تجاه العائلة. إنني أكرهه.

- ألهذا السبب تكرهينه؟

- إنني أكرهه، وهذا يكفي، وهذا ما قلته له أيضاً.. الحرب مقبلة، وهو متأكد من ذلك. صمتنا وعلت أصوات السيارات المزدحمة في شارع أوغستين، ووصلتنا أصوات بائعي الجرائد وغطت أصوات هدير محركات السيارات تماماً كما يغطي زعيق النوارس هدير البحر.

قلت:

- لا أستطيع أن أحميك.

- أعرف ذلك.

- لكنهم سوف يعتقلونك.

- وأنت؟

- وأنا أيضاً، وربما فصلونا عن بعضنا البعض؛ فالسجون في فرنسا ليست مصحات.

- وليست تلك التي في ألمانيا.

- لن يقبضوا عليك في ألمانيا.

قامت هيلين بحركة سريعة رافضة:

- سأبقى هنا، أما أنت فقمت بواجبك وأنذرتني.. لا تفكر بالأمر.. سأبقى هنا وليس لذلك علاقة بك. لن أعود.

نظرت إليها، أما هي فتابعت كلامها:

- إلى الجحيم بحذرك، وإلى الجحيم بالأمان؛ فأنا عشت في ظلمهما سنوات عدَّة.

أحطتها بذراعي:

- القول سهل يا هيلين.

أبعدتني عنها وصاحت فجأة:

- إذاً.. اذهب، وعندها لن تتحمل مسؤولية، دعني بمفردي، فأنا أستطيع البقاء والاستمرار بمفردي.

نظرت إليَّ وكأنني جورج:

- لا تكُن كالدجاجة! ماذا تعلم أنت؟ لا تخنقني بقلقك وخوفك من تحمل المسؤولية! لم أترك ألمانيا بسببك، بل بسببي أنا.

- إنني أعي ما تقولينه.

عادت إليَّ وقالت برفق:

- عليك أن تؤمن بما أقوله، على الرغم من أنه لا يبدو حقيقة! كنت مصممة على ترك ألمانيا قبل مجيئك، لكنك أتيت بمحض الصدفة. أرجوك أن تفهم أن الأمان ليس كل شيء.

- كلامك صحيح، لكن الإنسان يريد الأمان لمن يحب.

- لا يوجد هناك أمان. لا تُجِب، فأنا أعرف الأمور أكثر منك! لقد فكرت بهذا الأمر آلاف المرات، والآن دعنا من الحديث عنها، ولا تنسَ أن المساء يقف بالخارج في انتظارنا ولن تكون أمامنا أمسيات كثيرة في باريس.

- إذا كنتِ مصرة على عدم العودة فما المانع من الذهاب إلى سويسرا؟

- يقول جورج إن النازيين سيجتاحون سويسرا كما كان حال بلجيكا خلال الحرب العالمية الأولى.

- يفوتك أمر مهم، هو أن جورج لا يمكنه معرفه كل شيء.

- دعنا نبقَ في باريس، فربما كذب علينا. من أين له التنبؤ بأمور ستحدث؟ مرت في السابق فترة ظن الجميع فيها أن الحرب لا بد أن تندلع، لكن جاءت بعدها معاهدة ميونيخ، لماذا لا نأمل في معاهدة ميونيخ ثانية؟

لم أكن متأكداً من صدق ما تقول، فربما كانت هذه محاولة جديدة لتبعدني عن الشك، وغالباً ما يصدق الإنسان الكذب إذا كان يعيش في الأمل. هذا كان وضعي في تلك الليلة: كيف يمكن لفرنسا أن تقبل جرها إلى حرب، خاصة أنها بلد لم يعر التسلح حتى ذلك الوقت أي اهتمام؟ إن دخولها الحرب يعني لها التنازل. لماذا يتوجب على فرنسا دخول حرب من أجل بولندا؟ فهي لم تحارب من أجل تشيكوسلوفاكيا، ولكن لم تمضِ عشرة أيام على تلك الليلة حتى أغلقت الحدود ونشبت الحرب.

سألته:

- وهل تم اعتقالك في تلك الفترة يا سيد شفارتس؟

- كان ما زال أمامنا أسبوع من الوقت، لكننا مُنعنا من مغادرة المدينة..

سخرية غريبة: عشت خمس سنوات في حالة إبعاد مستمرة، أما الآن فقد حدث العكس، لكن أين كنت أنت في تلك الفترة؟

أجبته:

- في باريس.

- وهل احتجزوك في الفيلودروم؟

- بالطبع.

- لكنني لا أذكر أنني شاهدتك.

- لا تنسَ يا سيد شفارتس أن الفيلودروم كان يضم أعداداً هائلة من المهاجرين.

- هل ما زلت تذكر الأيام الأخيرة التي سبقت إعلان الحرب وكيف أعتمت باريس؟

- كيف لا أذكرها؟! إنني شعرت في تلك الفترة أن الكون بأكمله يسبح في الظلام.

- كانت الأضواء الصغيرة الزرقاء المسموح بها تضيء زوايا

الليـل وكأنهـا رؤوس مصابـي السـل. لـم تعتـم المدينة فقط، بل مرضت في ظل ذلك الظلام الأزرق البارد وأخذ سـكانها يرتجفون على الرغم مـن الصيـف. بعـت فـي تلك الفترة إحـدى اللوحتين اللتين ورثتهما عن المرحوم شفارتس كي تكون لدينا سيولة مادية. كان الوقت غير مناسب لبيعها وعرض عليَّ التاجر سعراً بخساً.

رفضت عرضه وطالبته بإعادة اللوحة، لكنني تمكنت أخيراً من بيعها لمهاجر سينمائي ثري كان يرى في اقتناء هذه الأشياء أماناً أكثر من اقتناء النقود. أما اللوحة الثانية فقد خبأتها عند صاحب الفندق.

جاء رجال الشرطة إلى الفندق بعد ظهر أحد تلك الأيام ليصطحبوني معهـم، وطلبـوا منـي أن أودِّع هيليـن، التـي وقفـت أمامي شـاحبة بعينين دامعتين وقالت:

- لا! إن هذا غير معقول!

- بلـى يـا عزيزتـي، إنـه أمـر واقعـي جـدًّا، ولـن يلبثـوا أن يأتـوا لاصطحابك فيما بعد.. من الأفضل أن يحتفظ الواحد منا بجواز سفره.

أجاب أحد الشرطيين بلغة ألمانية سليمة:

- إنه حتماً من الأفضل أن يحتفظ كل بجواز سفره.

- شكرا للنصيحة.. هل أستطيع أن أودع زوجتي على انفراد؟

نظر الشرطي إلى الباب، فقلت له:

- لو كان هدفي الفرار، لقمت بذلك منذ عدة أيام.

أومأ بالموافقة ثم دخلت مع هيلين إلى الغرفة. احتضنتها وقلت:

- ألا ترين أن الأمور تبدو على شكل آخر لدى حدوثها عنه عندما يتكلم المرء عنها؟ أليس كذلك؟

تخلصت من بين ذراعي:

- لكن كيف أستطيع الوصول إليك؟

تباحثنا بالأمور المعهودة وكان لدينا عنوانان: عنوان الفندق وعنوان

شخص فرنسي. طرق الشرطي باب الغرفة..

فتحته فقال:

- من الأفضل لك أن تأخذ معك غطاء. لن تبقى هناك أكثر من يومين، لكن من الأفضل لك أن تأخذ غطاء وبعض الطعام.

- لكني لا أمتلك الآن بطانية.

- سآتيك بواحدة.

قالتها هيلين وأخذت تجمع ما تبقى لدينا من طعام.. سألتني:

- هل صحيح قوله إنك لن تمكث هناك أكثر من يومين؟

أجابها الشرطي:

- إنه أقصى حد.. الهدف من الاعتقال هو التأكد من الأوراق الثبوتية وما شابه.. إنها مسألة روتينية يا سيدتي.

- وهكذا كانت هذه الجملة هي بداية لسلسلة من هذا النوع.

أخرج شفارتس سيجارة من جيبه وأشعلها.

- إنك بلا شك مررت بكل هذه الأمور: الانتظار في مخافر الشرطة، وقدوم المزيد من دفعات جديدة من المهاجرين الذين اعتقلوا وكأنهم نازيون خطرون، والتنقل في سيارات السجن بنوافذها الصغيرة، والانتظار اللامنتهي للمثول أمام مقدم الشرطة. هل زُج بك أيضاً في قاعة لوبين؟

أومأت بالإيجاب؛ فلقد كانت قاعة لوبين كبيرة في مقدمية الشرطة وكانت تستعمل في العادة لعرض أفلام تعليمية للشرطة وتحتوي على حوالي مائة مقعد وشاشة عرض كبيرة بيضاء.. أجبته:

- أمضيت هناك يومين وكنا نساق في أثناء الليل إلى أحد مستودعات الفحم وعند الصباح نخرج من تلك المستودعات وكأننا عمال تنظيف المداخن.

قال شفارتس:

- أمضينا أياماً عدَّة في الجلوس على تلك المقاعد. اتسخت ثيابنا ولم نلبث أن بدونا كمجرمين حقيقيين، تماماً كما كانوا ينظرون إلينا أو يتوقعون أن نكون.

جاء ثأر جورج متأخراً وفي تلك القاعة بالذات؛ فلقد حاول، قبل سفره، أن يترك عنواننا في المقدمية، مشيراً إلى أنه عضو في الحزب النازي.. كان هذا السبب وراء استجوابي لأيام متتالية بتهمة التعامل مع جورج، وبالتالي الحزب النازي، ضحكت في البداية، فلقد بدت لي الأمور بعيدة عن المنطق، لكنني ما لبثت أن اقتنعت بأن اللامعقول هو أكثر الأمور خطراً. إن بقاء الحزب النازي في السلطة لهو أكبر دليل على اللامعقول. أما الآن فلقد بدأت فرنسا، المتعقلة في الغالب، تعيش تحت وطأة تحالف البيروقراطية والحرب.

لقد خلف جورج - من دون معرفة منه - قنبلة موقوتة؛ فالتهمة بالجاسوسية في أثناء الحرب ليست بالأمر المضحك. توالى قدوم قوافل من المعتقلين الخائفين إلى تلك القاعة. لم يكن قد سقط أحد على الحدود منذ إعلان الحرب حتى تلك الفترة، لكن مناخية ما خيمت على الحياة وتجلت في ذلك الاحترام المتناقص للحياة والفرد الذي يصاحب حتمية الحرب، تماماً كما يفعل الطاعون. لم يعد البشر بشرا، بل أصبحوا يصنفون كما يصنف الإنسان في الجندية: صالح، وغير صالح، أو عدو.

جلست في اليوم الثالث على أحد المقاعد في تلك القاعة منهكاً. طُلب قسم من المهاجرين للتحقيق، بينما جلس القسم الآخر في القاعة.. جلس بعضهم يتهامس، والبعض يتناولون طعامهم، بينما استسلم فريق آخر للنوم. خارت قوانا ووصلت إلى حد أدنى من البقاء، لكن الأمر لم يزعجنا كثيراً؛ فلقد بدا مريحاً إذا ما قورن بمعتقلات التعذيب الألمانية. كان أقصى ما كنا نتلقاه من التعذيب هو الركل بالأرجل وبعض الصفعات: السلطة سلطة أينما وجدت، والشرطة تتشابه في أي مكان في

العالم. كنت متعباً جدًّا من التحقيق. جلست ونظرت إلى صفٍّ من لابسي البزات يجلسون على المنصة أمام الشاشة منفرجي الأرجل ويحملون الأسلحة.. هؤلاء هم حراسنا. بدت لي القاعة نصف المعتمة بشاشتها المتسخة، ونحن، رمزاً يائساً للحياة؛ حيث لا يمكن للمرء فيها إلا أن يكون سجاناً أو سجيناً، وحيث يتعين على المرء نفسه اختيار شريط الفيلم الذي يريد رؤيته: فيلم مأساوي، لكن في النهاية تبقى الشاشة الخاوية، القلب الجائع، والسلطة الحمقاء التي تتصرف وكأنها خالدة، وكأنها تمتلك الحق دائماً بينما تكون شاشات العرض الأخرى قد عادت خاوية.. وهكذا ستبقى الأمور دائماً على وضعها ولن يتغير في الواقع شيء وسنختفي يوماً دون أن يشعر أحد باختفائنا.

- كانت تلك الساعة التي تعرفها ولا شك: الساعة التي ينطفئ فيها الأمل.

- نعم. إنها ساعة الانتحار الصامتة؛ حيث يتوقف المرء عن الدفاع عن نفسه ويخطو خطوته الأخيرة دون الاعتماد على التفكير، يخطوها وكأنها من محض الصدف.

صمت قليلاً ثم تابع حديثه:

- فُتح باب القاعة ودخلت مع ضوء الدهليز الأصفر هيلين، كانت تحمل سلة وزوج بطانيات ومعطفاً من فراء الفهد، تعرفت إليها من طريقة مشيتها وانتصاب عنقها، توقفت لحظة ثم مشت تبحث بين صفوف المعتقلين. مرت من أمامي، لكنها لم تعرفني.. ذكرتني هذه الواقعة بالليلة التي التقيتها فيها في كاتدرائية أوسنابروك.

قلت:

- هيلين!

استدارت.. نهضت فنظرت إليَّ ثم سألتني بغضب:

- ماذا فعلوا بكم؟

- لا شـيء يستحق الذكر، لكننا ننام في مستودع فحم، ما الذي جاء بك إلى هنا؟

أجابت بشيء من الفخر:

- لقد اعتُقلت كما اعتُقلت أنت وقبل أن تعتقل أية امرأة أخرى. آملت أن ألقاك هنا.

- ولأي سبب اعتقلوك؟!

- وما السبب وراء اعتقالك أنت؟

- إنني متهم بالجاسوسية.

- وأنا أيضاً؛ فجواز سفري ساري المفعول هو السبب في هذه التهمة.

- وكيف عرفت ذلك؟

- لقد حققوا معي قبل أن آتي إلى هنا وقالوا لي إنني لست مهاجرة حقيقية، إن النساء المهاجرات قد أُطلق سراحهن. أوضح لي هذا كله رجل بليد بشعر مطلي بالفازلين. هل هو الرجل ذاته الذي حقق معك؟

- لا أعرف، لكن الحمد لله أنك أحضرت معك بطانيات. فتحت هيلين السلة وارتفع صوت تراطم زجاجتين ببعضهما.

- أحضرت ما أستطيع حمله.. كونياك وليس نبيذاً.. فكرت أن أحضر من كل شيء خلاصته، هل يقدمون لكم طعاماً هنا؟

- لا.. لكننا نستطيع ابتياع بعض شرائح الخبز بالزبد.

انحنت إليَّ هيلين وأخذت تتأملني:

- إنكم تبدون كتجمع للزنوج.. ألم يسمحوا لكم بالاغتسال؟

حتى الآن لم يسمحوا بذلك.. لا أظن أن السبب هو اللؤم، بل الإهمال.

أخرجت زجاجة الكونياك.

- لا تقلق، الفلينة مبعدة، كانت هذه هي البادرة الأخيرة الطيبة من

صاحب الفندق، فلقد قال لي إنه لا توجد هنا أي فتاحة زجاجات.. اشرب!

- رشفت جرعة كبيرة منها ثم أعدت لها الزجاجة.

قالت:

- لقد أحضرت معي كأسا، وعلينا أن نحافظ على استمرارية الحضارة للمدى الذي نستطيع به ذلك.

ملأت الكأس وشربت. قلت لها:

- إن رائحتك توحي بالصيف والانتعاش. ما الحال في الخارج؟

- كما كانت في أيام السلام. المقاهي ملأى والسماء زرقاء.

ثم نظرت إلى رجال الشرطة المصطفين على المنصة وضحكت:

- إنهم يبدون كاللعب الكرتونية المصفوفة في ملعب لتدريب الرماية.. يبدون كالتماثيل التي أطلق أحدنا عليها النار وسقط أحدهم يقدم لنا جائزة تكون غالبا زجاجة نبيذ أو منفضة.

- لا تنسي أن هذه التماثيل تحمل بنادق.

أخرجت هيلين بعض المعجنات من السلة وقالت:

- إنها هدية من صاحب الفندق مصحوبة بسلامه الحار. إنها معجنات محشوة بلحم الدجاج، أحضرت معي سكاكين وشوكاً.. وللمرة الثانية يا عزيزي.. تحيا الحضارة.

فجأة شعرت بالفرح والبهجة، فها هي هيلين تجلس إلى جانبي، وهذا يعني عدم الضياع.. لم تبدأ الحرب بعدُ وربما صدق من قال إنهم سيطلقون سراحنا عمَّا قريب. علمنا في مساء اليوم التالي أنهم سيفصلوننا.

نُقلت إلى معتقل تجميع في الكولومب، أما هيلين فأُبعدت إلى سجن إل بيتيت روكيت. لم تكن أقوالنا بأننا متزوجان تجدينا نفعا؛ فالمتزوجون أيضاً خضعوا للفصل. جلسنا الليل بطوله في القبو بعد أن سمح لنا حارس عطوف بذلك. أشعلنا بعض الشموع التي كانت لدى أحد المعتقلين. سيق القسم الأكبر إلى الأماكن التي نُقلوا إليها ولم يبقَ

منا في ذلك المكان سوى مائة شخص تقريباً. كان بيننا مهاجرون إسبان أيضاً. أصبح الاجتهاد في اعتقال المعادين للفاشية في بلد معادٍ للفاشية مدعاة للسخرية وبدأ الواحد منا يشعر وكأنه معتقل في ألمانيا.

سألت هيلين:

- لكن لماذا يصرون على فصلنا؟

- لست أعلم، لكنني متأكد من أن السبب في ذلك هو الغباء وليس القساوة.

أجاب أحد الإسبان بلهجة تثقيفية:

- ستعم المعتقل الغيرة ويكثر الشجار إذا بقي الرجال والنساء معاً؛ لذا فهم يصرون على الفصل.

نامت هيلين إلى جانبي وتلحفت بمعطفها من فراء الفهد. كان في القبو ثلاثة أو أربعة مقاعد مريحة وُضعت تحت تصرف النساء المتقدمات في السن. عرضت إحداهن على هيلين أن تستلقي على مقعدها من الساعة الثالثة حتى الخامسة، لكنها رفضت ذلك معللة:

- سيكون أمامي الوقت الكافي للنوم بمفردي.

كانت الليلة غريبة جدًّا.. صمتت الأصوات تدريجيًّا، وتوقف نواح النساء المتقدمات في العمر إلا من بعض التنهدات التي كن يطلقنها بين الحين والآخر عندما يستيقظن ثم يعدن إلى النوم وكأنهن يتدثرن بصوف أسود يكاد يخنقهن.

أخذت الشموع تتلاشى تدريجيًّا. غفت هيلين على كتفي ولفتني بذارعيها وكانت تهمس عندما تستيقظ ببعض الكلمات: كلمات طفل في بعض الأحيان، وأخرى كلمات حبيبة، كلمات لا تنبس بها شفة ولا في ليالي حياة منتظمة. كانت كلمات ضيق، وداع، كلمات جسد يأبى الانفصال، كلمات جسد ودم وشكوى، أقدم شكاوى هذا العالم، ألا وهي عدم القدرة على البقاء ملتصقين وأن أحد الاثنين عليه أن يغادر

قبل الآخر وأن الموت يشـد بيدنا كل لحظة مذكراً إيانا بأنه علينا عدم التوقف، وحتى في أثناء تعبنا وحاجتنا لسـاعة واحدة ننعم فيها بالحلم بالأبدية، انزلق رأسها من على كتفي إلى صدري، ثم استراح على ركبتي.

أمسكت به بين راحتي ورحت أتأمله وأنظر إلى تنفسه في ظل ضوء الشمعة الأخيرة. سمعت صوت رجال ينهضون ويتلمسون طريقهم بين أكوام من الفحم ليتبولوا بحذر. أخذ الضوء الشـحيح يتراقص ويعكس ظـلال هـؤلاء الرجـال بأحجـام كبيرة على الحائط فيبدون كأشـباح هاربة وسـط غابة من الأشـباح وبينهم كانت هيلين: الفهد الهارب من لعنات السـحرة. انطفـأ بعدهـا ذلـك الضـوء الأخير ولم يبقَ سـوى ذلك الظلام الخانق المليء بالشخير. تحسست نفس هيلين بيدي.. انتفضت مذعورة مصحوبة بصرخة عالية قصيرة.

همست لها:

- إننـي هنـا إلـى جانبـك، لا تخافـي! الأمور كلها ما زالت على ما كانت عليه.

أعادت رأسها إلى ما كان عليه، قبَّلت يدي وتمتمت:

- نعم، إنك هنا، عليك أن تبقى دائماً إلى جانبي.

همست:

- لن أتركك أبداً، ولو اضطررنا إلى الانفصال لفترة قصيرة، سأعود لأجدك ثانية.

تمتمت متسائلة وهي نصف نائمة:

- وهل ستعود إليَّ ثانية؟

- سأعود إليك دائماً وسأجدك أينما كنت، كما وجدتك في المرة الأخيرة.

- حسناً!

تنهدت وأدارت رأسـها فاسـتراح بين راحتي وكأنه يسـتريح وسـط

طبق.. جلست ولم أنم وأخذت أتحسس بين الحين والآخر شفتيها وهي تلامس أصابعي.

أحسست بدموعها، لكنني لم أقل شيئاً. شعرت بمدى حبي الكبير لها وأنني لم أحبها يوماً بمقدار حبي لها في تلك الليلة القذرة المليئة بالشخير وصوت التبول، تلك الأصوات الغريبة الناتجة عن تساقط قطرات البول على الفحم.

كانت هادئة جدًّا وأحسست بأن الحب قد أطفأ ذاتي.. بعدها جاء الصباح وجاء ذلك الضوء الرمادي الشاحب الذي يسرق الألوان كلها ويجعل الهيكل العظمي مرئيا من خلال الجلد، وشعرت فجأة بأن هيلين تعيش ساعات احتضارها بين راحتي، وعليَّ أن أوقظها كي لا تستسلم للموت ولكي أحتفظ بها حية. استيقظت وفتحت إحدى عينيها ثم سألتني:

- هل تظن أننا نستطيع أن نحصل على قهوة وخبز طازج؟

أجبتها بسعادة غامرة:

- سأحاول أن أرشي أحد الحراس.

فتحت هيلين عينها الثانية وتأملتني:

- ماذا حدث؟ إن مظهرك يوحي وكأنك فزت بأكبر أرقام الحظ. هل سيطلقون سراحنا؟

- لا.. لكنني أشعر بأنني أطلقت سراح نفسي.

حركت رأسها بين راحتي:

- ألا تستطيع أن تريح ذاتك من نفسك ولو لفترة قصيرة؟

- بلى! وأظن أنه أصبح لزاماً عليَّ أن أفعل ذلك وأخشى أن يطول ذلك، فلن تكون أمامي فرص كثيرة لاتخاذ القرارات. لكن إذا تمعن المرء في هذا الأمر فإنه بلا شك سيجد فيه العزاء.

أجابت هيلين وهي تتثاءب:

- عزاؤنا هو وجودنا على قيد الحياة، ألا تعرف هذا بعدُ؟ هل

ستظن أنهم سيعدموننا بالرصاص بتهمة التجسس؟
- لا.. لكنهم سيحتفظون بنا كمعتقلين.
- هل سيسجنون المهاجرين أيضاً الذين لم يعتقلوا بتهمة التجسس؟
- نعم، وسوف يسجنون جميع من يجدون، وها هم اقتادوا القسم الأكبر من الرجال المعتقلين هنا إلى السجون.
أنهضت هيلين جسمها قليلاً:
- وأين يكمن الفرق؟
- الفرق يكمن في أنه ربما أطلق سراحهم بطريقة أسهل منا.
- ليست هذه النظرية صحيحة؛ فربما حاولوا أن يعاملونا بطريقة أحسن لشكهم في أننا جواسيس.
- إن ما تقولينه لغو يا عزيزتي.
هزت رأسها:
- إن ما أقوله ليس لغواً، إنها تجارب، ألا تعلم بعدُ أن البراءة في قرننا هذا تعني جريمة وأنها تعاقَب بأشد العقوبات؟ هل يتوجب عليك أن تُعتقل في بلدين مختلفين كي تستطيع فهم هذا الواقع؟ آهٍ منك أيها الحالم المتأمل بالعدالة.. هل لدينا كونياك بعد؟
- لدينا كونياك وبعض المعجنات.
- أعطني من الاثنين، إنه إفطار غريب بلا شك، لكنني أخشى من أنه ما زالت أمامنا حياة مليئة بالمغامرات.
أجبتها وناولتها الكونياك:
- إن إدراكك لهذه الأمور لهو أمر رائع حقًّا.
- إنها الطريقة الوحيدة لاستيعاب الواقع، وهل تريد أن تموت من شدة المرارة والشعور بالفشل؟ إذا استطعت أن تلغي الشعور بالبحث عن العدالة، فعندها يسهل عليك النظر إلى الحياة وكأنها مغامرة.. ألا تصدقني القول؟

أحاطت رائحة إلكونياك المعتقة هيلين وكأنها تحية وجود ذهبي وأخذت تأكل بشهية رائعة.

قلت لها:

- لم أفطن يوماً إلى الحقيقة: أنك ستتعاملين مع الواقع بهذه السهولة!

أجابتني وأخذت تبحث في سلتها عن بقايا خبز أبيض:

- لا تتعب نفسك بالتفكير بي؛ فأنا أستطيع تحمل أكثر مما تظن، ولا تنسَ أن العدالة لا تعني الكثير للنساء كما تعني لكم.

- وما الشيء المهم بنظركن؟

- هذا.

وأشارت إلى الخبز والزجاجة والفطيرة، ثم تابعت:

- كُلْ يا عزيزي، لا تخَف فسنخرج سالمين من هذه المحنة وسيصبح ما تعانيه الآن وبعد عشرة أعوام ذكرى مغامرة، وستسرد وقائعها في الأمسيات على ضيوفنا الذين سيجدونها مملة بلا شك. كُلْ أيها الرجل بالاسم المستعار؛ لأن ما تتناوله الآن يخفف علينا الحمل فيما بعد.

قال شفارتس:

- لا أريد أن أسرد عليك الأمور بالتفصيل؛ فأنت قطعت طريق المهاجرين بنفسك. مكثت أنا بضعة أيام في معتقل الكولومب ونُقلت هيلين إلى إل بيتيت روكيت. ظهر في اليوم الأخير لوجودي هناك مالك الفندق. رأيته من بعيد، فلم يكن يُسمح لنا بالاقتراب من الزائرين. ترك لي كعكة صغيرة وزجاجة كونياك كبيرة، وجدت قصاصة ورق صغيرة في داخل الكعكة كتب عليها: السيدة بصحة جيدة وبمزاج حسن.. ليست في خطر.. تنتظر نقلها في القريب إلى معتقل نساء يقع في جبال البرينيه.. الرجاء إرسال الرسائل على عنوان الفندق. هذا ما أشارت به السيدة. وجدت في طيات هذه الورقة رسالة صغيرة مكتوبة بخط هيلين: لا ترهق نفسك بالتفكير في وضعي. زال الخطر ولا تنسَ أن كل ما يجري

هو جزء من المغامرة. إلى اللقاء القريب.. مع حبي. وهكذا استطاعت هيلين اختراق الحصار، لكنني لم أستطِع تصور الطريقة التي استطاعت بها ذلك. سردت لي هذه الحكاية فيما بعد وقالت إنها أقنعت محققيها بأنه عليها الذهاب إلى الفندق لإحضار بعض الوثائق التي تنقص التحقيق. أُرسلت إلى الفندق برفقة شرطي. تركت الورقة بخطها في يد صاحب الفندق لدى مصافحته وهمست له بالطريقة التي يمكنه بها إيصالها لي، أما الشرطي الذي يبدو أنه يتفهم أمر المحبين فقد غض النظر. لم ترجع إلى التحقيق مصطحبة الوثائق التي وعدت بها، لكنها عادت بقارورة عطر وزجاجة كونياك وسلة مليئة بالطعام.

كانت تحب الأكل! كنت أتساءل دائماً كيف تحافظ على رشاقتها على الرغم من تناولها هذا المقدار كله من الطعام؟ كنت عندما أصحو من النوم ولا أجدها إلى جانبي، في السابق عندما كنا أحرارا، أذهب إلى حيث نضع المؤونة، وهناك أجدها جالسة القرفصاء تقرض بعض قطع اللحم المقدد وقد نسيت بسمة على وجهها، وفي بعض الأحيان أجدها تلعق ما تبقى من الحلوى تكون قد خبأته من بقايا اليوم الماضي. كانت في الغالب تجرع النبيذ من الزجاجة. وهكذا كانت هيلين دائماً كالقطة التي يداهمها الجوع ليلاً.

حدثتني كيف أنها لدى اعتقالها أجبرت الشرطيين اللذين حضرا لاعتقالها على الانتظار، ريثما ينتهي صاحب الفندق من تحضير الفطيرة التي تحبها والتي أصرت على أخذها معها. رضخ الشرطيان مرغمين بعد أن هددت بعدم الذهاب معهما إن لم ينتظرا ريثما ينتهي صاحب الفندق من خبزها. كانت الشرطة تتحاشى الزج بالمعتقلين بعنف داخل سيارات الشرطة. لم تنسَ هيلين أن تأخذ معها محارم ورقية.

نقلنا في اليوم التالي إلى البرينيه وبدأت رحلة الأوديسا المثيرة المليئة بالخوف، السخرية، الهروب، البيروقراطية، اليأس والحب.

12

قال شفارتس:

- ربما أطلق في المستقبل على عصرنا هذا اسم زمن السخرية. لا أعني سخرية القرن الثامن عشر، بل أعني عصرنا هذا، المليء بالشر، عصر التقدم في التقنية وتقهقر الحضارة. لا يصرخ هتلر بكلماته فقط، لكنه يؤمن إيماناً مطلقاً بأنه نبي السلام، وأن الآخرين هم الذين يرغمونه على خوض الحرب. إنه لا يؤمن بهذا وحده فقط، بل يشاركه هذا الإيمان خمسون مليوناً من الألمان. إنه الواقع الذي يشير إلى أنهم أخذوا يتسلحون خلال سنوات عدَّة بينما لم تحاول الشعوب الأخرى التسلح، لن يغير شيئاً من قناعتهم، وهذا السبب بالذات يلغي الدهشة لوجودنا، نحن الفارين من المعتقلات الألمانية، داخل المعتقلات الفرنسية. لا يمكن للمرء أن يدين أمة تناضل من أجل البقاء ويطلب منها أن تحاول إعطاء المهاجرين حقوقهم، وفي وقت تنشغل فيه بأمور أخرى أكثر أهمية. لم نعذب ولم نحرق ولم تطلق علينا النار..

اعتقلنا فقط وماذا نطلب أكثر من ذلك؟

سألته:

- متى التقيت زوجتك ثانية؟

- مضى وقت طويل قبل لقائي بها، هل تعرف معتقل فيرنيه؟

- لا.. لكنني سمعت أنه أقسى المعتقلات الفرنسية.

ابتسم شفارتس بسخرية:

- إنها مسألة نسبية. هل تعرف قصة القريديس الذي وضعوه في قدر مليء بالماء البارد ووضعوه على النار؟

صاح عندما وصلت حرارة الماء إلى الخمسين بأن الحرارة لا

تطاق، وأخذ يندب الوقت الذي كانت فيه حرارة الماء أربعين، وعندما وصلت حرارة الماء الستين أخذ يندب الوقت الذي كانت فيه حرارة الماء خمسين، وعندما وصلت درجة حرارة الماء السبعين أخذ... وهكذا كان.

فيرنيه أفضل ألف مرة من أحسن المعتقلات الألمانية، كما أنه معتقل لا يحتوي على كابينات غازية وعلى تمديدات الغاز السام.. وهكذا نستطيع أن ننقل حكاية القريديس إلى عصرنا هذا.

حنيت رأسي موافقاً ثم سألته:

- لكن ماذا حدث لك بعد ذلك؟

- اقترب الشتاء وبدأ البرد ولم يكن بحوزتنا الأغطية الكافية أو الفحم.. إنها مسألة فوضى، لكن لا تنسَ أن المرء يشعر بعظم المصيبة عند البرد. لا أريد أن أبعث في نفسك الملل بوصفي للمعتقل في أثناء الشتاء. السخرية تبدو رخيصة: فلو وافقنا، هيلين وأنا، على التهمة الموجهة إلينا بأننا نازيان لكان وضعنا أحسن مما كنا عليه، فلقد أودعوا النازيين معتقلات خاصة. رأيت صوراً في عدة جرائد عن المعتقلين النازيين وغير المهاجرين. كان لديهم سكاكين وشوك، مقاعد وطاولات، أسرَّة وأغطية وحتى غرفة طعام خاصة، بينما كنا نتضور جوعاً ونموت برداً ونصاب بحالات إسهال شديدة. كانت الجرائد تفخر بطريقة معاملة بلادها للأعداء، أما نحن فلم يكن من الضروري توخي الحذر تجاهنا؛ لأننا لا نشكل خطراً.

تأقلمت مع الحياة الجديدة وألغيت فكرة العدالة من رأسي، متبعاً بذلك نصيحة هيلين. كنت أجلس في زاويتي من البراكية، الليلة تلو الأخرى، وبعد الانتهاء من عمل مكاني، الذي أعطيت إياه، والذي هو بمثابة كومة من القش طولها متران وعرضها متر، روضت نفسي بالنظر إلى هذه الفترة كمرحلة انتقالية ولا يمكنها أن تصبح في يوم من الأيام جزءاً من حياتي. سارت الأمور على ما هي عليه، وعليَّ أن أتعامل معها

بحذر الحيوان، فالحزن مميت كالدوسنتاريا، والعدالة ليست سوى ترف الأزمنة الهادئة.

سألته:

- هل كنت تؤمن بهذا حقًّا؟

- لا.. لكن كان عليَّ كل ساعة أن أقنع نفسي بهذا من جديد.

كان هذا هو الظلم الصغير مع الذات لا يستطيع المرء تجاوزه بسهولة: إنها الأمور الصغيرة وليست الكبيرة منها. كان على المرء أن يتجاوز كل مضايقات الحياة الصغيرة من تأمين الخبز والعمل الشاق كي لا يضيع في خضم مرارة الأمور الكبرى.

- وهكذا أصبحت تعيش حياة حيوان حذر؟

- عشت هكذا حتى وصلتني أول رسالة من هيلين. وصلتني الرسالة بعد مرور شهرين عن طريق عنوان صاحب الفندق في باريس. كان وقع الرسالة كفتح زجاج نافذة غرفة مليئة بالهواء الفاسد، بالطبع كانت الحياة ما زالت في الجانب الآخر، لكنها موجودة.

أخذت الرسائل تصل بأوقات متفرقة، وفي بعض الأحيان كل أربعة أسابيع. أمر غريب؛ فلقد أخذت هذه الرسائل تغير من صورة هيلين، لكنها كانت تصر عليها في الوقت ذاته. كتبت أن حالتها جيدة وأنها نُقلت مؤخراً إلى أحد المعتقلات وسُلمت عملاً في المطبخ، ومن ثَمَّ في مطعم المعتقل. أرسلت لي مرتين طردين مليئين بالأطعمة ولا أعرف كيف استطاعت ذلك وأي حيل استعملت في الحصول على هذه الأطعمة.

أخذ بعدها يظهر لي من خلال سطور رسائلها وجه آخر لا أعرف مدى قربه للواقع وكيفية أخطائه ومدى تأثير تخيلاتي وآمالي في إكسابه وجهه الحالي.

إنك، بلا شك، تعرف هذه الحالة، وكيف تتضخم الأشياء إلى حجم غير واقعي، خاصة عندما لا يكون في حوزة المرء سوى بعض الرسائل.

يصبح في مثل هذه الحالة وقع جملة كُتبت بكل عفوية كوقع البرق الذي يمكنه هدم وجود كامل، كما تصبح جملة أخرى كُتبت بعفوية أيضاً دفء الحياة ولأسابيع طويلة. وصلتني منها في إحدى الرسائل صورة فوتوغرافية تظهرها واقفة أمام براكيتها إلى جانب رجل وامرأة وكتبت موضحة أنهما فرنسيان ومن الموظفين في إدارة المعتقل.

رفع شفارتس نظره:

- كم تأملت وتفحصت، بتمعن، وجه ذلك الرجل. استعرت عدسة مكبرة من ساعاتي وأخذت أتفحصها بدقة. لم أفهم السبب وراء إرسال هيلين هذه الصورة. إنها بالتأكيد لم تتعمد أمراً من إرسالها أو ربما.. لا أعرف بالتأكيد.. هل تعرف هذا الشعور؟

- من منا لا يعرفه؟ وهم المساجين يعتبر ظاهرة واضحة في المعتقلات.

جاءنا صاحب الحانة بقائمة الحساب وكنا نحن آخر الموجودين.

سأله شفارتس:

- هل يمكننا الذهاب إلى حانة أخرى؟

ذكر لنا صاحب الحانة اسم مكان آخر وقال:

- وهناك تستطيع أن تجد نساء جميلات، بدينات وبسعر بخس.

- ألا توجد حانات أخرى؟

- لا أعرف مكاناً آخر يفتح أبوابه في مثل هذه الساعة المتأخرة.

ارتدى صاحب الحانة سترته وتابع:

- إن شئتما فسأرافقكما إلى المكان؛ فأنا منذ الآن طليق، كما أنني أخشى عليكما من مكر هؤلاء النسوة؛ فأنا أعرفهن وأستطيع أن أحميكم من خداعهن.

- هل نستطيع الجلوس هناك من دون الالتزام بالنساء؟

- من دون نساء؟

نظر إلينا صاحب الحانة نظرة غير مصدق، وبعدها مرت على وجهه ابتسامة سريعة:

- من دون نساء، إنني أفهمك.. بالتأكيد أفهمكما أيها السيدان.. لكن لا يوجد في تلك الحانة سوى نساء.

تابعنا بنظره ونحن نعبر الطريق. كان صباحاً باكراً رائعاً، ولم تكن الشمس قد أشرقت بعدُ وقد عبقت بقوة رائحة البحر. تسللت بعض القطط في تلك الطرقات الصباحية وعبقت من بعض النوافذ المفتوحة رائحة القهوة ممزوجة برائحة النوم. لم نصادف ضوءاً واحداً.

مرت من أمامنا عربة قديمة تتدحرج ببطء، وبدت قوارب الصيد في الميناء وكأنها أزهار صفراء متفتحة ورست إلى جانبها تلك السفينة، شاحبة ساكنة ومن دون أي أضواء.. فلك الأمل.. هبطنا الطريق في اتجاهها.

كان بيت الدعارة عبارة عن غرفة قميئة يائسة، جلست في داخلها بعض النسوة البدينات بملابس مهترئة ورحن يلعبن الورق ويدخنَّ السجائر. قمن بمحاولة عابرة للاقتراب منا ثم تركننا وشأننا. نظرت إلى الساعة فلاحظ شفارتس ذلك:

- لن أطيل عليك الحديث، كما أن القنصليات لا تفتح أبوابها قبل التاسعة.

كنت أعي هذه الأمور كلها، لكنه ربما فاته أن الاستماع والحديث أمران مختلفان جدًّا.

تابع شفارتس حديثه:

- إن عاماً في المعتقل يبدو طويلاً، وفجأة تنظر إليه فتراه أقصر ما ظننته. قمت بمحاولة فرار من المعتقل في شهر يناير، لكنهم عثروا عليَّ بعد يومين ووجه الضابط المسؤول سوطه إلى وجهي. وضعت إثرها في السجن الانفرادي لمدة ثلاثة أسابيع ولم أتلقَّ خلالها سوى

الخبز والماء. أما في المحاولة الثانية فقد قبض عليَّ في الحال وعندها توقفت عن هذه المحاولات؛ فالفار لا يمكنه الاستمرار من دون مؤونة، وهذه لم تكن متوافرة، وكان يصعب الشراء في تلك الأوقات من دون بطاقات تموين. كما أن الفار يصبح عُرضة للاعتقال من قبل أي شرطي يصادفه لعدم حيازته جميع الأوراق المطلوبة. فكرت أيضاً أن الطريق إلى معتقل هيلين طويل جدًّا ولا يمكن اجتيازه من دون هذه الأمور كلها.

تبدل الموقف لدى نشوب الحرب الفعلية في شهر يونيو، التي انتهت بعد نشوبها بأربعة أسابيع. كان معتقلنا يقع في المنطقة التي لم تُحتل بعدُ وتسربت شائعات بأنه يرجح إمكانية حضور لجنة مكونة من الجيش وربما من رجال الجستابو أيضاً لمراقبة أوضاع المعتقل. لا بد أنك تستطيع تصور حالة الذعر التي سيطرت على المعتقلين لدى سماعهم الخبر.

نعم: الذعر، الانتحارات، الالتماسات بإطلاق سراحنا وفوضى البيروقراطية التي كانت تقف عائقاً أمام تحقيق ذلك، حدث العكس في بعض المعتقلات، فقد وُجد بعض الإداريين العُقَّل الذين أطلقوا سراح المعتقلين على عاتقهم الخاص. ألقي فيما بعد القبض على عدد من هؤلاء المعتقلين على الحدود في مرسيليا.

- مرسيليا! ابتعنا، هيلين وأنا، في تلك المدينة السم.. كبسولات صغيرة أعادت لنا الراحة القدرية. ابتعتها من أحد الصيادلة الذين كانوا في المعتقل. ابتعت كبسولتين.. لا أعرف المادة التي تحتويان عليها، لكنني وثقت بكلامه واقتنعت بأن مفعولهما يهيئ موتاً سريعاً وغير موجع. أكد لي البائع أن محتويات الكبسولتين كافية لشخصين. باعني إياهما خوفاً من بقائهما في حوزته وخطر تناوله إياها في ساعات الصباح الباكر: ساعات اليأس وقبل أن يتسرب ضوء النهار. اصطففنا كالحمام الذي ينتظر إطلاق النار عليه وجاءتنا الهزيمة مباغتة وسريعة.. لم يكن أحدنا

يتوقع قدومها بهذه السرعة. لم نكن نعلم بعدُ أن بريطانيا دخلت حلف سلام مع ألمانيا وكان كل ما فكرنا به هو: الهزيمة.

قام شفارتس بحركة واهنة بيده ثم تابع:

- والآن لا نعرف بعدُ إن كنا سنُهزم أم لا. أُبعدنا من المعتقل إلى الشاطئ ولم يبقَ أمامنا سوى البحر.

فكرت في البحر وفي السفن التي ما زالت تمخر عباب اليم.

دخل في تلك الدقيقة صاحب الحانة السابقة وألقى علينا تحية ساخرة ثم همس بكلمات للعاهرات البدينات فتقدمت منا إحداهن وكانت تحمل صدراً عملاقاً.. سألتنا ساخرة:

- وكيف تقومان بذلك؟

- بماذا؟

- لا بد أنه مؤلم جدًّا.

سألها شفارتس حائراً:

- ماذا؟

- الجنس.

صاح القواد الواقف في الباب وكادت أسنانه الكبيرة تتساقط من شدة الضحك: إنها تعني ممارسة البحارة للجنس وهم في عرض البحر.

- كذب عليك ذلك الوضيع.

قلت ذلك للمرأة التي جاءتنا برائحة صحية للحياة، مزيج من الثوم، زيت الزيتون، البصل، العرق والحياة.

- إننا لسنا من ممارسي الشذوذ، لكننا وُلدنا في أثناء حرب الحبشة، وكما تعلمين فإنهم يخصون ذكور الأجانب في تلك البلاد.

- هل أنتما إيطاليان؟

- كنا ذلك في السابق، لكن المخصيين لا ينتمون إلى شعب معين.. إنهم أمميون.

فكرت المرأة بما قلته لها ثم أجابت:

- إنه لأمر غريب حقًّا.

تركتنا واتجهت وهي تهز قفاها العريض جدًّا إلى حيث يقف القواد الذي أكرمها على الفور بصفعة قوية من يده.

قال شفارتس:

- إنها مسألة غريبة حقًّا، مسألة انعدام الأمل، يستوطن في داخلنا ذلك الشعور بعمق. ذلك الشعور الذي لا يعود يقوى على البوح بكلمة الأنا والذي يريد فقط أن يبقى على قيد الحياة، يبقى من ضمن الوجود فقط. عندها يدخل المرء مرحلة يصفها البحارة كالتالي: نقطة يشوبها هدوء ريح كامل لدى هبوب إعصار قوي.. تكون هذه هي أعمق نقطة في الإعصار. يسلم المرء في مثل هذه الحالة أمره للقدر ويصبح كالصرصار، الذي يوهم الناظر إليه بأنه ميت على الرغم من عدم وجود الموت.. يقلع المرء، عند وصوله إلى هذه النقطة، عن بذل أي طاقة في السعي بقصد البقاء.. يصبح يقظاً، مركِّز التفكير، ويصل إلى المرحلة القصوى من السلبية.. إنها الحالة التي لا يستطيع فيها المرء استنزاف أية طاقة لديه في الوقت الذي يلفه الإعصار الهائج من جميع الجهات ويحكم عليه الطرق كسور منيع. ينعدم في مثل هذه الحالة الخوف واليأس، بل يصبحان ترفاً لا يسمح المرء لنفسه به؛ فالطاقة التي يمكن أن يبذلها في سبيلهما ستنقص من ماهية البقاء، وبالتالي تتصنعها. عندها يسدل المرء الستار على هذه الأفكار.. لا يتعدى المرء في مثل هذه الحالة كونه عيناً ترقب واستعداداً سلبيًّا، ويغمره صفاء غريب. كان يراودني في تلك الفترة شعور ملح بأنني كاهن آسيوي يلغي ما لديه من حواس تجاه ذاته كي...

اختنق صوت شفارتس، فسألته بشيء من السخرية:

- كي تبحث عن الله؟

هز شفارتس رأسه بالنفي:

- إنك تقصد بلا شك: كي أجد الإله.

إن الإنسان دائم البحث عنه، لكنه في بحثه هذا يشبه رجلاً يود السباحة وهو يرتدي العديد من الثياب ويحمل السلاح والعتاد. لا! على الإنسان في بحثه هذا أن يكون عارياً تماماً كما تعريت أنا في تلك الليلة التي عبرت خلالها الحدود؛ حيث خلفت الغربة الآمنة ورائي وسعيت للدخول إلى وطني المحفوف بالأخطار.. عبرت الراين وكان كأنه تيار قدر وشريط حياة ضيق يضيئه القمر. كانت ذكرى تلك الليلة ترافقني باستمرار في ليالي المعتقل. لم تكن ذكراها تضعفني، بل على العكس كانت تزودني بالقوة. حاولت جاهداً تقبل ما أملت به عليَّ حياتي.. لم أكن فاشلاً، فلقد وهبت حياة ثانية مع هيلين.. حياة هبة سقطت عليَّ من السماء.

أما شبح اليأس الذي كان يتراقص في مخيلتي فقد كان سبب وجوده هو حياتي الثانية هذه: باريس، هيلين، وذلك الشعور الصعب إدراكه، ألا وهو عدم الشعور بالوحدة، أن هيلين تحيا في مكان ما، ربما مع رجل آخر، لكنها حية.. كم يصبح هذا الشعور عظيماً في زمن تصبح فيه حياة الإنسان لا تساوي أكثر من حياة نملة تحت حذاء.

صمت شفارتس فسألته:

- هل وجدت الله؟

كان سؤالاً قاسياً، لكنه بدا لي فجأة ذا أهمية كبيرة ولم يسعني إلا طرحه عليه.

أجاب شفارتس:

- وجه في مرآة.

- وجه من؟

- إنه الوجه ذاته.. هل تعرف وجهك أنت، وجهك الذي اكتسبته منذ ولادتك؟

نظرت إليه مجروحاً وتنبهت إلى أنه استعمل المصطلح ذاته قبل قليل.. كرر كلامه:

- وجه في مرآة.. الوجه الذي يطل عليك من فوق كتفك وخلفه يقف الوجه الآخر، وهكذا.. وفجأة تشعر بأنك نفسك المرآة بتكرارها الأبدي.. لا، أنا لم أجد الإله.. وما المكتسبات التي سنحصل عليها لو وجدناه؟

- علينا كي نجده أن نتخلى عن إنسانيتنا، أما البحث فهو مسألة مختلفة تماماً.

ابتسم:

- كما أنه لم يبقَ لديَّ الوقت والقدرة الكافية للبحث. وصلت في تلك الفترة إلى منحدر سحيق ولم أعد أفكر بشيء سوى ذلك الشخص الذي أحب.. أصبحت أتعيش من هذا الشعور، وتركت التفكير بالله والعدالة، وبهذا أغلقت الدائرة حولي وعدت إلى تلك الحالة ليلة عبوري النهر. أعادت الحادثة نفسها ولم أعد أفكر إلا في ذاتي.. يصبح الإنسان عاجزاً أمام اقتحام هذا الإحساس عالمه ولا يستطيع القيام بعمل حياله.. حتى بعض التفكير يدخل صاحبه في ضياع كبير، ولا أظن أن المرء في حاجة إليه، فالأحداث تسير وتعدل بعضها البعض. يُشعر الإنسان نفسه في مثل هذه الحالة بأنه عائد من عزلة البشرية الساخرة إلى قانون الحدث المبهم؛ حيث يتم الحدث كما هو معد له ويتحرك المرء فقط عندما تلامس كتفه تلك اليد الخفية اللينة وتدفعه إلى الأمام، عندها لا يحتاج المرء إلا إلى أن يصبح تابعاً: يسير من دون طرح الأسئلة، وهنا بالذات تكمن الحماية.. لا بد أنك تظن أنني أتحدث حديثاً غامضاً.

هزت رأسي بالنفي:

- لا؛ فأنا أعرف مثل هذه المواقف التي تحدث في لحظات الخطر الكبير. أعرف بشراً تعرضوا وعاشوا هذه اللحظات خلال الحرب، تركوا

مخابئهم التي أصبحت، بعد دقيقة من تركهم إياها، مقابر جماعية. لم يعرفوا السبب في تركهم إياها، على الرغم من أن هذه المخابئ كانت، بحكم المنطق، آمنة ألف مرة أكثر من القبر المفتوح الذي لجؤوا إليه.

تابع شفارتس:

- قمت باللامعقول، وبدا لي الأمر وكأنه أكثر أمور العالم طبيعية: حقبت أمتعتي ذات صباح وتركت المعتقل وسرت في الطريق العام. لم أحاول في هذه المرة اتباع الطرق المعهودة في الهرب والتسلل ليلاً، بل تركت المعتقل تحت ضوء الصباح الجلي واتجهت إلى بوابة المعتقل الرئيسة وأخبرت الحارس أنه أطلق سراحي ثم أخرجت من جيبي بعض النقود وناولتها للحارسين كي يبتاعا بعض النبيذ ويشربا نخبي. كانت هذه المحاولة جريئة وبعيدة كل البعد عن الشك، فمن كان يظن أن هنالك الشخص الذي يمتلك الوقاحة ويترك المعتقل في وضح النهار؟ أما الحارسان، وهما شابان من فلاحي المنطقة فقد نسيا أن يسألاني عن الوثيقة التي تثبت إطلاق سراحي.

مشيت الطريق الأبيض على مهل.. لم أحاول الركض، على الرغم من أن بوابة المعتقل بدت لي وأنا على بعد عشرين متراً منها كفك تنين يزحف ببطء ورائي ويحاول ابتلاعي.. أعدت جواز سفر المتوفى شفارتس بهدوء إلى جيبي بعد أن كنت قد أخرجته لأريه للحراس بطريقة سطحية وسريعة. عبقت رائحة الطريق بالزعتر وارتبطت هذه الرائحة في أعماقي بالحرية.

انحنيت بعد فترة وقمت بحركة وكأنني أشد ربطة حذائي ونظرت من بين أرجلي إلى الخلف.. كان الطريق خاوياً ولم أرَ أحداً يتعقبني، عندها نهضت وحثثت الخطى.

لم تكن في حوزتي جميع الوثائق المطلوبة في ذلك الوقت. كنت أتكلم الفرنسية وأخذت آمل أن يظن من يصادفني أنني أتكلم إحدى

لهجات مناطق فرنسا، خاصة أن البلاد كلها كانت تعيش حالة تجوال. كانت مدن الريف الصغيرة تعج باللاجئين القادمين من المناطق المحتلة، وامتلأت الطرقات بالعربات والسيارات بكل أنواعها التي حملت بالأسرَّة والأمتعة وأعداد هائلة من الجند الفارين.

وصلت إلى مطعم صغير له حديقة صغيرة تتوسطها بعض الطاولات وله في الخلف بستان وأشجار مثمرة، أما المطعم فكان عبارة عن غرفة، رصفت أرضه بالبلاط وعبقت منه رائحة نبيذ وخبز طازج وقهوة.

قامت على خدمتي فتاة حافية القدمين، أعدت الطاولة ووضعت عليها غطاء نظيفا، وإبريق قهوة وكوبين، وطبق عسل وخبزا. كانت هذه المائدة، بلا شك، مائدة مترفة لتلك الأوقات ولم أرَ لها مثيلاً منذ مغادرتي باريس. كانت تمر متثاقلة في الخارج ومن وراء سياج الحديقة المغبر، قوافل العالم المتكسر، وتوقفت في ظلال الأشجار بقعة سلام صغيرة مرتجفة، مصحوبة بأزيز النحل وضوء الصيف الذهبي. أحسست بأنه عليَّ أن أشرب ذلك الضوء وذلك السلام بقصد اختزانه، تماماً كما يختزن الجمل الماء استعداداً لمسيرة طويلة وسط الصحراء، أغمضت عيني وأخذت أتحسس الضوء وشربت..

13

شاهدت شرطيًّا يقف على رصيف المحطة، استدرت محاولاً العودة على الرغم من تأكدي أن نبأ اختفائي لم يعمم بعدُ.. قررت أن أتحاشى القطار في هذه الفترة.. نكون في أثناء وجودنا في المعتقل بشراً لا قيمة لوجودنا، وفجأة نصبح ذوي أهمية كبيرة عندما نفر وننجو..

تكون كسـرة خبز يابسـة كثيرة علينا في أثناء وجودنا في المعتقل، لكن عندما نفر منه تجنَّد فرقة كاملة من الشرطة للبحث عنا، وعندها لا يسأل أحد عن تكاليف هذه العملية.

وافق سائق شاحنة على أن يصطحبني في شاحنته.. قطعت بشاحنته قسـماً مـن الطريـق وكان فـي أثنائهـا يشـتم الحرب والألمـان والحكومة الفرنسـية والحكومة الألمانية والله.. قاسـمني طعامه، ثم تركته وسـرت الطريق العام في اتجاه محطة القطار التالية. تعلمت، خلال غربتي الطويلة، أنه يتوجب على الفار عدم الاختباء كي لا يثير حوله الشكوك؛ لذا توجهت إلى شباك التذاكر وطلبت شراء تذكرة درجة واحدة أولى، تردد الموظف فتوقعته أن يسألني عن أوراق ثبوتية؛ لذا صحت به.

دهش الموظف من رد فعلي وحار في أمره، لكنه سرعان ما ناولني التذكـرة. جلسـت بعدهـا فـي مقهـى المحطة وانتظرت سـاعة إلى موعد مغادرة القطار الذي وصل حقيقة لكن بتأخير يفوق الساعة. تمكنت من الوصول إلى معتقل هيلين بعد ثلاثة أيام. صحت بالألمانية بوجه شرطي حاول أن يوقفني وأظهرت له جواز سفر شفارتس. تراجع خائفاً ثم تركني وشأني وهو سعيد بأنني تركته يمضي من دون عتاب.. كان السبب في إخافتي له جواز السفر النمساوي، خاصة بعد أن أصبحت النمسا جزءاً من ألمانيا وأصبح مثل هذا الجواز يعادل هوية الجستابو.

كم هو غريب مدى ما يحققه جواز سفر شخص متوفى باستطاعته التوصل إلى نجاحات يعجز عنها إنسان حي.. قطعة الورق المطبوعة هذه!

كان عليَّ أن أتسلق جبلاً مليئاً بالأشجار والزعتر وغيره من الأعشاب للوصول إلى معتقل هيلين. وصلت إلى حدود المعتقل من بعد ظهر ذلك اليوم ووجدته محاطاً بسور من الأسلاك الشائكة، لكنه لم يبدُ مهجوراً كمعتقل فيرنيه، وربما السبب في ذلك كونه معتقل نساء. كانت النساء المعتقلات مرتديات أثواباً زاهية وقد ربطن رؤوسهن بقطع قماش ملونة، الأمر الذي أعطى المعتقل وجهاً بعيداً عن الضيق. استطعت رؤية هذه الأمور كلها من الغابة القريبة التي اختبأت فيها. أرخى مظهر المعتقل هذا من عزيمتي، فلقد توقعت أن أجد المعتقل بائساً مقفراً وأنني سأكون دون كيشوت الذي سيحرر قلعة القديس جورج. شعرت فجأة أن نزيلات المعتقل لسن بحاجة لمساعدتي وأن المعتقل مكتفٍ بما لديه.. لا بد أن هيلين نسيتني منذ زمن، إن كانت تقيم حقًّا في هذا المعسكر.

مكثت في مخبئي منتظراً الفرصة كي أجمع بعض المعلومات التي أستطيع من خلالها تقرير ما سأفعله. مع بداية الغروب اقتربت امرأة من الأسلاك وما لبث أن تبعها عدد من المعتقلات. اصطف عدد كبير من النساء وراء الأسلاك.. وقفن صامتات من دون أن يتبادلن الحديث. كن ينظرن بعيون لا ترى شيئاً؛ فالحرية التي كن يسعين لرؤيتها لم تكن موجودة. تحول لون السماء إلى الأرجواني وما لبثت النساء أن تحولن إلى ظلال فقدت ألوانها وأحجامها الفعلية وكأنهن وجوه شاحبة غير محددة الأشكال في صف غير منتظم لأشباح خلف الأسلاك. بعدها تفرق ذلك الصف وأخذت الواحدة تعود أدراجها تلو الأخرى بعد أن تخطين ساعة اليأس.

أخبرتني هيلين، فيما بعد، أن هذه الساعة كانت تحمل اسم ساعة اليأس. بقيت امرأة واقفة خلف الأسلاك. اقتربت منها بحذر وخاطبتها

بالفرنسية:

- لا تخافي!

ردت عليَّ بعد فترة:

- أخاف؟ وممَّ أخاف؟

- أريد أن أسألك مطلباً.

- لست بحاجة أن تطلب مني شيئاً أيها الخنزير، ألا توجد مادة أخرى داخل عظامكم الحقيرة؟

حملقت بها مندهشاً:

- ماذا تقصدين؟

- لا تتظاهر بغباء ليس له وجود لديك.. اذهب إلى الجحيم حيث تستطيع تفجير كل رغباتك، ألا توجد لديكم نساء في القرية؟ ألا تحسنون القيام بعمل آخر غير الوقوف هنا أيها الكلاب البائسة؟

عندها فقط فهمت ما كانت تعنيه، قلت:

- إنك مخطئة في تصورك، أريد فقط أن أتحدث إلى امرأة موجودة في هذا المعتقل.

- هذا ما تقولونه جميعاً.. لماذا تريد رؤية امرأة واحدة فقط؟ لماذا لا تطلب رؤية امرأتين أو ثلاث في آن واحد أو ربما رؤيتهن جميعاً؟

- اسمعي! إن زوجتي موجودة هنا وأريد أن أكلمها.

- وأنت أيضاً!

ضحكت المرأة، لكن ضحكتها لم تُشِر إلى كونها غاضبة بل بدت متعبة ثم تابعت:

- حيلة جديدة! تأتوننا في كل أسبوع بخدعة أخرى.

- إنني هنا للمرة الأولى.

- إنك تبدو نشيطاً جدًّا للمرة الأولى، اذهب إلى الجحيم.

عندها كلمتها بالألمانية:

- أريدك أن تبلغي خبراً لامرأة في هذا المعتقل وتقولين لها إنني موجود هنا.. إنني ألماني وكنت معتقلاً أيضاً في فيرنيه.

أجابت المرأة بهدوء:

- يا له من شخص! يجيد الألمانية أيضاً، أيها الألزاسي الملعون! ليلتهمك الزهري أيها النذل، أنت وكل رفاقك الذين يتسللون ليلاً إلى هنا.. ليقضِ عليكم السرطان واحداً واحداً.. ماذا تبغون منا؟ هل فقدتم الحس أيها الخنازير؟ ألا تشعرون بهول ما تفعلون؟ دعوننا وشأننا.. دعونا وشأننا!

قفزت عائداً إلى مخبئي عندما سمعت وقع أقدام نسوة مهرولات إليها. قضيت الليل في الغابة لأنني لم أكن أعرف مكاناً أذهب إليه. جلست بين جذوع شجر وأخذت أنظر إلى القمر الذي توسط السماء وأحالها إلى دائرة ضوء فضية محاطة بضبابية الخريف.

هبطت في الصباح إلى القرية ووجدت شخصاً وافق على استبدال لباسي بلباسه كعامل كهرباء. عدت إلى المعتقل وأوضحت للحراس أنني موفد من الشركة لمراقبة الأسلاك الكهربائية. كانت لغتي الفرنسية جيدة على ما يبدو ولم تُثِر لديهم الشك، علاوة على أنهم لم يكونوا يتوقعون دخول امرئ لمعتقل بمحض إرادته.

سرت بحذر طرقات المعتقل، كانت النسوة يقمن في براكيات أشبه بالصناديق الكبيرة وتفصل الواحدة عن الأخرى ستائر قماشية، قسمت هذه البراكيات إلى طابقين: علوي وسفلي، يتوسطهما ممر ضيق أحيط من الجانبين بستائر أيضاً. لم تكن جميع هذه الستائر مسدلة، وهكذا استطعت رؤية بعض هذه البراكيات من الداخل: بدت كغرف رجال فضاء بدائية، زودت بالحاجيات الضرورية القصوى وعُلقت على الجدران صور مختلفة. مررت من بين البراكيات، فتوقفت النسوة عن العمل وأخذن يحملقن بي، سألتني إحداهن:

- هل جئتنا بأخبار جديدة؟

- نعم، لديَّ خبر لامرأة تدعى هيلين.. هيلين باومان.

فكرت المرأة قليلاً بينما انضمت إليها امرأة أخرى:

- أليست هيلين هي تلك النازية النذلة التي تعمل في المطعم وتمارس العهر مع الطبيب؟

قلت:

- إنها ليست نازية.

أجابت المرأة الأولى:

- المرأة التي تعمل في المطعم ليست نازية وأظن أن اسمها هيلين.

سألتها:

- هل يوجد نازيون هنا؟

- بالتأكيد، فهنا تختلط الأشياء كلها، لكن أخبرنا إلى أين وصل الغزو الألماني؟

- لم أرَ منهم أحداً بعدُ.

- يقال إن هناك لجنة عسكرية ستزور المعسكر.. هل سمعت شيئاً من هذا القبيل؟

- لا.

- يقال إن اللجنة ستأتي لتحرير النازيين الموجودين في المعتقل، كما أننا سمعنا أن فريقا من الجستابو سيرافقهم.. هل سمعت شيئاً من هذا القبيل؟

- لا.

- يقال إن الألمان لا يهتمون بالمناطق التي لم تحتل من قِبَلهم بعدُ.

- إن هذا يليق بهم.

- ألا تعرف شيئاً عن هذه الأمور كلها؟

- أظن أنها شائعات فقط.

- من مرسل الخبر؟

ترددت قليلاً قبل الإجابة:

- من زوجها الذي أصبح حرًّا.

ضحكت المرأة الثانية:

- لا بد أنها ستصاب بالذهول.

سألتها:

- هل باستطاعتي دخول المطعم؟

- ولِمَ لا؟ فأنت فرنسي.

- لا، بل من منطقة الألزاس.

سألتني المرأة الثانية:

- هل أنت خائف؟ هل تخاف من أمر تخبئه؟

- هل يوجد في هذه الأيام بشر لا يخفون أموراً عدَّة؟

أخذت المرأة الثانية تتأملني وكأنني جاسوس وقد أحاطها عطر الربيع كغيمة.

قلت لها:

- شكراً لكما، أين الطريق المؤدي إلى المطعم؟

أشارت المرأة الأولى إلى الطريق المؤدي إليه.. سرت في الطريق وسط تلك البراكيات وكأنني أسير على درب زُرع بالحديد المدبب وقد امتلأ جانبا الطريق بوجوه وعيون متفحصة.. أحسست بأنني أسير وسط تجمهر لنساء الأدغال. وصلت إلى الطريق الرئيسي للمعتقل ومعه جاء النور ورائحة المعتقل التعبة، التي تهيمن على كل معتقل كطلاء اللازورد.

أحسست أنني أعمى، لم أفكر يوماً بالتزام هيلين أو عدم التزامها، فلقد كان هذا الموضوع أمراً ثانويًّا. حدثت أمور كثيرة واستمرت فكرة البقاء على قيد الحياة هي الأهم، التي دفعت بدورها الأمور الأخرى كلها وأودعتها الظل. كانت فكرة عدم التزام هيلين تؤرقني في بعض الأحيان

فـي أثنـاء إقامتـي فـي المعتقـل، لكنه كان قلقاً أو مجرد فكرة وتصور من خلقي، أخلقها ثم أطفئها وما ألبث أن أبعثها ثانية.. وهكذا.. أما الآن فقد وقعت وسط زميلاتها اللاتي رأيتهن مصطفات في الليلة الماضية خلف الأسلاك.. أراهن اليوم للمرة الثانية: نساء جائعات شهوة، يعشن بمفردهن ومنذ شـهور طويلة.. احتفظن بأنوثتهن على الرغم من الاعتقال، وربما كان هذا هو السبب الذي زاد في تأكيد ذلك.. وهل بقي لهن شيء آخر؟

توجهت إلى المطعم وتنبهت إلى امرأة حمراء الشعر، يغطي وجهها النمش، وقفت وسط عدد من بائعات المواد الغذائية.. سألتني:

- ماذا تريد هنا؟

غمزت لها بعيني وقمت بحركة من رأسي وتنحيت جانباً. تفحصت، بنظرة خاطفة كالبرق، زبائنها، ثم همست:

- سألقاك بعد خمس دقائق! سيئة أم سارة؟

عندها فهمت ما تعنيه.. إنها تسألني إن كانت الأخبار التي أحملها سيئة أم سارة.

رفعت منكبي حائراً ثم قلت:

- حسنة.

خرجت من المطعم. تبعتني المرأة بعد فترة إلى الخارج وأوضحت:

- علينا أن نتوخى الحذر.. لمن تحمل الأخبار؟

- هيلين باومان.. هل هي هنا؟

- لماذا؟

صمتت وتأملت النمش الذي يغطي أنفها وعينيها القلقتين.

سألتها:

- هل تعمل هيلين في المطعم؟

- ماذا تريد منها؟ هل تريد معلومات عنها؟ عامل ميكانيكا! لحساب من تعمل؟

- أعمل لصالح زوجها.

أجابت المرأة بحرارة:

- سـألني في المرة الأخيرة شـخص عن امرأة السـؤال ذاته، وبعد ذلك بثلاثة أيام حضر من اصطحبها معه.. اتفقنا على أن تبعث لنا بخبر، إن كانت الأمور قد سارت على ما يرام، لكننا للأسف لم نسمع عنها شيئاً.

- إنك بلا شك ميكانيكي مزيف!

قلت:

- نعم، فأنا زوجها.

أجابت المرأة:

- وأنا جريتا جاربو!

- لكن ما الذي يدفعني لسؤالك غير كوني زوجها؟

- لقد تعددت الأسئلة عن هيلين باومان، وكانت تأتينا هذه الأسئلة عن هيلين في أغلب الأحيان من أشـخاص مشـبوهين.. هل تريد معرفة الحقيقة؟ إن هيلين باومان توفيت.. هذه هي الحقيقة. ظننت أنك ستزودنا بأنباء جديدة عن الحالة خارج المعتقل!

- هل توفيت حقًّا؟

- نعم، والآن دعني وشأني..

قلت:

- لا، إنها لم تمت، فالنساء في البراكيات يعرفن أكثر مما تعرفين.

- لا تنسَ أن النساء ثرثارات.

نظرت إلى تلك المرأة بشعرها الأحمر:

- هل باسـتطاعتك تسـليمها رسـالتي؟ سأغادر الآن، لكنني سأترك لها رسالة.

- لماذا؟

- ولِمَ لا؟ الرسالة لا تعني الخطر، إنها لا تميت أحداً ولا تلقي

عليه القبض.

- لا، لكن منذ متى جئت إلى هنا؟

- منذ فترة قصيرة، لكن هل بإمكانك بيعي ورقة وقلماً؟

أشارت إلى منضده صغيرة:

- إليك الاثنين، لكن لماذا تصر على أن تبعث برسالة إلى شخص فارق الحياة؟

- لأن هذا ما يحصل يوميًّا في عصرنا هذا؟

كتبت على قطعة ورق: هيلين.. إنني هنا خارج المعتقل.. سألقاك الليلة أمام الأسلاك، إنني أنتظرك.

لم أحاول أن ألصق المظروف.. سألت المرأة:

- هل ستسلمينها الرسالة؟

- هناك العديد من المجانين في أيامنا هذه!

- هل ستقومين بذلك أم لا؟

- لا!

وضعت الرسالة على المنضدة ثم قلت:

- لا تتلفيها على الأقل.

لم تجب، فتابعت:

- سأعود لأقتلك لو وقفتِ حائلاً دون وصول هذه الرسالة إلى يد زوجتي..

- وهل من أمر آخر؟

سألتني المرأة بعينيها الخضراوين المبسطتين اللتين توسطتا وجهها المستهلك. هززت رأسي بالنفي.. وقبل أن أخرج من الباب استدرت وسألتها:

- أليست هيلين موجودة هنا الآن؟

حملقت بي المرأة ولم تجب، فقلت:

- سأبقى في المعتقل لمدة عشر دقائق أخرى ثم أعود إلى هنا لأطرح عليك هذا السؤال ثانية.

سرت وسط طريق المعتقل الضيق.. لم أصدق ما قالته المرأة. فكرت في أن أبقى داخل المعتقل فترة قصيرة ثم أعود إلى المطعم، لكنني أحسست فجأة بأن المعطف رفع حمايته عني وأصبحت إنساناً عملاق الجسم، مرئيًا، أعزل السلاح ويحاول الاختباء، ولم أفطن إلى نفسي إلا وقد دخلت أحد الأبواب وبادرني صوت امرأة بالسؤال:

- ماذا تريد هنا؟

أجابها صوت من جانبي:

- أرسلتني الشركة للتأكد من سلامة الإمدادات الكهربائية.. هل لديكم عطب ما؟

- لا يوجد أي عطب هنا، ولكن لا يلغي هذا أن التمديدات في وضع سليم.

نظرت إليَّ المرأة فرأيتها ترتدي صداراً أبيض، سألتها:

- هل هذا هو المستشفى؟

- إنها براكية المرضى.. هل أنت موظف جديد هنا؟

- لا، لكن شركتي أوفدتني لمراقبة التمديدات الكهربائية هنا.

قالت المرأة:

راقب ما تريده.

دخل رجل بلباس رسمي:

- هل من جديد؟

أوضحت له المرأة بالصدار الأبيض سبب وجودي. نظرت إلى الرجل وخلت أنني رأيته من قبل.

- تمديدات كهربائية؟ إننا بحاجة إلى الفيتامينات والأدوية!

ثم تناول قبعته، رمى بها على المنضدة وخرج. قلت للمرأة بالصدار

الأبيض:

- جميع التمديدات هنا بحالة جيدة، لكن من هذا الشخص؟

- الطبيب.. ومن سيكون؟ الآخرون لا يهتمون بهذه الأمور.

- هل عدد المرضى هنا كثير؟

- نعم.

- والأموات؟

نظرت إليَّ:

- لماذا تريد معرفة عدد الموتى؟

- لم أقصد بسؤالي إحراجا، لكن ما السبب وراء شعور عدم الثقة السائد في المعتقل؟

- إنها مزاجية فقط أيها الملاك الطاهر، الهانئ بوطنك وبجواز سفرك، لا، نحن لم نسجل حالة وفاة واحدة منذ شهر.. أما من قبل فكان العدد كبيراً..

تسلمت رسالة من هيلين قبل أربعة أسابيع، هذا يعني أنها ما زالت على قيد الحياة.

- شكراً.

سألتني المرأة بحرارة:

- وهل قدمت لك شيئاً تشكرني عليه؟ الأولى بك أن توجه شكرك إلى والديك اللذين أمَّنا لك وطناً تستطيع أن تحبه على الرغم من المأساة التي يعيشها، والذي، على الرغم من ذلك، يعتقل تعساء ليسلمهم لحيوانات مفترسة للانقضاض عليهم. يعدهم ليسلمهم لهؤلاء الحيوانات الذين هم السبب في تعاسته.. والآن حاول أن تضيء المزيد من النور.. فأمنيتي الكبرى هي أن يدخل النور إلى بعض الرؤوس.

سألتها على عجل:

- هل زارتكم لجنة ألمانية؟

- لماذا تريد معرفة ذلك أيضاً؟
- سمعت شائعات تتوقع زيارة هذه اللجنة لكم.
- لا، لكنني أحاول أن أنذر أحد الأشخاص الموجودين هنا.
انتفضت السيدة وسألتني:
- من؟
- هيلين باومان.
تأملتني مليًّا ثم سألتني:
- وممَّ تريد أن تنذرها؟
- هل تعرفينها؟
- لماذا؟
عاد حائط الشك من جديد يقف حائلاً بيني وبين المعتقلات ولم أفهم سبباً لذلك إلا فيما بعدُ.
قلت:
- إنني زوجها.
- هل تستطيع إثبات ذلك؟
- لا؛ فأنا أحمل جواز سفر مزيفاً، لكن ربما تكفيك معرفة الحقيقة بكوني لست فرنسيًّا.
ثم أخرجت لها جواز سفر المتوفى شفارتس.
- إنه جواز سفر نازي!! هذا ما توقعته. لماذا قدمت إلى هنا؟
نفد صبري فقلت:
- جئت لرؤية زوجتي.. إنها هنا.. وصلتني عدة رسائل من هذا المعتقل.
- هل الرسائل لديك؟
- لا! مزقتها قبل هروبي، لكن لماذا هذه السرية كلها؟
- هذا ما أريد معرفته، لكن منك.

دخل الطبيب الغرفة وسأل الممرضة:

- هل لديك عمل هنا؟

- لا.

- رافقيني إذاً في جولتي.

ثم سألني:

- هل انتهى عملك هنا؟

- لا، لكنني سأعود غداً لإتمامه.

عدت إلى المطعم فرأيت المرأة ذات الشعر الأحمر تقف وسط مجموعة من الزبائن.. وقفت أنتظر ريثما تنتهي من بيعهن الملابس الداخلية، وأحسست أن الحظ يهرب مني. تيقنت أنه عليَّ أن أترك المكان في الحال، هذا إن كنت أريد الخروج سالماً من هذا المعتقل، كما أنني تذكرت أن الحراس سيُستبدلون، وعندها يتوجب عليَّ إيضاح سبب دخولي من جديد للحراس الجدد.. لم أرَ هيلين، بينما تحاشت المرأة النظر إليَّ وأخذت تطيل الحديث مع المشتريات. لم يلبث أن قدم فوج آخر من المشتريات ورأيت ضابطاً من خلال النافذة.. عندها غادرت المطعم، فوجدت الحراس القدامى، فلم يكونوا قد استُبدلوا بعد، تذكروني وسمحوا لي بمغادرة المكان دون تعقيدات. سرت بعد أن هيمن عليَّ شعور الخوف.. الشعور ذاته الذي انتابني عندما غادرت فيرنيه وشعرت بأن الحراس سيلحقون بي ويلقون القبض عليَّ.. تبلل جسدي بالعرق.

رأيت شاحنة تصعد الطريق متثاقلة ولم تكن أمامي إمكانية غير الاستمرار في السير على محاذاة الطريق وقد صوبت نظري إلى الأسفل. عبرتني الشاحنة، لكنها ما لبثت أن توقفت. قاومت التجربة ولم أهرب؛ فالسيارة تستطيع أن تغير مجرى سيرها وتلحق بي، وهذا يعني استنزاف الإمكانية المتبقية لي. سمعت وقع خطى مسرعة خلفي وناداني أحدهم:

- أيها الميكانيكي!

استدرت ورأيت رجلاً مسنًّا مرتدياً بزة يقترب مني ثم بادرني بالسؤال:

- هل تفهم في ميكانيكا السيارات؟

- لا، فأنا مجرد عامل كهرباء.

- ربما توقف المحرك نتيجة عطب في مفتاح تشغيل المحرك. هل بإمكانك إلقاء نظرة؟

ثم خاطبني مساعد السائق:

- لِمَ لا، ألقِ نظرة على المحرك.

رفعت نظري.. لم يكن مساعد السائق سوى هيلين، التي وقفت وراء الشرطي تحملق بي وقد وضعت إصبعها على فمها. كانت ترتدي بنطالا وسترة واشتد نحولها.

- لماذا لا تلقي نظرة على المحرك؟

كررت رجاءها للمرة الثانية وأفسحت لي مكاناً كي أمر من أمامها. تمتمت:

- حذارِ! قم بعملك وكأنك تفهم بميكانيكا السيارات.. لا يوجد أي عطب.

لحق بنا الشرطي متهادياً، سألتني هامسة:

- من أين قدمت؟

فتحت غطاء المحرك الصدئ..

- هربت.. كيف أستطيع الالتقاء بك؟

انحنت وكأنها تريد رؤية المحرك:

- إنني أقوم بشراء لوازم المطعم من القرية. سنلتقي بعد غد في المقهى الأول على يسار الشارع.. في التاسعة صباحاً.

- وقبلها؟

سأل الشرطي:
- هل سيطول أمر إصلاحها؟
أخرجت هيلين علبة سجائر من جيب بنطالها وقدمته للشرطي:
- بضع دقائق فقط.. لا خطورة في الأمر. أشعل الشرطي سيجارة وجلس على حافة الطريق. سألتني هيلين بينما كنت ما زلت منحنياً فوق المحرك:
- سأراك في الغابة إلى جانب الأسلاك؛ فأنا كنت هناك بالأمس.
- هل ستأتين الليلة؟
ترددت لحظة:
- حسنا الليلة، لكن لا أستطيع المجيء قبل العاشرة.
- وما السبب؟
- لأن الأسلاك تكون ملأى بالنساء.. الليلة بعد العاشرة إن لم نلتقِ فسنبقى على موعد صبيحة بعد الغد.. كن حذراً.
- ما طريقة معاملة الشرطة هنا؟
اقترب منا الشرطي فبادرته هيلين بالفرنسية:
- الأمر ليس خطيراً.. سينتهي في الحال.
قلت له:
- إنها سيارة قديمة جدًّا.
ضحك الشرطي:
- لا تنسَ أن السيارات الجديدة هي دائماً من نصيب الوزراء والأغنياء.. هل انتهيت؟
أجابته هيلين:
- نعم.
قال الشرطي:
- من حسن حظنا أننا التقيناك؛ فأنا لا أفهم عن السيارات سوى

أنها تسير بواسطة البنزين.

ارتقى الشرطي السيارة وتبعته هيلين ثم أدارت المحرك:

- شكراً لك.

قالتها وانحنت نحوي وقالت شفتاها بعض الكلمات غير المفهومة ثم صاحت:

- إنك مهني بارع.

وانطلقت بالشاحنة.

وقفت لبضع ثوانٍ وسط غيمة من دخان الزيت المحترق. لم أتحسس شيئاً، شأني شأن من ينتقل فجأة من حرارة عالية إلى برد قارس. فكرت فيما بعدُ، وبينما كنت أسير بحالة ميكانيكية، جاءت مع التفكير القلق، تذكرت ما سمعته اليوم وبدأ عذاب الشك المرتجف الخافت يحفر في داخلي. استلقيت في الغابة وانتظرت.. انتظرت أمام حائط المبكى، كما تسميه هيلين، الذي امتلأ بالنساء الصامتات الناظرات إلى الليل كالعميان.. وبعد فترة طويلة أخذن يتفرقن عندما حلَّ الظلام. نظرت إلى أعمدة الأسلاك الحديدية التي بدت كالظلال، ثم ظهر بعد فترة من بينها ظل جديد.

همست هيلين:

- أين أنت؟

- هنا!

تحسست طريقي إليها ثم سألتها:

- هل تستطيعين الخروج؟

- انظر! سآتيك فيما بعد، عندما تغادر آخر امرأة المكان.

عدت وتسللت إلى ما بين الأشجار؛ حيث لا يستطيع أحد رؤيتي في حال تسليط ضوء على المكان. استلقيت على الأرض وشممت رائحة أوراق الشجر الميتة. هبت ريح خفيفة وتناهى إليَّ صوت حفيف الأوراق

وكأنـه زحـف آلاف الجواسـيس.. اعتـادت عينـاي تدريجيًّا على الظلام، ورأيت شـبح هيلين ووجهها الشـاحب، لكنني لم أسـتطِع التعرف على ملامحه. بدت وكأنها نبتة سوداء انبثقت منها زهرة بيضاء، وما لبثت أن رأيتها شبحاً بلا اسم مقبلا من أزمنة مظلمة، هذا الواقع في عدم تعرفي إلى وجهها جعلني أرى وجهها كوجه أي شبح آخر من معذبي هذا العالم. شاهدت إلى جانب شبح هيلين شبح امرأة أخرى، ثم ثالثة ورابعة. وقفن جميعهن كالأفاريز فوق رؤوسهن سماء مليئة بالحزن والأمل.

كان من الصعب احتمال المشهد، فأشحت بنظري، وعندما عدت أنظـر إليهـن وجدتهـن وقـد برحـن المكان بصمت، بينما جلسـت هيلين القرفصاء وأخذت تشد الأسلاك.

قالت:

- أبعد لي هذه الأسلاك عن بعضها بعضاً.

دُسـت بقدمي على السـلك السـفلي ورفعت بيدي السلك العلوي.

همست هيلين:

- انتظر..

سألتها:

- وأين ذهبت النساء الأخريات؟

- عدن إلى الداخل. كانت إحداهن نازية؛ لذلك لم أستطِع التسلل من قبل، إنها لو رأتني فستشي بي في الحال.

كانت تلك هي المرأة الباكية..

خلعت هيلين قميصها وتنورتها وناولتني إياهما.

- نعاقب إن وجدت ثقوب في ثيابنا، وهذه آخر ما أملك.

ذكرنـي الموقـف بحـال العائـلات الفقيرة: يفقد جرح ركبة أحدهم أهميته أمام شق في ثوبه.. الجرح يلتئم، لكن من أين لهم النقود ليبتاعوا ثوباً جديداً؟

تحسست الثياب بيدي.. انحنت هيلين انحناءة شديدة للأمام وتسللت بحذر بين الأسلاك.. خرجت من بينها حاملة جرحاً على كتفها وسال منها الدم الأسود فبدا وكأنه أفعى سوداء طويلة نحيلة تزحف على جلدها، نهضت فسألتها:

- هل نستطيع الفرار؟

- إلى أين؟

لم أعرف جواباً عن سؤالها.

- إلى أين؟ إلى إسبانيا أو البرتغال أو ربما أفريقيا.

- تعالَ ودعنا من هذا الحديث، فلا أحد يستطيع الفرار من هنا من دون أوراق، وهذا هو السبب وراء عدم الحراسة المشددة هنا كما ترى.

مشت أمامي في الغابة، شبه عارية: غريبة جميلة. بدت وكأنها طيف تبقى لي من هيلين زوجتي الماضية، طيف يكفي لأتحسسها بعذاب وحلاوة. طيف من الماضي: ارتجف جسده وتكور في حالة شوق ورغبة. شعرت بأن هذا الطيف هو شخص هبط من تلك الأعمدة المنقوشة، محاط بغربة تسعة أشهر.. فترة زمنية تعني أكثر من عشرين عاماً من وجود منظم رتيب.

14

اقترب منا صاحب الحانة الذي رافقنا إلى هنا وأوضح بجدية:

- إن البدينة تلك امرأة رائعة.. فرنسية.. شيطان ماهر.. تستحق الإشارة إليها، أيها السيدان! نساؤنا البرتغاليات نازيات، لكنهن سريعات جدًّا وإنني أودعكما الآن، لكن سأقول كلمة قبل انصرافي: لا توجد متعة أكبر وأجمل من تنقية دم فرنسية؛ فالفرنسيات يفهمن الحياة جيداً ولا يحتاج المرء للكذب عليهن كما نلزم به تجاه نسائنا.. أتمنى لكم عودة موفقة للوطن أيها السيدان. ابتعدا عن لوليتا ويوانا؛ فالاثنتان لا تستحقان المحاولة، كما أن لوليتا لصة محترفة، تحاول السرقة في الظروف كلها.

تركنا وعندما فتح الباب ليخرج، قفز الصباح للداخل وامتلأ المكان بضجيجه، قلت:

- علينا أن نذهب نحن أيضاً.

أجاب شفارتس:

- لم يبقَ لي الكثير لأسرده، كما أنه ما زال لدينا بعض النبيذ.

ثم طلب نبيذاً وقهوة للنساء الثلاث الجالسات كي ينعم براحة مؤقتة، ثم تابع:

- كانت ليلة لم نتكلم فيها إلا القليل.. فرشت سترتي واستلقينا عليها وعندما اشتد البرد تدثرنا بثياب هيلين. غطَّت هيلين في نوم ثم استيقظت وشعرت لفترة أنها تبكي، لكنها لم تلبث أن عادت رقيقة مداعبة وعلى نحو لم أعهده فيها من قبل. لم أسألها ولم أخبرها عمَّا سمعته في المعتقل في صبيحةِ ذلك اليوم. كنت أحبها كثيراً، لكنني شعرت في الوقت ذاته أنني بعيد عنها.. امتزج بالرقة حزن زاد من رقتها.. أحسست كأننا نستلقي ملتصقين في الجانب الآخر وبعيدين بعداً لا يمكننا العودة

منه أو التقدم في اتجاه أي هدف.. كان كل ما شعرت به هو تحليق البقاء ونحن ملتصقان في ظل شعور كبير من اليأس. نعم هذا ما كان يهيمن علينا: اليأس.. يأس صامت تسيل فيه قطرات دموعنا، ظلال دموع غير منتحبة لمعرفة أكيدة بالزوال؛ حيث لا ارتقاء بعدها ولا عودة أيضاً.

- ألا تستطيعين الفرار؟

سألتها للمرة الثانية وقبل أن تعود لتتسلل من بين الأسلاك إلى الداخل. لم تجبني إلا بعد أن أصبحت في الجانب الآخر من الأسلاك.. همست:

- لا أستطيع، فغيري سيتلقى العقاب إن أنا هربت، وهذا ليس عدلاً. عد إلى هنا مساء الغد.. هل تستطيع القدوم إلى هنا مساء الغد؟

- إذا لم يلقَ القبض عليَّ.

حملقت بي ثم قالت:

- ماذا حل بحياتنا؟ وماذا اقترفنا كي تؤول حياتنا إلى ما أصبحت عليه؟

ناولتها ثيابها وسألتها:

- هل هذه الثياب هي أحسن ما لديك؟

حنت رأسها بالإيجاب.

- شكراً لك لأنك ارتديتها.. إنني متأكد من وجودي هنا في مساء الغد.. سأحاول الاختباء في الغابة.

- عليك أن تأكل.. هل لديك بعض الطعام؟

- لديَّ القليل منه وسأبحث في الغابة عن بعض التوت البري والفطر.

- هل بإمكانك تحمل الجوع حتى مساء الغد؟ سآتيك عندها ببعض الطعام.

- بالطبع سأتحمل ولا تنسي أن الصباح قد اقترب.

- لا تأكل الفطر، فربما بينه فطر سام. لا تقلق فسأحمل لك في الغد طعاماً كافياً.

ارتدت ثيابها: تنورة زرقاء بلون السماء نثرت عليها زهرات بيضاء صغيرة.. أخذت ترتدي ثيابها على طريقة المحاربين وهم يستعدون للقتال ثم قالت بيأس:

- أحبك.. أحبك أكثر مما يمكنك يوماً معرفته.. لا تنسَ هذا.. لا تنسَه أبداً..

كانت هذه كلماتها عند كل وداع.. أصبحنا في ذلك الوقت كالحيوانات البرية: تطاردنا الشرطة الفرنسية التي تحاول بذلك إثبات انضباطها ويطاردنا رجال الجستابو الذين يحاولون الدخول إلى المعتقلات على الرغم ممَّا يقال من أن هناك اتفاقية بين المحتلين والحكومة الفرنسية الحالية تمنع حدوث هذا التدخل. لم نكن نعلم أي جهة من هاتين الجهتين ستلقي القبض علينا؛ لذا أصبح كل وداع في الصباح يعني الوداع الأخير.

كانت هيلين تأتيني بالخبز والفاكهة وفي بعض الأحيان بقطع من الجبن والسجق. لم أجرؤ على الذهاب إلى القرية للسكن هناك. حاولت أن أرتب أمور معيشتي في الغابة، وجعلت من زاوية مهدمة لدير قديم مسكناً لي. كنت أمضي النهار هناك في النوم وقراءة ما كانت تأتيني به هيلين، أو أجلس وأرقب، من بين الأشجار، الطريق المؤدي إلى المعتقل. كانت هيلين تأتيني أيضاً بالأخبار وتسرد عليَّ الشائعات وأغلبها تؤكد اقتراب الألمان أكثر وأكثر غير عابئين بالاتفاقيات. كانت الحياة - على الرغم من ذلك كله - حياةً مرعبةً، وكان الخوف يتجلى في كثير من الأحيان على شكلِ توتر عصارات المعدة. لكن الاعتياد على التطلع إلى الحياة من خلال الساعة التي عيناها، كان هو المنتصر دائماً. أما الطقس فكان جميلاً وكانت سماء الليل تعج دائماً بالنجوم. أحضرت هيلين في

إحدى المرات قماش خيمة، كنا نفرشها على الأرض ونستلقي عليها لنصغي إلى أصوات الليل الخفية.

سألتها في إحدى المرات:

- كيف تتدبرين أمورك وتخرجين كل ليلة لهذه الفترة الطويلة؟

أجابت بعد فترة:

- إنني في مركز الثقة، وهذا يعطيني الحماية. رأيت بأم عينيك كيف أستطيع النزول إلى القرية بين الحين والآخر.

- وهل تتمكنين من تزويدي بالطعام من خلال هذا المركز؟

- إنني أبتاعه من المطعم.. يسمح لنا بشراء الطعام إذا توافر لدينا المال الكافي وإذا وجد بعض الطعام أيضاً.

- ألا تخافين أن يراكِ أحد هنا ويشي بك؟

ابتسمت:

- عندها أخاف عليك فقط، أما أنا فماذا يمكن أن يحصل لي؟ هل نسيت أنني من سكان السجون؟

لم تحضر في مساء اليوم التالي.. تفرق حائط المبكى كعادته، اقتربت من الأسلاك ونظرت إلى البراكيات السوداء القابعة في ظل ضوء خفيف.. انتظرتها، لكنها لم تأتِ.. سمعت صوت الليل من خلال حركات النساء اللاتي كن يذهبن إلى المرحاض المشترك ومن خلال تنهداتهن، فجأة رأيت أنواراً ساطعة لسيارات تصعد الطريق.

أمضيت النهار كعادتي مختبئاً في الغابة وقد سيطر عليَّ جو من التوتر. أخذت أفكر بما سمعته في اليوم الأول لزيارتي المعتقل وكم كان غريباً. كيف أخذت نتائج الذي سمعته تأخذ طابعاً عكسيًّا؛ فبدلاً من أن تكون تلك الأمور مبعثاً للمخاوف أخذت تعطيني العزاء والطمأنينة. الاحتمالات كلها تفقد أهميتها أمام احتمال مرض هيلين أو إبعادها أو موتها. بقيت هذه الاحتمالات الثلاثة متلازمة في أفكاري واتحدت في

كل واحد لأن نتائجها واحدة، كانت حياتي بلا مخرج، وكل ما أصبح يهمني منها هو ألا أفقدها وأحاول أن أهرب معها من وسط هذا الإعصار إلى خليج هادئ.. وعندها ربما نستطيع أن ننسى الأهوال التي مرت بنا.

قال شفارتس:

- لا، لا يمكن نسيانه على الرغم من كل الحب والثقة والطيبة والرقة.. كنت متأكداً من ذلك وأنا مستلقٍ في الغابة أحملق في جثث أوراق الشجر الميتة الملونة وهي في عملية انفصال عن أغصانها. كنت أفكر وأنا أنظر إليها: يا إلهي دعها تحيَ!! أبقها على قيد الحياة ولن أسألها يوماً عمَّا مرَّ بها؛ فحياة المرء أعظم بكثير من أن تؤثر عليها هذه الملابسات.. دعها تحيَ ولو استمرت حياتها من دوني...

دعها تحيَ بمعزل عني ولكن دعها تحيَ!

لم تأتِ هيلين في الليلة التالية، وشاهدت سيارتين تصعدان الطريق المؤدي إلى المعتقل.. تسللت إلى حافة الطريق وتبينت بزات من فيهما، لكنني لم أستطِع تمييزها.. هل هي بزات رجال الجستابو أم الجيش؟ تأكدت من أمر واحد: أنهم ألمان، وهكذا أمضيت ليلة مرعبة.. وصلت السيارات في حوالي التاسعة، وغادرت المعتقل بعدها بساعة فقط. زاد قدوم هذه السيارات في أثناء الليل من تأكدي أنها لن تكون سوى سيارات تابعة لقوات الصاعقة.

لم أستطِع تبيان إن كانوا قد اصطبحوا معهم لدى مغادرتهم بعض ساكني المعتقل.. هِمتُ - بكل ما تحتوي هذه الكلمة من معانٍ - على الطريق طوال الليل.. حاولت في صباح اليوم التالي دخول المعتقل مرة ثانية كوني ميكانيكيًا، لكنني وجدت أن عدد الحراس قد تضاعف وقد أمسك أحدهم، مرتدياً لباساً مدنيًا، لائحة أسماء بيده.

بان ذلك النهار وكأن نهايته أصبحت مستحيلة.. وجدت لدى اقترابي من الأسلاك، وربما للمرة المائة، طرداً صغيراً لُف بجريدة واحتوى على

كسرة خبز، وتفاحة، وورقة كُتب عليها: مساء اليوم. لكنها لم تكن تحمل توقيعاً.. أكلت الخبز وأنا جالس على ركبتي من شدة الإعياء ثم غفوت ولم أصح إلا بعد الظهر.. كان نهاراً صافياً ممتلئاً بالضوء الذهبي كلون النبيذ وقد ازداد لون أوراق الشجر كثافة.. ارتفعت أمام مخبئي شجرتا صفصاف اخترقتهما أشعة الشمس الدافئة، فبدتا وكأن رساماً خفيًّا قد أحال ألوانها الصفراء والحمراء في أثناء نومي إلى مشاعل مشعة لا حراك فيها، تقف متوهجة وسط سكون تام.. لم تتحرك فيها ولا حتى ورقة واحدة..

قاطع شفارتس نفسه:

- أرجوك ألا تفقد صبرك من جرَّاء وصفي المسهب للطبيعة؛ فلقد اتخذت بالنسبة لي، إبان ذلك الوقت، أهمية كأهميتها للحيوانات. كانت هي الوحيدة التي لا ترفضنا ولا تطالبنا بجواز سفر ولا وثيقة إثبات أصالة جنسنا الآري. كانت الطبيعة تعطي وتأخذ، لكنها بقيت بمنأى عن الأمور الشخصية، وموقفها هذا كان له مفعول الدواء.. لم أقُم بأي حركة من بعد ظهر ذلك اليوم؛ فلقد كنت أخاف على نفسي من الطفح تماماً كوعاء يطفح بما فيه من ماء. رأيت فجأة بعدها مئات من أوراق الأشجار تهبط سابحة وسط سكون ريح تام وكأنهم يهبطون استجابة لأمر خفي، انزلقت.. أدركت في تلك اللحظة حرية الموت وعزاءها الكبير.. علمت، من دون أن أتخذ قراراً، أنني أمتلك نعمة إنهاء حياتي إذا أصاب هيلين أي مكروه وأنني لست مرغماً على العيش وحيداً بعدها.. امتلأت بهذه النعمة التي أعطيت للبشر لتعادل فيضاً من حب يزيد على طاقتهم.. أدركته من دون التفكير به وشعرت في أثناء إدراكي لهذه الحقيقة، عبر حاسة بعيدة، أنه لم يعد من الضروري جدًّا اللهاث وراء الموت.

لم تكن هيلين بين المصطفين خلف حائط المبكى، لكنها جاءت بعد أن تفرَّق الصف. كانت ترتدي بنطالاً قصيراً وقميصاً. ناولتني - من

خلال الأسلاك - زجاجة نبيذ وطرداً وبدت في زيها غير العادي، فتية جدًّا، قالت:

- إليك كَأساً أيضاً.

- تسللت بخفة ورشاقة من بين الأسلاك.

- لا بد أنك تموت من الجوع.. ابتعت من المطعم بعض الحاجيات، التي لم أرَها منذ مغادرتنا باريس.

- عطر!

قلت لها ذلك، لأنني شممت رائحتها المنعشة كتلك الليلة. هزت رأسها فتنبهت إلى أنها قصت شعرها على نحو أقصر مما كان عليه. سألتها وشعرت فجأة بالغضب:

- ماذا هنالك؟ هل حدث أمر ما؟ ظننت أنهم اصطحبوكِ معهم وأنكِ ربما أصبحتِ في عداد الموتى.. وها أنت تأتيني الآن وكأنك خارجة لتوِّك من صالون تجميل.. هل قمت بطلاء أظافرك أيضاً؟

رفعت يديها وضحكت:

- قمت بذلك بنفسي، لكن دعنا الآن نشرب بعض النبيذ.

- ماذا حدث؟ هل كان رجال الجستابو في المعتقل؟

- لا، لكن لجنة من جيش الدفاع، وقد رافقهم رجلان من الجستابو.

- هل أخذوا أحداً معهم؟

- لا، والآن ناولني النبيذ.

لاحظت عليها التوتر.. كانت يداها وبشرتها جافة توحي بأنها ستتشقق بين اللحظة والأخرى.

قالت:

- حضروا إلينا كي يعدوا لائحة بأسماء النازيين الموجودين في المعتقل كي يعيدوهم إلى ألمانيا.

- هل هناك العديد من النازيين بينكم؟

- العدد الكافي.. لم نكن نتوقع يوماً وجود هذا العدد الكبير منهم بيننا.. كانت بينهم امرأة أعرفها جيداً.. أعرفها معرفة حميمة، انبرت هذه المرأة فجأة من بين صفوف المعتقلين وأعلنت أنها تنتمي للحزب الذي مدَّته خلال هذه الفترة الطويلة بكثير من المعلومات وترغب في العودة إلى الوطن؛ لأنها لم تعد تستطيع تتحمل المعاملة غير الإنسانية التي تعامَل بها. كانت علاقتي بها حميمة جدًّا وهي تعرف.. شربت هيلين على عجل وناولتني الكأس.. سألتها:

- ماذا تعرف؟

- لا أستطيع الآن تحديد ما تعرفه.. كنا نجلس معاً في الليالي الطويلة حيث يسترسل المرء في الحديث.. إنها تعرف من أنا.

رفعت رأسها على شكل فجائي:

- لن أعود.. سأقتل نفسي لو حاولوا إجباري على العودة.

- لست بحاجة لقتل نفسك، كما أنهم لن يأتوا لاصطحابك. لا بد أن جورج موجود في مكان ما، لكنه لا يمكنه معرفة جميع الأمور. وما هدف هذه المرأة من الوشاية بك؟

- عدني أنك لن تدعهم يأخذوني معهم.

- أعدك بذلك.

لم أستطع الإجابة إلا على هذا النحو؛ فلقد كانت هيلين في قمة التوتر وأصبح لزاما عليَّ أن أستبدل بوهني قوةً خارقة.

قالت بصوتها المتهدج من شدة التوتر:

- إنني أحبك، أحبك.. وعليك أن تتذكر هذه الحقيقة مهما تبدلت الظروف.

- إنني أصدقك.

قبلتها.. أحببتها وأنا مصدق وغير مصدق ما تقوله في الوقت ذاته. اتكأت إلى الوراء منهكة، قلت لها:

- علينا أن نرحل، وفي هذه الليلة.
- إلى أين؟ هل جواز السفر بحوزتك؟
- نعم؛ فلقد سرقه لي أحد الذين كانوا يعملون في المكتب الذي تودع فيه أوراق المعتقلين. - لكن أين جواز سفرك؟
لم تجب.. حملقت أمامها ثم قالت:
- توجد في المعتقل عائلة يهودية مؤلفة من رجل وامرأة وطفلهما.. اعتقلوا قبل عدة أيام.. طفلهما مريض، وتقدموا بطلب للجنة للسماح لهم بالعودة إلى ألمانيا. سألهم الضابط إن كانوا يهودا فأجابوه بأنهم ألمان ويريدون العودة، حاول الضابط أن يسألهم أسئلة أخرى، لكنه عاد وتوقف عن ذلك لوجود رجلين من الجستابو. كرر الضابط سؤاله لهم:
- هل تريدون العودة حقيقة؟
فأجابه أحد رجال الجستابو:
- اكتب في الوثيقة أيها الضابط أننا سنلبي طلبهم إن كانوا يعيشون حياة الحنين هذه، وهكذا دوَّن أسماءهم ولم يستطع أحد منا إقناعهم بالعدول عن فكرتهم. إنهم يرفضون النصائح، مؤكدين أنهم لا يستطيعون الاستمرار على هذا الحال، خاصة أن الطفل يرزح تحت وطأة مرض شديد ولقناعتهم بأن رجال الصاعقة سيأخذون بقية اليهود عمَّا قريب؛ لذا من الأفضل لهم - حسب اعتقادهم - إعلان رغبتهم بالعودة. إنهم متأكدون من وجودهم في الفخ؛ لذا عليهم أن يتطوعوا بالعودة. أصبحوا كالحمير الصم؛ لذلك أريدك أن تتحدث إليهم.
- أنا؟ وماذا عساي أن أقنعهم؟
- حدثهم عن معتقلات التعذيب التي كنت فيها، وكيف أنك هربت من ألمانيا للمرة الثانية بعد أن عدت إليها.
- ماذا سأقول لهم؟
- انتظر.. سآتيك بالرجل، إنه موجود على مقربة من هنا. أخبرته

بوجودك وربما تستطيع أن تنقذه.

عادت بعد ربع ساعة بصحبة رجل هزيل، أخذ يتمنع التسلل من بين الأسلاك. وقف في الجانب الآخر للأسلاك يستمع إليَّ، بينما وقفت قبالته وأخذت أحدثه ولم تلبث أن انضمت إلينا زوجته، شاحبة ولم تنبس بكلمة.

أُلقي القبض عليه وعلى عائلته قبل عشرة أيام وفُصل الاثنان وأودع كل واحد منهما في معتقل آخر. هرب الرجل وعثر، بأعجوبة، على زوجته التي كانت في أثناء اقتيادها تكتب اسمها على حافة كل شارع تمر به.

نظر إليَّ شفارتس وسألني:

- إنك تعرف بلا شك ألفيا دي لاروزا.. طريق الآلام!

ومن لا يعرفه.. يمتد من بلجيكا إلى البرينيه.. نشأ مع نشوء بدايات الحرب وبعد دخول الجيوش الألمانية بلجيكا. عندها بدأت موجة الهرب الكبرى.. اتخذ الهرب في البداية شكل سيارات بكل أنواعها وأحجامها والمحملة بالمؤن والأمتعة ولم يلبث أن ظهر عليه مختلف أنواع المركبات، الدراجات، عربات تجرها الأحصنة، وعربات يجرها البشر، وخلفهم صفوف لا نهاية لها من الفارين خوفاً من قاذفات قنابل ستوكا.

بدأت، في تلك الأيام الحارة من صيف فرنسا، جحافل المهاجرين تسير متجهة إلى الجنوب. كانت فترة ظهور ما عُرف فيما بعد بجرائد الشوارع، وكتبت على زاوية كل شارع الإعلانات التي تحتوي على طلبات النجدة، ملاحظات الأشخاص الذين يبحثون عن ذويهم.. كتبت هذه الملاحظات بالفحم والطبشور والألوان، أو حفرت بالحجر.. كان لدى المهاجرين والفارين من وجه الشرطة سلسلة من الأماكن للالتقاء وتبادل المعلومات.. سلسلة تمتد من نيس إلى نابولي ومن باريس إلى

زيوريخ. كان يوجد في هذه الأماكن بشر مستعدون لإيصال الأخبار وتبادل المعلومات وإسداء النصائح وتوفير أمكنة للنوم.. عثر هذا الرجل على زوجته عن طريق هذه الأماكن.. وإلا لما استطاع العثور عليها كاستحالة العثور على إبرة في كومة قش.

تابع شفارتس:

- علل الرجل سبب عودته إلى ألمانيا بأنه سيعاد فصله عن زوجته وطفله بعد ثلاثة أيام، وذكرني بأنه موجود في معتقل نساء وأنه لا يستطيع تحمل الانفصال عنهما من جديد؛ لذا فمن الأفضل لهم العودة معاً.

حاولوا الفرار لكنهم فشلوا في ذلك، وقاربوا على الموت جوعاً. الطفل مريض وزوجته وصلت إلى مرحلة متقدمة من الإرهاق، كما أنه فقد القوة على المتابعة.

- إنهم سيأتون ويسوقونا تبعاً لحاجتهم ومزاجهم كما تساق الحيوانات إلى قاعة الذبح.

سألني:

- لماذا لم يسمحوا لنا بمغادرة البلد عندما كان أمامنا متسع من الوقت للقيام بذلك؟

قال هذه الكلمات رجل رقيق، شفاف، له وجه نحيل وشارب صغير أسود.

لم يكن أحدنا يدري جواباً عن سؤاله.. لم يكن مرغوباً بنا ولم يكن مسموحاً لنا بالمغادرة: هذا هو التناقض غير المعقول الذي انبثق مع انهيار أمة.. لم يعر غير المعقول هذا انتباه هؤلاء الذين كان بإمكانهم تغيير مجرى الأحداث.

وصلت إلى المعتقل بعد ظهر اليوم التالي شاحنتان، وامتلأت الأسلاك في تلك اللحظة بالحيوية، أخذ عدد من النساء يساعدن بعضهن بعضاً في التسلل من بين الأسلاك ثم اختبأن في الغابة.

مكثت في مخبئي إلى أن لمحت هيلين. قالت:

- أنذرنا المقدم بأن الألمان قادمون ليأخذوا معهم من يريد العودة.. سمح لنا بالاختباء في الغابة ريثما يغادرون؛ لأنه لا يمكنه التنبؤ بما سيحدث.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى هيلين في أثناء النهار، إضافة إلى الدقائق الأولى التي قابلتها فيها على الطريق المؤدي للمعتقل. اصطبغ وجهها وساقاها الطويلتان باللون البني، لكنها نحلت كثيراً.. ازدادت عيناها اتساعاً وازداد وجهها نحولاً.

قلت لها:

- إنك تزودينني بالطعام وتتضورين جوعاً.

أجابت:

- لديَّ ما يكفي من الطعام.. لا تقلق عليَّ.

أدخلت يدها في جيبها وأخرجتها وفي داخلها قطعة من الشوكولاته:

- تمكنت بالأمس من شراء فطيرة وعلبة سردين، لكن الخبز كان مفقوداً.

سألتها:

- هل سيذهب الرجل الذي تحدثتِ إليه مع الألمان؟

- نعم.

ارتجف وجه هيلين فجأة ثم قالت:

- لن أعود معهم! لن أعود أبداً. لقد وعدتني بذلك. لا أريدهم أن يعتقلوني..

- لن يقبضوا عليك.

غادرت السيارات المعتقل بعد ساعة من وصولها، وأخذت النسوة الجالسات داخلها ينشدن وحملت الريح كلمات نشيدهن: ألمانيا، ألمانيا فوق الجميع. أعطيت في تلك الليلة نصف المادة السامة التي كانت

بحوزتي والتي كنت قد ابتعتها في الفيرنيه. عرفت هيلين في اليوم التالي أن جورج عرف مكانها. سألتها:

- من قال لك ذلك؟

- عرف أحدهم الأمر.

- من؟

- طبيب المعتقل.

- ومن أين وصلته المعلومات؟

- من قائد المعسكر الذي جاءه سؤال بهذا الصدد.

- هل أشار لك الطبيب بنصيحة عمًّا يتوجب عليك القيام به؟

- إنه يستطيع أن يخبئني في براكية المرضى، لكن ليس لوقت طويل.

- عليك إذاً مغادرة المعتقل، لكن قولي لي من وجَّه الإنذار للنسوة وأشار عليهن بالاختباء بالغابة؟

- المقدم.

- حسناً.. حاولي الحصول في الغد على جواز سفرك وورقة إطلاق سراح. ربما يستطيع الطبيب مساعدتك، أما إذا لم يستطِع ذلك فلا يبقى أمامنا سوى الفرار. احزمي أمتعتك التي تريدين حملها ولا تخبري أحداً بذلك. سأحاول أن أكلم المقدم الذي يبدو أنه يحمل في داخله روحاً إنسانية.

- إنها خطوة جريئة، كن حذراً.. كن حذرا بحق السماء.

نظفت بزة الميكانيكي بالقدر المستطاع وتركت الغابة في الصباح وتوجهت إلى باب المعتقل. أدخلت في حساباتي أنه ربما أوقفت من قبل دوريات ألمانية أو شرطة فرنسية، لكن هذا واقع عليَّ أن أعتاد عليه من الآن وصاعداً. تمكنت من الامتثال لدى المقدم بعد أن فاجأت الشرطي والكاتب بحقيقة كوني ميكانيكيًّا ألمانيًّا أرسلت بهدف تفحص الإمدادات الكهربائية التي ستستعمل لأهداف عسكرية. يستطيع الإنسان اجتياز مآزق

كبيـرة عندمـا يقـوم بعمـل غير متوقَّع.. كان الشـرطي سـيعتقلني حتماً لو أخبرته بأنني لاجئ؛ فهذه العينة من البشر لا تمتثل إلا للصراخ. حاول المقـدم أن يطردنـي خـارج غرفتـه عندمـا أخبرته بحقيقة أمري، لكنه عاد وضحك لوقاحتي ثم قدم لي سيجارة وقال لي أن أذهب إلى الجحيم، فهو سيحاول تناسي الحقيقة بأنه رآني أو سمع عني شيئاً، وأكد لي بعدها بعشـر دقائق أنه لا يسـتطيع مسـاعدتي لأنه يعتقد أن لدى الألمان لوائح بأسماء المعتقلين وسيحملونه مسؤولية فقدان أحدهم، كما أنه لا يوافق على أن ينهي حياته في أحد معتقلات النازيين.

قلت له:

- يا حضرة المقدم.. إنني أعلم أنك قمت على حماية بعض النساء المعتقـلات، وأعـرف أيضـاً أنهـن يمتثلن لأوامرك، لكننا نعلم، أنت وأنا، أن فرنسا تعيش فوضى الهزيمة وأن التقيد بالأوامر في مثل هذا الوقت سيصبح عيباً مشيناً، وأن الفوضى التي تتحول إلى وحشية لن تجد لنفسها تبريراً فيما بعد. لماذا تصر على إبقاء بشـر أبرياء في قفص على الرغم من عدم قناعتك بتسليمهم لمعتقلات التعذيب ولغرف حرق الجثث؟ لا أجادلك في أن فرنسا، في الفترة التي كانت تقف فيها موقف الدفاع عن الذات، كان لها الحق، ولو بصعوبة، في الزج بالأجانب في المعتقلات بغض النظر إن كان هؤلاء الأجانب يؤيدون أو يناوئون المعتدين، لكن الحرب انتهت منذ زمن، وحضر لبضعة أيام جند المنتصرين واسترجعوا الأشخاص المنتمين إلى حزبهم. إن جميع من تبقى لديك هم ضحايا، يميتهم الخوف يوميًّا في انتظار سوقهم إلى مراكز الموت. إنني أتوسل إليـك باسـم هـؤلاء الضحايـا وربمـا أتوسـل إليـك من أجـل أحد هؤلاء الضحايا. إن كنت تخاف اللوائح، فسجل اسم زوجتي في عداد الفارين ولا مانع عندي، إن دونت اسمها في لائحة الموتى.. تستطيع أن تعلنها كمنتحرة وعندها لن توجه إليك أصابع الاتهام.

نظر إليَّ طويلاً ثم قال:

- يمكنك أن تأتيني في الغد.

لم أبرح مكاني وقلت له:

- لا أعرف بأيدي من سأقع في الغد.. لماذا لا تقوم بمساعدتي اليوم؟

- عد لي بعد ساعتين؟

- سأنتظر أمام باب غرفتك، فأنا لا أعرف مكاناً أكثر أماناً منه الآن.

ابتسم فجأة:

- عجيب أمر الحب! إنك متزوج ومفروضة عليك حياة عازب بينما يكون العكس في الغالب.

تنفست الصعداء.. انتظرت في الخارج ولم تمضِ ساعة على مقابلتي إياه حتى دعاني إلى غرفته ثانية.

قال:

- تكلمت مع مدير المعتقل بالهاتف وأكد لي أنه تم السؤال عن زوجتك، سنتبع اقتراحك ونعلن نبأ وفاة زوجتك.. عندها تستطيع أن ترتاح ونحن أيضاً.

حنيت رأسي موافقاً، لكني شعرت فجأة بخوف بارد يزحف إلى داخلي.. ربما بعض من بقايا الاعتقاد بالخرافات التي تصر على عدم استحلاف القدر.

- لكن ألم أسجَّل منذ زمن بعيد في لائحة الموتى وها أنا أعيش منذ ذلك الوقت بأوراق شخص متوفى؟

قال لي الضابط:

- ستنتهي جميع الإجراءات غداً.

أجبته:

- أتوسل إليك أن تنهي هذه الأوراق اليوم؛ فأنا ما زلت أذكر أنني

قضيت عامين كاملين في المعتقل لأنني تأخرت في الفرار ليوم واحد.

فجأة شعرت بالإعياء والتعب ولا بد أنه هو أيضاً لاحظ ما بي. أصبح لوني رماديًّا ولم يبقَ بيني وبين الإغماء سوى ثوانٍ. طلب من الحاجب كأس كونياك فأجبته قهوة ثم سقطت على المقعد وأخذت الغرفة تدور أمام عيني وكأنها أشباح رمادية وحمراء قاتمة. أقنعت نفسي بأنه عليَّ أن أتمالك نفسي عن الوقوع عندما بدأت أسمع هديراً حادًّا عالياً يعم أذنيَّ. هيلين حرة وهذا يعني الإسراع في الخروج من هنا.

امتزج الهدير والأشباح المتراقصة بوجه وصوت صاح بكلمات لم أتفهمها في البدء. حاولت تتبعها وتتبع ذلك الوجه وعندها سمعت: هل تظن أن توقيع شهادة وفاة يشكل لي ارتياحاً؟ ماذا يجري هنا بحق الشيطان؟ إنني لست حارس مساجين، إنني رجل مستقيم.. ليذهبوا للجحيم جميعهم، أطلق سراحهم جميعاً.

أضعت صوتي من جديد ولم أتأكد إن كنت ما أسمعه قد قيل بصوت عالٍ أم أن الكلام يهمس في أذني. جاءت القهوة.. خرجت متهادياً وجلست على أحد المقاعد.. ولم تمضِ فترة حتى جاءني أحدهم وطلب مني أن أنتظر قليلاً.. كنت سأنتظر على أي حال.

جاءني بعدها المقدم وأكد لي أن الأمور تسير على خير ما يرام. أدركت أن حالة الإغماء التي أصبت بها أسهمت في تحقيق مطلبي بالقدر التي أسهمت به الكلمات التي قلتها له من قبل. ثم سألني:

- هل أنت الآن أحسن حالاً؟ عليك ألا تخف إلى هذا الحد، فأنا لا أتعدى كوني مقدماً في ريف فرنسا.

أجبته بسعادة:

- إن أهميتك لي تفوق أهمية وجود الله. لقد أعطاني الله إذن إقامة يشمل الكون بأجمعه، لكن هذا الإذن لم يساعدني بعدُ. إن ما أحتاجه هو إذن إقامة لهذه المنطقة، ولا أحد يستطيع أن يمنحني إياه

سواك يا سيدي المقدم.

ضحك:

- لكن إن كنت ملاحقاً فستكون هنا في خطر كبير.

- إن كنت ملاحقاً فسأكون في خطر كبير حتى لو كنت في مرسيليا؛ لأنهم يتوقعون وجودي هناك وليس هنا. امنحنا إقامة لمدة أسبوع فقط وسنحاول خلالها أن نبدأ رحلة البحر الأحمر.

- البحر الأحمر؟

- إنه مصطلح معروف لدى اللاجئين، إننا نعيش حالة هجرة اليهود من أرض مصر. خلفنا الجيش الألماني والصاعقة وإلى جانبنا بحر من الشرطة الفرنسية والإسبانية وأمامنا الأرض الموعودة: البرتغال وميناء لشبونة الذي يوصل إلى الأرض الأكثر وعوداً: أميركا.

- هل لديك فيزا أميركية؟

- سنحصل عليها.

- إنك من الأشخاص الذين يؤمنون بالعجائب.

- ليس لديَّ خيار آخر، لكن ألم تحدث معي أعجوبة اليوم؟

ابتسم لي شفارتس:

- غريب.. كيف يصبح الإنسان يحسب كل كلماته في حالة ضيقة؟!

كنت أعرف معرفة اليقين لماذا تفوهت بالجملة الأخيرة وكيف أنني جاملت المقدم من قبل لدى مقارنتي إياه بالله. عليَّ أن أحصل على إذن إقامة منه.. يصبح المرء، عندما يكون معتمدا على الغير، عالماً نفسانيًّا بحسابات دقيقة، على الرغم من حالته التي تتمثل بابتداع جهد كبير للحصول على بعض الهواء للتنفس، وربما لهذا السبب يتعسر عليه النفس. لا علاقة لأحد الأمرين بالآخر وكل منهما يعمل على حدة ومن دون أي تأثير من أحدهما على الآخر؛ فالخوف حقيقي، الألم حقيقي، وكذلك الحسابات حقيقية أيضاً.. لكن جميعها لها هدف واحد: النجاة.

أصيب شفارتس بهدوء عجيب وقال:

- قاربت على نهاية حديثي.. حصلنا على إذن إقامة لأسبوع. وقفت بعد ظهر ذلك اليوم أمام بوابة المعتقل في انتظار هيلين.. نزل رذاذ مطر.. جاءت هيلين ووقف جانبها الطبيب وأخذا يتحدثان قبل أن تلمحني. كانت تتحدث بحيوية وقد اتخذ وجهها طابعاً مشرقاً لم أعهده فيها من قبل.. خلت نفسي كمن ينظر إلى الشارع من خلال نافذة دون أن يفطن أحد لوجوده.. لكن بعدها رأتني.

خاطبني الطبيب:

- إن زوجتك مريضة جدًّا.

أجابت هيلين ضاحكة:

- هذا صحيح! سوف يطلق سراحي بشرط الدخول إلى أحد المستشفيات حيث سأقضي نحبي.. أليس هذا ما اتفقنا عليه؟

أجاب الطبيب بنبرة عدائية:

- إن ما أقوله ليس مزاحاً.. يتوجب على زوجتك دخول المستشفى.

سألته:

- ولكن ألم تقم هنا لمدة طويلة؟

قالت هيلين:

- ما هذا الذي تتكلمان عنه؟ إنني لست مريضة ولن أوافق على دخول المستشفى.

سألت الطبيب:

- هل تستطيع أن تدخلها المستشفى بحيث تكون في مأمن من الجستابو؟

أجاب بعد فترة تفكير:

- لا.

ضحكت هيلين من جديد وقالت:

- بالطبع لا.. يا له من حديث سخيف! الوداع يا جان.

ومشت الطريق أمامنا.. تمنيت أن أسأل الطبيب عن مرضها، لكنني لم أتجرأ في السـؤال عن ذلك. حملق بي طويلاً ثم اسـتدار في اتجاه المعتقل. أما أنا فتبعت هيلين:

- هل معك جواز السفر؟

- أعطني حقيبتك.

- لا بوجد بداخلها الكثير.

- أعطني إياها على الرغم من ذلك.

- إنني ما زلت أحتفظ بالثوب الذي ابتعته لي في باريس.

سرنا في الطريق. سألتها:

- هل أنت مريضة؟

- لو كنت مريضة لما اسـتطعت السـير ولكنت أشـكو من ارتفاع في درجة الحرارة. لست مريضة.. إنه يكذب، وكل ما كان يريده هو أن يبقيني إلى جانبه. انظر إليَّ! هل مظهري يدل على المرض؟

توقفت عن السير وقلت لها:

- نعم.

- لا تحزن.

- إنني لست حزيناً.

عندها أيقنت أنها مريضة وأيقنت أيضاً أنها لن تصرح بذلك أمامي قط.. سألتها:

- هل سيساعدك وجودك بالمستشفى؟

- لا، لن يفيد وجودي هنالك. عليك أن تصدقني.. لو كنت مريضة ولو كان وجودي في المستشفى سيساعدني لحاولت على الفور دخول أحد المشافي.. صدقني.

- إنني أصدقك.

ماذا كان باستطاعتي أن أعمل؟ شعرت فجأة بجبن كبير. قلت لها أخيراً:

- ربما كنت تفضلين البقاء في المعتقل؟

- كنت سأنتحر لو لم تأتِ.

تابعنا سيرنا وازداد نزول المطر وبدا كأنه حجاب رمادي منسوج من خيوط دقيقة يحوم حولنا.

قلت:

- سنحاول أن نجد الطريق للوصول إلى مرسيليا ومنها إلى لشبونة وبعدها إلى أمريكا.

هناك، حدثت نفسي: هناك يوجد العديد من الأطباء الجيدين والمشافي الجيدة أيضاً لا يلقى القبض على نزلائها وربما حصلت على إذن عمل.. قلت لها:

- سننسى أوروبا وستصبح لنا كحلم سيئ.

لكن هيلين لم تجب.

15

قال شفارتس:

- بدأت الأوديسا وبدأت رحلة الصحراء.. المسيرة عبر البحر الأحمر. إنك تعرف المسيرة تلك.

أومأت..

- البوردو! وهذا يعني ملامسة جبال الحدود، البرينيه، الهجوم البطيء على مرسيليا، الهجوم على القلوب الكسول والهروب من وجه البربرية، وبين هذه الأمور كلها جنون البيروقراطية التي اتخذت وجهاً وحشيًّا. لا إذن إقامة ولا إذن خروج أيضاً، وفي حال الحصول عليه كان إذن الدخول لإسبانيا قد نفد وقته ولم يكن من الممكن الحصول على إذن جديد إلا بعد الحصول على إذن دخول البرتغال. الانتظار أمام القنصليات، ضواحي السماء والجحيم في آن واحد: أرض خصبة للجنون.

انهارت هيلين في تلك الليلة بعد أن عثرنا على غرفة في فندق صغير منعزل. أصبحنا لأول مرة شخصين شرعيين وأصبح بإمكاننا، منذ فترة طويلة، السكن في غرفة خاصة بنا نحن الاثنين.. كان هذا بلا شك هو السبب وراء نوبة النحيب التي أصابتها.. جلسنا بعدها صامتين في حديقة الفندق الصغيرة.. شربنا زجاجة نبيذ وأخذنا نرقب الطريق المؤدي إلى المعتقل..

أحسست بشكر عميق ينخر عظام عنقي.. شكر مؤلم..

انطفأ كل ما كان في داخلي في تلك الليلة ومن خلالها.. حتى الخوف عليها من المرض.

كانت تجلس مرتاحة وهادئة جدًّا بعد أن انتهت من نوبة نحيبها

وكأنها الطبيعة بعد المطر.. جميلة كجمال الرؤوس المنقوشة على الأعمدة القديمة.

- إنك بلا شك تفهم ماذا يعني المرض في وجودنا الذي توقف عن الهروب.

أجبته بمرارة:

- إنني أعي هذا.

رأينا، في الليلة التي تلتها، أضواء سيارة تصعد طريق المعتقل. أصيبت هيلين بالتوتر لدى رؤيتها إياها. كنا قد أمضينا النهار في غرفتنا ولم نبرحها للسعادة التي كنا نشعر بها كما أننا شعرنا، نحن الاثنين، مدى التعب والإرهاق اللذين كنا نعانيهما، وتمنيت لو أمضي أسابيع طويلة داخل ذلك الفندق، لكن هيلين أصرت فجأة على الرحيل، ولم تعد تتحمل رؤية الطريق المؤدي إلى المعتقل. كانت تخاف قدوم الجستابو. حزمنا ما لدينا من أمتعة قليلة وكان تصرفاً حكيماً أن نتابع التجوال ما دام لدينا إذن إقامة، وهذا الأمر سيبعد عنا شبح الاعتقال والخطر الذي يمكن أن يصادفنا، فلو قبض علينا فسنعاد حتماً إلى هذا المعتقل، لكننا كنا نأمل أن نبقى حرَّين. فكرت بالذهاب إلى مقاطعة بوردو، لكننا سمعنا من جموع الفارين أن الوقت لم يعد مناسباً للذهاب إليها..

وافق سائق سيارة "ستروين" صغيرة ذات مقعدين على أن نقطع معه قسماً من الطريق وأخبرنا بأنه من الأفضل لنا إيجاد مكان نؤوي إليه وأنه يوجد في طريقنا، بالقرب من المكان الذي يقصده، قصر قديم مهجور؛ حيث نستطيع أن نمضي الليلة.

لم يكن أمامنا خيار آخر. أنزلنا السائق في عصر ذلك اليوم أمام قصر صغير، وعلى الأصح أمام بيت ريفي كبير، بنوافذ سوداء، لكنها بلا ستائر. صعدت الدرج الخارجي وطرقت الباب الذي كان مفتوحاً ولا يشير مظهره إلى أي ظاهرة عنف مورست في فتحه. دخلت المكان

وارتفع صدى وقع قدميَّ في القاعة الفسيحة الخاوية.

ناديت، لكنه لم يُجِب أحد سوى صدى صوتي المتقطع. أفرغ القصر من جميع محتوياته وحمل كل ما يمكن حمله ولم يبقَ سوى الغرف التي تعود إلى القرن الثامن عشر بحيطانها المزوقة ونوافذها الأنيقة وسلالمها الرشيقة.

دخلنا المكان ولم نلتقِ جواباً لنداءاتنا. بحثت عن مكابس الكهرباء، لكنني لم أجد واحداً منها فتنبهت إلى أن بناء القصر يشير إلى زمن لم تكن فيه الكهرباء قد اكتُشفت بعدُ. وجدنا غرفة طعام بطلاء أخضر وذهبي، لكن لم يكن هناك أي قطعة أثاث؛ إذ إن أصحابه، على ما يبدو، حملوا كل شيء قبل رحيلهم.

وجدنا في غرفة جانبية صندوقاً قديماً وفي داخله بعض الأمتعة وثياب رخيصة وملونة تشير إلى كونها مخلفات احتفال ما، كما وجدنا مجموعة من الشمع في داخله.. بالطبع كان من الأفضل لنا لو وجدنا سريراً حديديًّا وفراشاً. تابعنا البحث وعثرنا في المطبخ على بعض الخبز، عدة علب سردين، ورزمة من الثوم، ونصف وعاء من العسل، ووجدنا في القبو بعض البطاطا وعدة زجاجات نبيذ وكومة من الحطب.. شعرت بأننا في بيت ساحرة خيرة. كان في القصر العديد منن المواقد.. ظللنا نافذة إحدى الغرف بالثياب الملونة التي عثرنا عليها وأعتقد أن الغرفة التي اخترناها كانت في السابق غرفة نوم. خرجت من القصر وبحثت فوجدت حديقة خضراوات وأشجار مثمرة وكانت الأشجار ما زالت تحمل ثمار التفاح والإجاص. جمعت ما استطعت جمعه ورجعت به إلى هيلين.

أشعلنا النار في الموقد بعد أن حل الظلام وتأكدنا من أن دخان الموقد لن يصبح مرئيا وأننا تناولنا الطعام وسط عالم أشباح، وسط عالم سحري.. انعكس ضوء النار على الجدران وتحركت بين ظلالنا كظلال أشباح مقبلين من عالم سعيد. لم يلبث أن أصبح جو الغرفة

دافئنا فاستبدلت هيلين ثيابها المبتلة.. أخرجت ثوبها الذي اشتريناه من باريس وارتدته.

فتحت زجاجة نبيذ وأخذنا نحتسي من فوهتها لعدم وجود كأس في حوزتنا. عادت هيلين واستبدلت بثوبها ثوباً ملوناً من الصندوق الذي عثرنا عليه، وأخفت وجهها بأحد الأقنعة وركضت هابطة السلالم المظلمة. أخذت تنادي، ارتد صوتها مالئاً القصر.. لم أعد أستطيع رؤيتها، لكنني كنت أسمع وقع قدميها إلى أن تنبهت إلى وجودها خلفي وأحسست بأنفاسها تلامس عنقي.

أمسكت بها بشدة وقلت:

- ظننت أنني أضعتك.

همست من خلال قناعها الرقيق:

- لن أضيع منك أبداً.. هل تعلم لماذا؟ لأنك لم تحاول يوماً التمسك بي كالفلاح المتمسك بحقله.. إنني متأكدة أن أشهر الرجال يصبحون مملين إذا قورنوا بك.

أجبتها مندهشاً:

- لكنني لست رجلاً مميزاً.

كنا نقف عند كعب السلالم، يضيئنا شريط نور خارج من شق باب غرفة النوم.. أضاء هذا الشريط قسماً من البرونز في كتف هيلين وفمها.

- إنك لا تعرف حقيقة ذاتك.

قالتها هيلين ونظرت إليَّ بعينين ملتمعتين كعيني الأفعى لأنه لم يظهر من عينيها من خلال ثقوب القناع سوى سواد العينين المشع ولم يظهر من البياض شيء. تابعت:

- عليك أن تعلم كم يبدون هؤلاء الـ"دون جوانين" مملين تماماً كالثياب التي يرتديها المرء لمرة واحدة فقط.. أما أنت فتبقى بالقلب.

ربما كانت الثياب غير الواقعية التي كنا نرتديها هي التي جعلتنا

نتفوه بمثل هذه الكلمات. كنت قد استبدلت بثيابي أنا أيضاً بعض الثياب الملونة ريثما تجف ثيابنا التي علقناها إلى جانب الموقد. غيرتنا ثيابنا اللاواقعية وجو الأشباح المحيط بنا وجعلت شفاهنا تنطق بكلمات لم نكن لنتفوه بها في العادة، وفقدت كلمات مثل الإخلاص أو عدم الإخلاص ثقلها البرجوازي ومفهومها المحدود بانفرادية معناه وأصبحت الواحدة منها تستطيع أن تحل مكان الأخرى بكل سهولة وربما أخذت معاني وظلال غير هذين المعنيين المطروحين، وفقدت الأسماء معانيها.

همست هيلين:

- إننا ميتان، نحن الاثنين، ولم تعد القوانين سارية علينا. إنك ميت وتحمل جواز شخص، وأنا توفيت اليوم في أحد المشافي. انظر إلى ثيابنا! نبدو فيها كطيور الخفاش الملونة الذهبية نهيم في قرن مندثر. كانوا يسمون ذلك القرن "الزمن الجميل".. إنه حقًّا جميل برشاقته وسمائه الملونة، لكن في نهايته انتصبت المقصلة، كما تنتصب في نهاية الأشياء كلها وبعد انتهاء كل وليمة تقف مشعة قوية في برودة الصباح. أين تنتصب مقصلتنا أيها الحبيب؟

قلت:

- دعك من هذا الكلام يا هيلين!

همست:

- لن تنتصب في أي مكان.. هل سمعت يوماً أن نصبت مقصلة للأموات؟ إنها لن تجزنا وتقطعنا، كما أنه لا يمكن قطع وتجزئة كل من الضوء والظل. لكن ألم يحاولوا دائماً تقطيع وتجزئة أيدينا في مناسبات عدَّة؟ احتفظ بي في هذا العالم السحري وهذا الظلام الذهبي وربما بقي جزء من هذا العالم فبنا يمكنه أن يضيء الساعة الحزينة التي ستتلقى أنفاسنا الأخيرة.

شعرت برجفة خفيفة.

- دعك من هذا الكلام يا هيلين!

همست دونما اهتمام بما رجوتها به:

- احتفظ بي هكذا في ذاكرتك.. من يعلم ما يخبئه لنا الغد؟

قلت:

- نعرف أننا سنرحل إلى أمريكا وأنه لا بد أن تكون هناك نهاية للحرب.

التصقت بي:

- إنني لا أبكي قدري.. وماذا كنا سنصبح من دون رحلة العذاب هذه؟ كنا سنصبح من دونها زوجين رتيبين يعيشان في أوسنابروك حياة متوسطة رتيبة بأحاسيس تحت المتوسط وينعمان برحلة كل عام.

ضحكت:

- إنه تصور حقيقي لما كان سيحدث.

كانت هيلين في تلك الليلة تنعم بمرح، وأخذت تعيش تلك الليلة كما يعيش الإنسان عيداً انتظره طويلاً. أسرعت إلى القبو حاملة شمعة ومنتعلة خفًّا صغيراً ذهبيًّا اشترته في باريس وحاولت أن تنقذه بإصرار وتعطيه أولوية في البقاء. عادت تحمل بيدها زجاجة نبيذ ثانية. كنت أقف على حافة السلم العلوي وأرقبها وهي تصعد السلالم المظلمة.. رأيت وجهها المضاء بنور الشمعة يتطلع إليَّ من بين الظلال المحيطة به.

كنت سعيداً.. هذا إذا سميت السعادة مرآة يعكس وجهاً حبيباً، يعكسه نقيًّا ومتكاملاً وبعيداً عن الظلال كلها.

انطفأت نار الموقد تدريجيًّا، بينما غفت هيلين وقد التفت بالثياب الملونة. كانت هذه الليلة فريدة وغريبة.. لم انتبه إلا على صوت هدير طائرات تهشمت تحت وطأتها المرأة القادمة من عصور الروكوكو.

مكثنا بمفردنا في ذلك القصر لمدة أربعة أيام، وبعدها كان عليَّ السير إلى القرية المجاورة لشراء بعض الحاجيات؛ حيث سمعت أن في

مقاطعة بوردو سفينتين ستبحران.

سألت:

- ألم يصل الألمان إلى تلك المقاطعة بعد؟

أجابني أحدهم:

- إنهم موجودون وغير موجودين.. ويعتمد وجودهم وعدم وجودهم على هويتك.

تكلمت مع هيلين بالأمر ودهشت لسلبيتها. قلت لها بانفعال:

- سُفن يا هيلين! والسفن تعني الرحيل من هنا. تعني الرحيل إلى أفريقيا، إلى لشبونة، أو أي مكان آخر نستطيع منه أن نتابع رحلتنا.

أجابت:

- ولماذا لا نستطيع البقاء هنا؟ الحديقة ملأى بالثمار والخضراوات.. أستطيع طبخها ونستطيع الحصول على الحطب من الأشجار، كما نستطيع الحصول على الخبز من القرية المجاورة.. هل بقي لدينا بعض من المال؟

- لدينا القليل منه، وأنا ما زلت أحتفظ بإحدى اللوحات التي أستطيع بيعها في بوردو كي ندفع ثمن بطاقات السفر.

- من يشتري لوحات في مثل هذه الأوقات؟

- يشتريها من يريد أن يستفيد من نقوده.

ضحكت:

- إذاً بعها ودعنا ننعم بثمنها.

- أتمنى لو نستطيع ذلك.

أحبت هيلين ذلك البيت الذي كانت تتقدمه حديقة صغيرة ويحيط به من الخلف بستان خضراوات وفاكهة تتوسطه بحيرة وساعة شمس. أحبت هيلين المنزل، وكما يبدو أن البيت أحبها أيضاً، وقد بدا وكأنه إطار جميل يناسبها.. لأول مرة منذ زمن ننعم بالعيش خارج نطاق الفنادق

وبراكيات المعتقلات، ملأنا العيش في ثياب ملونة وأمتعة، وفي جو سعيد من الماضي، أملاً سحريًا، وفي بعض الأحيان جعلني أؤمن بالحياة بعد الموت.. شعرت بأن حياتنا التي مرت لم تكن سوى مسرحية في عرضها التدريبي الأول.

تمنيت لو نستطيع العيش هكذا لعدة قرون.

لكن، على الرغم من هذا الحلم الجميل، تابعت التفكير بالسفن الراسية في بوردو، وبدت لي إمكانية إبحارها ضئيلة بعد أن احتل الألمان المنطقة، لكن هذا الوقت هو ما يطلق عليه وجها الحرب: كانت فرنسا تنعم بمعاهدة وقف إطلاق النار، لكنها لا تنعم بالسلام.. كان لفرنسا قطاع محتل وقطاع حر، لكن كانت تنقصها القوة كي تبرم معاهدة لصالح دفاعها. إلى جانب ذلك فقد امتلأت فرنسا بالجيوش الألمانية وقوات الصاعقة، وهذه القوى لم تكن تعمل يداً بيد في أغلب الأحيان.

قلت:

- عليَّ أن أذهب لأصل إلى حقيقة نفسي.. تستطيعين البقاء هنا ريثما أذهب إلى بوردو.

هزت هيلين رأسها بالنفي:

- لن أبقى هنا بمفردي، بل سأرافقك.

فهمت ما كانت تفكر به، فلم تعد هناك فواصل بين المناطق الآمنة والمناطق الخطرة.. كان من الممكن أن يخرج المرء من أحد المعتقلات سليماً معافى بينما يمكن أن يلقى القبض عليه من قِبَل قوات الصاعقة لو وُجد في جزيرة نائية.. تبدلت كل القوانين المتعارف عليها في السابق. وصلنا إلى بوردو بالطرق المتبعة آنذاك، وأنت تعرفها بلا شك.. عندما يعود المرء إلى الخلف يسأل نفسه إن كان قد قام حقًا بهذه الأمور كلها.. وصلنا إلى المقاطعة مستخدمين الإمكانات الموجودة كلها، تارة مشياً على الأقدام، وأخرى ركوب الشاحنات.. وفي إحدى

المرات قطعنا مسافة على ظهري دابتين كان يسوقهما مستخدم إلى سوق الدواب. رأينا بعض فرق الجيش في المدينة على الرغم من أنها لم تكن قد احتلت بعدُ.. كانت الصدمة قوية وكان كل فرد ينتظر دقيقة اعتقاله بين اللحظة والأخرى. ارتدت هيلين طقماً عاديًّا وكان إلى جانب ثوب باريس وبنطالين هما كل ما تملك من ثياب.. أما أنا فكنت مرتدياً لباس الميكانيكي وحملت بزتي الأخرى في الكيس التي كنت أحمله على ظهري. وضعنا ثيابنا في إحدى الحانات خوفاً من إثارة الشبهات، على الرغم من أن العديد من الفرنسيين كانوا يجوبون الطرقات حاملين الحقائب.

قلت لها:

- سنذهب إلى أحد مكاتب السفريات للاستعلام عن السفن المبحرة..

وجدنا مكتباً واحداً وقد علقت في واجهته ملصقات شحب لونها وجمل: أمضِ الخريف في لشبونة أو الجزائر: لؤلؤة أفريقيا، عطلة في فلوريدا، غرناطة.. غرناطة المشمسة.. كانت ألوان الملصقات قد بهت لونها ما عدا الملصقين اللذين يشيران إلى غرناطة ولشبونة فكانا يشعان بألوان زاهية.

لم ننتظر طويلاً للوصول إلى شباك التذاكر الذي كان يجلس خلفه شاب في حوالي الرابعة عشرة من العمر. أجابنا عن أسئلتنا وأعلمنا أن أمر السفن ليس حقيقة. قال لنا إن شائعات حول السفن انتشرت منذ أسبوعين ولكن لم تبحر سفينة من بوردو منذ الاحتلال سوى سفينة بريطانية حملت من بريطانيا بعض المتطوعين الذين ذهبوا للخدمة في بولونيا. أما الآن فلا وجود لسفينة في الميناء. سألته عمَّا يريد كل هذا العدد الكبير الموجود في القاعة. فأجاب الخبير:

- أغلبهم يسألون ما سألته أنت.

سألته:

- وأنت؟

- لقد توقفت عن التطلع لمغادرة المدينة.. إنني أحاول أن أكسب قوتي من وراء هذا العمل، إنني أعمل مترجماً، خبيراً في أمور إذن الدخول..

لم أعجب لأمره؛ فالحاجة تعجل بالنضج المبكر، كما أن الشباب لا يقعون فريسة التشاؤم، الأحاسيس والادعاءات المتميزة. دخلت مع هيلين أحد المقاهي وسمعت من أحد الخبراء عرضاً موجزاً عن الوضع الراهن. كان من المحتمل أن تجلو جيوش الاحتلال عن المدينة، لكن بوردو مدينة يصعب فيها الحصول على إقامة بعكس مدينة بايون التي يمكن للمرء فيها الحصول على إذن دخول لإسبانيا، لكن مشكلتها أنها تمتلئ باللاجئين.. مرسيليا هي المدينة الأفضل، لكن الطريق إليها طويل. ومن هنا لم ينقطع الطريق إليها.. أنت مشيته بلا شك.

- نعم.. مشيت طريق الصلب هذا.

- بالطبع قمت بمحاولة في القنصلية الأمريكية، لكن من دون جدوى. كانت هيلين تحمل جواز سفر صدر خلال العهد النازي.. وهكذا أصبحت وثيقتا سفرنا تعملان ضد مصلحتنا حتى جواز سفر المتوفى شفارتس..

قررنا العودة إلى قصرنا الصغير. أوقفنا شرطيان في الطريق، وفي كلا الموقفين استغللت القنوط الذي في داخلي وصرخت بهما مشيراً إلى جواز سفري النمساوي مهددا بأنني سأتجه إلى أقرب مركز لجنود الاحتلال. كانت هيلين تضحك لدى سماعها تهديداتي. فكرت بذلك للمرة الأولى لدى وجودنا في الحانة لإحضار أمتعتنا التي أودعناها لدى صاحب الحانة الذي نفى ذلك قائلاً:

- إذا لم يعجبك ما أقول فتفضل واتصل بالشرطة، لكنني متأكد

من أنك لن تقوم بهذه الخطوة.

أجبته:

- لن أحتاج لذلك.. أعطني أمتعتي.

أشار صاحب الحانة إلى غلام مساعد وقال له:

- هنري، السيد يريد الخروج.

اقترب هنري مني وقد كشف عن ساعديه. فقلت له:

- لو أني مكانك لتريثت قليلاً يا هنري! لكن هل تتشوق حقيقة لرؤية معتقلات التعذيب؟

لكن هنري لم يأبه بكلامي.. عندها صرخت بصوت حاد ونظرت من فوق رأسه:

- أطلق النار أيها الشاويش!

انطلت الحيلة على هنري، فاستدار وهو ما زال رافعاً يديه فسددت له ضربة قوية إلى أعضائه التناسلية. صرخ صرخة مدوية من شدة الألم وهوى أرضاً. أما صاحب الحانة فأمسك بزجاجة ومشى في اتجاهي..

عندها تناولت زجاجة نبيذ أحمر من على أحد الرفوف، كسرتها وحملت الجزء المسنن فيها في يدي. توقف صاحب الحانة في مكانه وعندها سمعت صوت تهشم زجاجة أخرى. لم أستدر لأنني خفت أن يغيب صاحب الحانة عن نظري ولو للحظة واحدة.

- إنها أنا.

قالتها هيلين وصاحت في صاحب الحانة:

- هيا! أعِد لنا حاجياتنا وإلا فقدت وجهك.

ثم عبرتني وهي تحمل الزجاجة المهشمة في يدها وسارت مختبئة في اتجاه الرجل.. أمسكت بها بيدي الأخرى وحاولت منعها من التقدم.. تأكدت من أنها كسرت زجاجة برنو.. فرائحة الينسون ملأت المكان وانهالت على الرجل بسيل من شتائم البحارة. حاولت هيلين الإفلات من

قبضتي والانقضاض على الرجل الذي أسرع واختبأ وراء مسقى الحانة.

- ماذا يجري هنا؟

ارتفع صوت مقبل من الباب يسأل بالألمانية. بدأ صاحب الحانة بالابتسام، بينما استدارت هيلين. الشاويش الألماني الذي أوجدته من قبل لإخافة هنري أصبح حقيقة.

سأل الضابط:

- هل هو مصاب؟

أجابت هيلين:

- هل تعني هذا الخنزير؟

وأشارت إلى هنري الذي كان ما زال يضغط على راحتيه بساقيه وقد طوى ركبتيه، ثم تابعت:

- إن ما تراه ليس دماً بل هو نبيذ!

سألها الضابط:

- وهل أنت ألمانية؟

- نعم، ولقد سرقنا صاحب الحانة هذا.

- هل بحوزتك أوراق ثبوتية؟

ابتسم صاحب الحانة ساخراً، مؤكداً بذلك فهم الألمانية. ردت هيلين غاضبة:

- بالطبع! وها أنا أطلب منك أن تساعدنا في إقرار حقوقنا.

ثم أخرجت له جواز السفر.

- إنني أخت العميد يورغنز.. إليك.

وأشارت إلى موعد إصدار جواز السفر:

- إننا نسكن قصر...

وذكرت له اسم مكان لم أسمع به يوماً، ثم تابعت:

- وأتينا نمضي يوماً في بوردو. وأودعنا أمتعتنا لدى هذا اللص،

وها هو الآن يؤكد أنه لم يتسلمها قط.. أرجوك أن تساعدنا.

ثم استدارت إلى صاحب الحانة.. سأله الضابط:

- هل صحيح ما تدعيه السيدة؟

- بالتأكيد! فالمرأة الألمانية لا تكذب أبداً.

أجابته هيلين مستشهدة بأقوال السلطة المجنونة.

ثم سألني الضابط:

- من أنت؟

- السائق!

أجبته وأشرت إلى الثياب التي كنت أرتديها. عندها صاح الضابط بصاحب الحانة:

- هيا تحرك!

توقف الرجل عن الابتسام فسأله الضابط:

- هل تريد أن نغلق الحانة؟

قامت هيلين بترجمة ما قاله الضابط بلذة وزادت على كلامه الكثير من الشتائم. أثارت الشتيمة الأخيرة ضحكي، فقد كانت شتيمة يوجهها الفرنسي في العادة للأغراب الموجودين في بلده.

نبح صاحب الحانة:

- هنري! أين وضعت الحاجيات؟

ثم وجه كلامه للضابط:

- من المؤكد أن هذا الغلام قام بسرقتها؛ فأنا لا أعلم شيئاً عما يقولانه.

قامت هيلين بالترجمة:

- إنه يكذب ويحاول أن يلبس التهمة بهذا الغوريلا.

ثم صاحت بصاحب الحانة:

- والآن أخرج حاجياتنا وإلا أخطرنا الجستابو.

ركل صاحب الحانة هنري برجله. ثم خاطب الضابط:

- لا شك أن هناك التباساً! هل تريد قدحاً؟

أجابت هيلين:

- كونياك.. وأفضل نوع.

وضع صاحب الحانة قدحاً على المنضدة، حملقت به هيلين فوضع قدحين آخرين. خاطبها الضابط:

- إنك امرأة شجاعة.

- المرأة الألمانية لا تخاف شيئاً.

عادت هيلين واستشهدت ببعض جمل العقيدة الألمانية. سألني الضابط:

- ما طراز السيارة التي تقودها؟

نظرت إليه وتأملت عينيه الرماديتين البريئتين:

- مرسيدس.. إنها سيارة القائد المفضلة..

حنى رأسه موافقاً ثم تابع:

- إن المدينة جميلة هنا.. أليس كذلك؟ بالطبع ليست بجمال الوطن، لكنها أيضاً جميلة.. ألا توافقاني رأيي؟

- جميلة جدًّا، لكن ليست بنسبة جمال الوطن.. هذا واضح جدًّا.

شربنا وكان مذاق الكونياك رائعاً. عاد هنري يحمل أمتعتنا ووضعها على مقعد قريب. أحصيت محتويات الحقيبة ثم خاطبت الضابط:

- لا ينقصها شيء.

قال صاحب الحانة:

- إنه خطأ هذا الغلام.. إنك مفصول من العمل يا هنري، والآن انصرف!

خاطبت هيلين الضابط:

- شكراً لك أيها الضابط! إنك بلا شك رجل ألماني أصيل.. إنك

فارس.

قدم لها الضابط التحية وكان واضحاً أنه لم يتخطَّ الخامسة والعشرين من العمر. قال صاحب الحانة الذي استعاد بعض جرأته:

- ما زال أمامنا تسوية حساب الزجاجات التي حُطمت.

ترجمت هيلين للضابط ما قاله الرجل وأضافت:

- إنه ليس فارساً، كما أن ما قمت به كان دفاعاً عن النفس.

تناول الضابط الزجاجة القريبة وقال لصاحب الحانة بنبرة متعالية:

- إذا سمحت بها.. ولا تنسَ أننا المنتصرون.

أوضحت له:

- المدام لا تشرب هذا النوع، بل أنصحك بأخذ زجاجة الكونياك تلك.

قدم الضابط الزجاجة لهيلين فأسرعت في إخفائها في الحقيبة.. ودعناه أمام باب الحانة. خفت أن يرافقنا الضابط إلى مكان المرسيدس، لكن هيلين أنجزت في تلك اللحظة عملاً عظيماً.. قال قبل أن يتركنا بغرور:

- لا يمكن لمثل هذه المواقف أن تحدث في الوطن.. فنحن ننعم ببلد منظم.

تبعته بنظري.. فكرت بما قاله.. النظام القائم على التعذيب، قطع الرقاب والقتل الجماعي، كم أتمنى استبدال بمئات اللصوص الصغار بها أمثال صاحب الحانة.

سألتني هيلين:

- ما شعورك الآن؟

- جيد، لكنني لم أكن أعلم مدى قدرتك على استعمال الشتائم.

ضحكت:

- تعلمتها بالمعتقل. إنني أشعر بالحرية بعد أن انزلق عن كاهلي

عـبء عـام مـن الاعتقـال، لكن قل لي أين تعلمت الاعتراك بالزجاجات المهشمة وتخطي البشر بالركل؟

- تعلمت ذلك في النضال من أجل حقوق الإنسـان.. إننا نعيش في زمن المتناقضات ونقود الحرب من أجل السلام. كنا نعيش ما يشبه هذا الواقع وكنا مجبرين على الكذب والخداع في سبيل البقاء ومن أجل الدفاع عن الذات. قمت في الأسابيع التي تلتها بالسطو على الفلاحين وسرقة الثمار من على الشجر والحليب من الأقبية.. كانت فترة سعيدة. كانت وقت خطر، مضحك، يائس في بعض الأحيان وغالبا هزلي، لكنه لم يكن يوماً مرًّا.

سـردت عليك الآن الحادثة مع صاحب الحانة، لكن لم تلبث أن تلتها حوادث مشابهة وكثيرة.. إنك بلا شك مررت بحوادث مشابهة أيضاً!

- إذا اسـتطاع الإنسـان تصنيفها على هذا النحو، فلقد كانت بحق هزلية.

أجاب شفارتس:

- تعلمت هذا من هيلين التي أصبحت شخصاً لا يمكنه أن يختزن الماضـي فـي داخلـه، ومـا كنـت أحسـه فـي بعض الأحيـان بداخلي كان يتحـول لديهـا حقيقـة مشـعة. كان الماضـي يتوقـف لديها مع انقضاء كل يوم وكما يتكسـر الجليد بعد أن يعبره فارس.. لكن، مقابل ذلك، كان كل شـيء يزدحـم فـي حاضرهـا؛ فالأحـداث التي يمكنها أن تغطي حياة كاملة لدى الآخرين كانت تتكاثف لديها في لحظة واحدة، لكنه لم يكن تكثيفاً قاسياً. كانت مسترخية، مرحة كـ"موزارت" وعنيدة كالموت ولم يعد وجود لمصطلحات كالأخلاقيات والمسؤولية في أعماق أحاسيسها وحلت مكانها قوانين سامية من ماهية أثيرية ولم يعد لديها الوقت لغير ذلك.. كانت تعج بالحياة كخرطوم إطفاء، لكن من دون رماد. لم أصدق فـي ذلـك الوقـت أنهـا تتمنـع عن إنقاذي لها.. لكنهـا رضخت لإرادتي،

فجررتها معي أنا المغفل إلى طريق الآلام كله بمحطاته الاثنتي عشرة. جررتها من بوردو إلى بايون ومنها إلى طريق مرسيليا اللامنتهي بطوله ثم عدت بها إلى هنا.

وجدنا القصر بعد أن عدنا إليه قد احتل، وشاهدنا بزات وجنداً ينقلون المناضد الخشبية إلى الداخل، وبعض الضباط الذين يقفون هنا وهنالك كطواويس غريبة ببزاتهم وأحذيتهم العالية اللامعة. أخذنا نراقبهم من مخبئنا خلف شجر وتمثال آلهة من المرمر. كان الوقت من بعد الظهر هادئ كالحرير، سألت:

- هل ما زالت لدينا بعض الحاجيات داخل القصر؟

قالت هيلين:

- ما زالت هناك ثمار التفاح على الأشجار، هواء أكتوبر الذهبي وأحلامنا.

- لقد خلفنا أحلامنا في كل مكان كخيوط العنكبوت المتطايرة في الخريف.

أصدر الضابط الواقف على الشرفة بعض أوامره القاسية. قالت هيلين:

- إنه صوت القرن العشرين.. دعنا نذهب من هنا.. لكن أين سنمضي الليلة؟

- سنحاول النوم وسط أكوام القش وربما على سرير، لكن سننام معاً في الأحوال كلها.

16

سألني شفارتس:

- هل ما زلت تذكر الساحة أمام القنصلية في مدينة بايون، والصفوف المرصوصة من اللاجئين الواقفين المتهافتين بيأس ورعب أمام باب القنصلية؟

أجبته:

- إنني ما زلت أذكر أنه كانت هناك ما تسمى ورقة المكان، وكانت هذه الوريقات تخول صاحبها الوقوف أمام الباب، وعلى الرغم من هذه الإجراءات كان المدخل يحاصر من جموع المحتشدين أمامه. وعندما تفتح النوافذ كانت ترتفع أصوات التنهدات والنحيب. كانت جوازات السفر ترمى من النوافذ إلى غابة مؤلفة من الأيدي المرفوعة.

اقتربت منا واحدة من المرأتين البدينتين في الحانة، وكانت الأجمل بين الاثنتين وأخذت تتثاءب ثم قالت:

- إنكما غريبا الأطوار. تتحدثان وتتحدثان، لكننا الآن نريد أن نأوي للفراش. إذا ما زلتما مصرين على الجلوس والحديث فحانات المدينة جميعها تكون قد فتحت أبوابها من جديد.

- فتحت الباب ودخل النهار أبيض وصاخباً.. كانت الشمس مشرقة.. أغلقت الباب ونظرت إلى الساعة.

قال شفارتس:

- السفينة لن تبحر اليوم بل مساء الغد.

لم أصدقه.. لكنه لاحظ شكي فقال:

- هل نذهب إلى مكان آخر؟

بدا لي الصخب في الخارج غير محتمل بعد الجلسة الطويلة

الهادئة داخل الحانة. توقف شفارتس وحملق في مجموعات الأطفال التي حملت سلالاً مليئة بالسمك.

- انظر إليهم! إنهم يركضون ويصرخون.. يتابعون سيرهم وكأن أحداً لا ينقصهم.

هبطنا أدراجنا إلى الميناء.. كانت المياه نشطة والريح عاتية باردة، أما الشمس فكانت قاسية، لكن من دون دفء. فرقت الأشرعة، وكان كل فرد منشغلاً في استقبال الصباح. مررنا من بين هؤلاء المنشغلين كزوج من أوراق الشجر الذابلة.

سألني شفارتس:

- ألا تصدقني بعدُ بأن السفينة لن تغادر الميناء قبل مساء الغد؟

بدا وجهه تحت أشعة الصباح القاسية حزيناً ومتعباً. أجبته:

- لا أستطيع تصديقك؛ فلقد أخبرتني في السابق أنها ستبحر اليوم.

- دعنا نسأل عن موعد سفرنا؛ فالأمر في غاية الأهمية بالنسبة لي.

- كان الأمر مهمًّا لي بمقدار أهميته لك، والآن لم يعد له أهمية مطلقاً.

لم أجبه وتابعنا سيرنا. فجأة أحسست أن صبري قد نفد؛ فالحياة المرفرفة المترجرجة أخذت تناديني.. انجلى الليل وما نفع التمسك بالظلال.

توقفنا أمام متجر امتلأت واجهته بإعلانات السفر.. وكتب على ملصق أبيض بخط واضح تأجيل موعد إبحار السفينة حتى اليوم التالي.

قال شفارتس:

- قاربت على نهاية قصتي.

أما أنا فلقد كسبت يوماً آخر، وعلى الرغم من وجود الملصقة حاولت فتح باب المتجر، لكنه كان لا يزال مغلقاً. وقف حوالي عشرة أشخاص يرقبونني.. وأخذوا يقتربون نحوي من الاتجاهات كلها عندما

ضغطت بإصبعي على الجرس. كانوا مهاجرين، لكنهم توقفوا عن الحملقة بي عندما رأوا أن الباب ما زال موصداً ووجهوا أنظارهم إلى واجهات المتجر وكأنهم ينظرون إلى محتوياتها.

- إنك ترى أنه ما زال أمامك المزيد من الوقت.

قالها شفارتس واقترح عليَّ أن نحتسي فنجان قهوة في الميناء. شرب قهوته بسرعة وأحاط الفنجان بيديه وكأنه مصاب بالبرد. سألني:

- كم الساعة الآن؟

- السابعة والنصف.

تمتم قائلاً:

- سيأتون بعد ساعة

ثم رفع نظره إليَّ:

- لا أريد أن أسرد شكوى.. هل اتخذ سردي هذا الطابع؟

- لا.

- وأي شكل اتخذ؟

ترددت:

- إنه يشبه سرد قصة حب.

- فجأة ارتخت عضلات وجهه وقال:

- شكراً.

ثم عاد واستجمع نفسه:

- بدأ الشؤم في بيارتس؛ حيث سمعت أن هناك قارباً سيبحر من ميناء سانت جان، لكنني ما لبثت أن تحققت من كونها شائعة فقط. وجدت هيلين، عندما عدت إلى الفندق، ممددة على الأرض وقد تبدلت معالم وجهها. همست:

- إنها حالة تشنجية وستزول في الحال.. دعني!

سأحضر الطبيب في الحال.

- لا.. لا تحضر طبيباً... الأمر لا يحتاج إلى طبيب.. اذهب واتركني.. وعد بعد خمس دقائق.. دعني بمفردي.. وافعل ما أطلبه منك.. لا تحضر الطبيب.. عد لي بعد عشر دقائق.. وعندها تستطيع أن...

أشارت لي بالانصراف لأنها لم تعد تقوى على الحديث، لكن عينيها اللتين كانتا قد امتلأتا برجاء مخيف وغير مفهوم أجبرتاني على الخروج. وقفت في الخارج وأخذت أحملق في الطريق ثم سألت عن طبيب فعلمت أنه طبيب يدعى دبوا يقطن في الشارع الموازي للفندق. أسرعت إليه فارتدى سترته ورافقني.

وجدنا هيلين لدى عودتنا ممددة على السرير. كان وجهها مبللاً بالعرق، لكنها كانت قد هدأت.

- هل جئت بطبيب؟

قالتها وقد أشاحت بوجهها عني وكأنني ألد أعدائها. دخل الدكتور دبوا إلى الغرفة فخاطبته على الفور:

- إنني لا أشكو مرضاً.

أجابها دبوا مبتسماً:

- ألا تظنين أنه من الأفضل ترك هذا الموضوع يقرره الطبيب؟

فتح حقيبته وأخرج بعض أجهزته. قالت لي هيلين:

- دعنا بمفردنا.

تركت الغرفة حائراً، وفجأة تذكرت ما قاله لي طبيب المعتقل. وقفت على حافة الطريق وأخذت أحملق في لافتة لإطارات ميشلين معلقة فوق جراج. وما لبث أن تحول الرجل البدين المرسوم على اللافتة إلى رمز خفي مكون من الأحشاء والدود الأبيض. وأحسست أن الطرقات الخارجة من داخل الجراج طرقات أزميل على نعش حديدي، وفجأة تأكدت من أن اللعنة ما زالت تلاحقنا منذ زمن بعيد وأن حياتنا اتخذت معالم حادة كمعالم الغابة تحت أشعة شمس قوية تسبق الإعصار.

عـاد دبـوا ولا أعلـم الفتـرة التـي قضاها في الداخل. كانت له لحية صغيـرة ويبـدو أنـه طبيـب مصـح اعتـاد كتابة وصفات طبية ضد السـعال والـزكام. انتابنـي اليـأس لـدى رؤيتـي إياه وهو يتقـدم مني متراقصاً.. إن الوقت لم يكن موسم سياح؛ لذا سيكتفي بما أعطيه من نقود.. بادرني القول:

- زوجتك...

حملقت به وصحت:

- ماذا؟ قل لي بحق الشيطان الحقيقة أو اصمت.

غيرت بسمة صغيرة جميلة ملامح وجهه، ثم أخرج من جيبه دفتر وصفات وكتب كلمات غير مقروءة.

- إليك هذه الوصفة كي تحضر الدواء من الصيدلية، لكن استرجع الوصفة؛ لأنك تستطيع استعمالها بحالة مستمرة.. لقد أرفقتها بملاحظاتي.

سألته بعد أن أخذت منه الورقة البيضاء.

- ما الأمر؟

- لا شيء تستطيع تغييره.. لا تنسَ ما أقوله لك.. لا تستطيع أن تغير منه شيئاً.

- ما الأمر؟ أريد معرفة الحقيقة ودعك من التكتم.

لم يجب عن سؤالي بل تابع:

- اذهب كلما احتجت للدواء إلى الصيدلية وهم سيعطونك الدواء.

- ما هو؟

- إنـه مسـكن مـن العيـار الثقيـل ولا يمكـن الحصول عليه إلا عن طريق وصفة طبية.

أخذت الوصفة:

- ما المبلغ الذي أدين به لك؟

- لا شيء.

غادرني بمشيته المتراقصة واستدار عند زاوية الطريق.

- اجلب الدواء وتأكد من وجوده دائماً على مقربة من زوجتك.. لا تتكلم معها عن هذا الموضوع، إنها تعلم حقيقة مرضها.. إنها امرأة تثير الإعجاب.

عدت إلى هيلين:

- هيلين! ماذا يعني هذا كله؟ إنك مريضة، لماذا ترفضين التحدث معي بهذا الموضوع؟

أجابت منهكة:

- لا تعذبني ودعني أحيَ على طريقتي.

- ألا تودين التحدث معي عن هذا الموضوع؟

هزت رأسها:

- لا يوجد هنالك ما يدعو للحديث.

- هل أستطيع مساعدتك؟

- لا أيها الحبيب! إنها الحالة الوحيدة التي لا تستطيع فيها مساعدتي.. لو كان في استطاعتك مساعدتي لطلبت منك ذلك.

- ما زالت لديَّ لوحة إنجر الأخيرة.. أستطيع بيعها هنا؛ فهناك العديد من الأغنياء في هذه المدينة.. سأحصل على كمية كافية من المال تؤمِّن لك الإقامة في المستشفى.

- كي يلقوا القبض عليَّ؟ كما أن الإقامة في المشفى لن تفيدني.. لن تفيدني.. صدقني.

- هل مرضك صعب جدًّا؟

نظرت إليَّ نظرة عدائية ويائسة فتوقفت عن سؤالها.. قررت الذهاب فيما بعد إلى دبوا كي أحصل على معلومات أكيدة عن مرضها.

صمت شفارتس فسألته:

- هل كانت مريضة بالسرطان؟

أومأ برأسه:

- كان عليَّ أن أعي الأمر؛ فلقد كانت في سويسرا وقيل لها إنه من الممكن إجراء عملية جراحية ثانية، لكنها لن تفيدها كثيراً. كانت قد أُجريت لها العملية الأولى في سويسرا.. أطلعها البروفيسور على حقيقة مرضها، وكان عليها أن تختار بين القيام بعدة عمليات جراحية عديمة الفائدة أو العيش لمدة أقصر بعيدة عن أجواء المشافي، كما أنه أوضح لها أنه ليس من المؤكد أن الإقامة في المشفى ستطيل من عمرها. اختارت هيلين رفض العمليات الجراحية.

- ألم تحاول التكلم معك عن هذا الموضوع؟

- لا! لقد كانت تكره مرضها وتحاول تجاهله. كانت تشعر أن هذا المرض قذر، عبارة عن ديدان تتحرك في جوفها وأن هذا المرض عبارة عن حيوان منتفخ يعيش وينمو في داخلها. كانت تظن أنني سأشعر بالقرف تجاهها لو علمت بحقيقة مرضها. ربما كانت لا تزال تأمل في أنها تستطيع خنق مرضها عندما تحاول تجاهله.

- ألم تحاول أن تتحدث إليها بهذا الصدد؟

- لم يكن ذلك ممكناً.. تكلمت هي مع دبوا وأنا بدوري أرغمته على إطلاعي على حقيقة مرضها ومنه أصبحت أحصل على الدواء.. قال لي إن الألم سيشتد بها، لكن ربما كان الأمر رحيماً وتنتهي على نحو سريع ورحيم.. كانت هيلين ترفض الحديث وهددتني ذات مرة بأنها ستنتحر إن لم أتركها وشأنها. عندها أصبحت أتصرف وكأنني أصدقها وأن هذه التشنجات لا خطورة فيها.

كان علينا مغادرة بيارتس.. وأخذ يخدع الواحد منا الآخر.. بدأت هيلين تراقبني وأنا بالمثل، وبدأ هذا الخداع يكتسب سلطة غريبة..

أخذ يهدم، بادئ ذي بدء، ما كنت أخافه دائماً. أخذ يهدم مفهوم الوقت. تلاشى مفهوم الأسابيع والأشهر وأصبح الخوف من قصر الوقت

الذي بقي لنا معاً شفافاً كالزجاج. لم يعد الخوف يخفي الأشياء، لكنه أصبح يلامس أيامنا.. أصبحت الأمور التي لهونا بها كلها تصطدم بنا دونما نفاذ.. أصبحت أعاني حالات يأس حادة عندما تنام هيلين.. كنت أجلس وأحملق في وجهها، في تنفسها الهادئ وفي يدي اللتين تنبضان بالصحة فأشعر بالوحدة القاتلة التي أصبح يعكسها جلدنا.. أصبحت أدرك أنه لن يمكننا اجتياز الافتراق.. وأن من المستحيل أن يتمكن بعض دمي المعافى من إنقاذ دم الحبيبة المريض. لا يمكن فهم هذه الأمور، كما أنه لا يمكن فهم الموت أيضاً.

أصبحت اللحظة هي كل شيء، وأضحى الغد يقبع في بعد لا ينتهي. كان النهار يبدأ عندما تستيقظ هيلين وينتهي عندما تنام وكنت عندما أتحسسها إلى جانبي تبدأ لديَّ تذبذبات من الأمل واليأس وأشرع في بناء خطط للمستقبل على قلاع من الأحلام، والإيمان بالعجائب الملموسة وأسير وراء فلسفة الاحتفاظ وتغميض العين التي تعود لتنطفئ بعد بزوغ الفجر وتغرق في بحر من الضباب.

بدأ الطقس يزداد برودة، وكنت أحمل معي لوحة إنجر التي تمثل لي سعر التذاكر إلى أمريكا.. تمنيت بيعها، لكن لم يكن من السهل العثور على مشترين لها في مدن وقرى صغيرة. كنا نعمل في بعض الأمكنة وتعلمت العمل في الحقول.. أخذت أحرث وأحفر.. لم نكن الوحيدين الذين قاموا بمثل هذا العمل.

رأيت العديد من الأساتذة ومغني الأوبرا يقطعون الحطب ويقتلعون الفجل من الأرض. كان فلاحو تلك المنطقة، شأنهم شأن جميع الفلاحين، يستغلون هذه الأوقات للحصول على عدد أكبر من العمال بأبخس الأسعار.. كان بعضهم يدفع لنا مقابل عملنا، وآخرون يقدمون لنا وجبة طعام وفي بعض الأحيان زاوية حقيرة ننام فيها.. وكان بعضهم يطردون أولئك الذين يسألونهم عن عمل. وهكذا تجولنا في طريقنا إلى

مرسيليا.. هل كنت في مرسيليا أيضاً؟

- من منا لم يصل تلك المدينة؟ كانت مركز صيد غني للشرطة والجستابو. كانوا يتصيدون المهاجرين أمام القنصليات كما يتصيدون الأرانب.

أجاب شفارتس:

- كادوا يتصيدونني أيضاً، مع أن المقدم المسؤول في دائرة خدمة الأجانب كان يعمل كل ما في وسعه لإنقاذ المهاجرين.. كانت فكرة الحصول على فيزا لأمريكا ما زالت تمتلكني وبدا لي أن حصولي عليها سيوقف زحف السرطان. أنت تعرف أنه لم يكن ممكناً الحصول عليها إلا عن طريق إثبات ملاحقتك أو وجود اسمك في أمريكا ضمن لائحة الفنانين، العلماء أو المعروفين على الرغم من الخطر المحدق بنا جميعاً وكأن الإنسان ليس إنساناً! ألا تظن أن التفريق بين البشر ذوي القيمة المعينة والبشر العاديين يعيد نظرية الإنسان الأعلى والإنسان الأدنى؟

- أجبته:

- لم يكن في استطاعتهم تقبل جميع النازحين.

سألني شفارتس:

- ولِمَ لا؟

- لم أجبه.. وماذا يمكنني أن أجيبه به.. أليس الجواب بنعم أو لا واحداً؟!

سأل شفارتس:

- لماذا لم يأخذوا المنبوذين الذين بلا اسم ولا شهرة؟

لم أجب مرة ثانية.. كان في حوزة شفارتس فيزا أمريكية لشخصين.. ماذا يريد بعدُ؟ ألم يكن يعلم أن أمريكا كانت تعطي فيزا لكل شخص يجد من يضمنه في أمريكا كي لا يصبح عبئاً على الدولة؟

أجاب عن تساؤلي في اللحظة التي تلت ذلك.

- لـم أكـن أعـرف أحـداً فـي أمريكا، لكن أحـد المهاجرين زودني بعنوان في نيويورك..

أرسلت رسالة إلى ذلك العنوان ورسائل أخرى شرحت فيها حالتنا. أوضح لي أحدهم أنني أخطأت التصرف وأن الدولة الأمريكية لا تسمح بهجرة المرضى، خاصة الذين يتعذر شفاؤهم؛ لذا كان عليَّ أن أقدم هيلين كشخص سليم الجسم. سمعت هيلين جزءاً من الحديث ولم يكن من الممكن تلافي الموضوع أمامها، فلم يكن من الممكن سماع أي موضوع آخر في خلية النحل المدعوة مرسيليا. كنا نجلس في ذلك المسـاء في مطعم بالقرب من كانبيير، وعلى الرغم من اجتياح الريح شوارع المدينة لم أُصَب بخيبة أمل وتمسكت بالحلم: ربما عثرت على طبيب إنساني بإمكانه إعطاء هيلين شهادة تثبت بها صحتها.

كنـا مـا زلنـا نلعـب لعبتنـا المعهـودة: أن الواحد منـا يصدق الآخر وأنني لا أعرف شيئاً عن مرض هيلين. كتبت لمقدم المعتقل أن يزودنا بشـهادة تثبـت أننـا ملاحقـان.. عثرنـا على غرفـة صغيرة في أحد الفنادق وعلى إذن إقامة لمدة أسـبوع. كنت أعمل في الليل كمنظف أطباق في أحد المطاعم.. كان بحوزتنا بعض المال وزودني صيدلاني بعشر حقن مورفين عن طريق وصفة دبوا.. كنا نمتلك كل ما نحتاجه في تلك الفترة.

جلسنا إلى جانب نافذة المطعم وأخذنا ننظر إلى الطريق.. وسمحنا لنفسـينا بهذا الترف؛ فنحن لا نحتاج للاختباء لفترة أسـبوع كاملة. فجأة ذعرت هيلين وأمسكت بيدي ثم حملقت في الظلام القاسي. همست:

- جورج!

- أين؟

- إنه يجلس في تلك السيارة المكشوفة.. لقد رأيته وهو يمر بسيارته من هنا.

حنت رأسـها بالإيجاب. بدا لي الأمر مسـتحيلاً. حاولت أن أنظر

وأرى الأشخاص الجالسين داخل السيارات المارة، لكنني لم أنجح في ذلك. لكن عدم النجاح لم يهدئ من روعي.. وما سبب وجوده في هذا الوقت في مرسيليا؟ سألتها السؤال مع علمي الأكيد أنه إن كان سيوجد في مكان ما خارج ألمانيا فلن يكون إلا في مرسيليا.. نقطة الهروب الأخيرة للمهاجرين من فرنسا.

قلت:

- علينا أن نغادر المكان.

- إلى أين؟

- إلى إسبانيا.

- ألا تظن أن إسبانيا أخطر من هنا؟

كانت تدور شائعات تقول إن الجستابو في إسبانيا يتصرف وكأنه في وطنه وأن هناك العديد من المهاجرين اعتقلوا وأبعدوا. لكن شائعات من هذا النوع كانت في ذلك الوقت لا حصر لها ولم يكن باستطاعة المرء تصديقها جميعها. حاولت أن أسير من جديد الطريق القديم: الحصول على فيزا للمرور من إسبانيا، التي لم يكن من الممكن الحصول عليها إلا بعد الحصول على إذن دخول للبرتغال. وهذه الأخيرة يتعذر الحصول عليها إن لم تكن هناك تأشيرة دخول لبلد آخر.. وهكذا.. زاد في صعوبة الأمر عنت البيروقراطية الملح على التساؤل. الأمر: إذن خروج من فرنسا. صادفنا الحظ في إحدى الليالي. خاطبنا أمريكي نصف مخمور كان يبحث عن أحد يبادله الحديث بالإنجليزية. جلس إلى مائدتنا وأغدق علينا جميع أنواع المشروبات.. كان في حوالي الخامسة والعشرين من العمر وينتظر سفينة يبحر فيها عائداً إلى أمريكا.

سألنا:

- لماذا لا تأتيان معي؟

صمت فترة وبدا لي أن شرشف الطاولة الذي يفصلنا سيتمزق من

شدة غباء سؤاله. جلس قبالتنا رجل من كوكب آخر؛ فالأمر الذي بدا له بسهولة الحديث عنه أصبح بالنسبة لنا مستحيلاً كاستحالة الوصول إلى السماء السابعة.. أجبته أخيراً:

- إننا لا نمتلك إذن دخول.

- دعهم يعطونكما واحداً في الغد.. إن هناك العديد من الموظفين الطيبين الذين يعملون في قنصليتنا في مرسيليا.

كنت أعرفهم، هؤلاء الطيبين. كانوا أنصاف آلهة، وكم كنا نقف الساعات الطوال على رصيف الشارع ننتظر كي نحظى بمقابلة مساعديهم. سُمح فيما بعد للمهاجرين بالانتظار في قبو القنصلية لمنع أعضاء الجستابو من التعرض لهم.

قال الأمريكي:

- سأصحبكم في الغد إلى القنصلية.

- حسناً.

أجبته على الرغم من عدم تصديقي كلامه:

- دعونا نشرب نخب ذلك.

شربنا ورحت أتأمل ذلك الوجه الفتي النضر غير العارف بالواقع وأحسست أنني لا أستطيع تحمل رؤيته. أما هيلين فكانت شبه شفافة في تلك الليلة، خاصة عندما بدأ ذلك الأمريكي يحدثنا عن بحر أضواء. استمعنا إلى قصص الجن في مدينة مظلمة. تأملت وجه هيلين وهي تستمع إلى حديثه وتصغي إلى أسماء ممثلين، عروض مسرحية، أمكنة وكل ما يوجد في مدينة لم تعرف الحرب يوماً. شعرت بالألم، لكن أيضاً بالسعادة؛ لأن هيلين كانت تستمع إليه، وللمرة الأولى تخرج عن سلبيتها تجاه أمريكا. اكتسب وجهها في المطعم المليء بدخان السجائر حيوية، ضحكت ووعدت الشاب بأن تصحبه لمشاهدة أحد العروض المسرحية عندما نصل إلى هناك.. شربنا وضحكنا على الرغم من معرفتنا الأكيدة

أن كلام الليل يمحوه النهار.

لكن، وبالدهشتي، لم ينسَ الأمريكي ما وعدنا به في أثناء الليل وطرق بابنا في حوالي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ليصحبنا معه إلى القنصلية.. أصبت برعب شديد، بينما رفضت هيلين مرافقتنا. وصلنا إلى أكوام المهاجرين المتلاصقة أمام القنصلية تحت المطر.. مشيت وكأنني في حلم وسط الأكوام التي انشقت عن بعضها لتفتح لنا الطريق، كما انشق البحر الأحمر أمام الفارين من وجه فرعون. كان جواز سفره الأمريكي الأخضر هو مفتاح الأسطورة الذهبي الذي يفتح جميع الأبواب: حدثت المعجزة. أوضح لنا الشاب الأمريكي أنه لن يكون هناك أي عائق إن هو تبنى قضيتنا بتوقيع منه. بدا لي الأمر غير معقول، خاصة أن هذا الشاب صغير في العمر، وللحصول على مطلبه عليه أن يكون أكبر مني سنًّا. مكثنا ساعة في القنصلية.. حاولت، قبل هذه الحادثة بأسابيع، الكتابة إلى عدة جهات وشرح حالتنا الخطرة.. حاولت، وبعد جهد كبير من خلال أشخاص عدة، الحصول على شهادة تثبت أنني كنت معتقلاً وشهادة أخرى تفيد بأننا ملاحقان من قبل جورج بقصد إعادتنا إلى ألمانيا.

طلبوا مني آنذاك أن أعود إليهم بعد أسبوع.

صافحني الأمريكي في الخارج وقال:

- صدفة سعيدة أننا التقينا.

ثم أخرج من جيبه بطاقة صغيرة تحمل اسمه وعنوانه.

- حاول أن تتصل بي عندما تصل إلى أميركا.

لوَّح لي بيده وهمَّ بالذهاب.. سألته:

- لكن ماذا لو حدث عارض أو كنت بحاجة إليك هنا؟

- ماذا يمكن أن يحصل؟ الأمور كلها على ما يرام.. إن والدي شخصية معروفة. سمعت أن هناك قارباً سيبحر في الغد إلى أوران

وسأستقله لمشاهدتها قبل أن أعود إلى أمريكا. من يعلم متى أستطيع العودة هنا مرة ثانية؟!

اختفى بينما أحاطت بي نصف دزينة من المهاجرين وأخذوا يستعلمون عن اسمه وعنوانه بعد أن حزروا ما مدى وساطته وأصبحوا يمنون النفس بالحصول على ما حصلت عليه. شتموني عندما أخبرتهم بأنني لا أعرف مكان إقامته في مرسيليا. أريتهم بطاقته الشخصية وعنوانه في أمريكا فنقلوه جميعاً. أوضحت لهم أن ما يقومون به عبث؛ فالشاب سيغادر إلى أوران فقالوا إنهم سينتظرون عند القارب المغادر إليها. عدت إلى البيت بأحاسيس مختلفة.. ربما أفسدت على نفسي الفرصة بإعطائي إياهم العنوان، لكنني في تلك اللحظة كنت أعجز عن اتخاذ أي قرار، وكلما فكرت أكثر في الأمر ازدادت قناعتي بعدمية ما أنا سائر إليه.

أخبرت هيلين بما حصل معي.. ضحكت وكانت في غاية الرقة في ذلك المساء.. أخذ عصفور كناري يغرد في وسط تلك الغرفة الصغيرة التي توصلنا إليها عن طريق مستأجر آخر. إنك تعرف الحقيقة وكيف يتناقل المهاجرون العناوين لمثل هذه الغرف.. جلست قطة غريبة على حافة النافذة بعد أن تخطت للوصول إلينا الأسطح المجاورة وأخذت تحملق بعينيها الصفراوين بالطائر المعلق بقفصه في السقف.. كان الطقس بارداً، لكن هيلين أصرت على إبقاء النافذة مفتوحة. تأكدت من أنها تتألم؛ فقد كانت هذه إحدى الظواهر. لم يعم الهدوء في المنزل إلا في ساعة متأخرة.

سألتني هيلين:

- هل ما زلت تذكر القصر الصغير؟

- ما زلت أذكره وكأن أحدهم سرد عليَّ قصة.. أذكره وكأنني لست أنا الذي كان فيه، بل شخص آخر.

نظرت إلي مليًّا:

- ربما صدق من قال إن في داخل كل إنسان عدة أشخاص. في بعض الأحيان يستقل أحدهم ويحكم النفس، وعندها يصبح الإنسان شخصاً آخر لا يمكن التعرف عليه بأنه هو الشخص ذاته الذي عرفه من قبل. أظن أن مثل هذه الحالة تكون عرضية ولا يمكن للمرء إلا العودة إلى طبيعته. ألا تظن ذلك؟

سألتني بنزق.

- لم أحمل يوماً شخصيات متعددة في داخلي.. فأنا إنسان رتيب.

هزت رأسها بعصبية:

- كم أنت مخطئ.. ستكتشف ذات يوم مدى خطئك في تقييم ذاتك.

- ماذا تقصدين؟

- انسَ ما قلته لك. انظر إلى القطة الجالسة إلى حافة النافذة.. إلى العصفور المغرد.. وراقب تلك الضحية التي لا تفتأ التغريد. لن تصله فهو يجلس آمناً في قفصه.

ضحكت هيلين وكررت قولي:

- آمن في قفصه.. لكن من يطلب الأمان داخل القفص؟

استيقظنا في الصباح الباكر على صوت صاحبة الفندق وهي تشتم وتصيح.. فتحت الباب بعد أن ارتديت ثيابي متأهباً للهرب، لكنني لم أرَ أحداً من الشرطة. صاحت المرأة:

- الدم! ألم تستطع أن تقوم بما فعلته في مكان آخر؟ هذه الخنزيرة! والآن ستأتي الشرطة! هذا نصيب من يتمتع بروح إنسانية.. يشتغل مثل الإنسان دائماً، كما أنها لم تقُم بدفع الأجرة منذ خمسة أشهر.

لم يلبث أن امتلأ الدهليز رمادي الضوء بساكني النزل الذين أخذوا يحملقون في داخل الغرفة. لقد قامت امرأة في حوالي الستين من العمر بالانتحار، وذلك عن طريق قطع شرايين يدها اليسرى. وسال الدم إلى

الأرض بعد أن غطى السرير.

- أسرعوا بإحضار الطبيب.

- أسرعوا بإحضار الطبيب.

صاح لاخمان، وهو مهاجر من فرانكفورت يعيش في مرسيليا عن طريق التجارة بالمسابح وصور القديسين. أبعدته صاحبة النزل وقالت:

- طبيب! إنها فارقت الحياة منذ عدة ساعات.. ألا تستطيع رؤية ذلك؟ هذا جزاؤنا لإيوائكم.. والآن سوف تأتي الشرطة! هل أسجنكم جميعاً؟ والسرير.. من سيقوم بتنظيفه؟!

أجابها لاخمان:

- سنقوم نحن بتنظيفه، لكن ابتعدي عن فكرة إخطار الشرطة.

- والأجرة.. من سيدفعها؟

أجابتها امرأة متقدمة في العمر ترتدي كيمونو أحمر.

- نستطيع أن نجمعها.. إلى أين سنذهب نحن؟ أرجوكِ أن ترقي لحالنا.

- كنت عطوفاً! لكنهم استغلوا إنسانيتي.. ماذا دعاها للانتحار؟ لا شيء!

أخذت صاحبة النزل تبحث في الغرفة. أما ضوء الغرفة الوحيد فكان أصفر شاحباً. أخذت صاحبة الغرفة تبحث في الغرفة ثم جلست القرفصاء إلى جانب السرير الحديدي الضيق وأخرجت حقيبة بالية كانت موضوعة تحت السرير وبدا قفاها العريض داخل ثوبها البيتي المخطط وكأنه حشرة كبيرة مقرفة تهم بامتصاص فريستها. فتحت الحقيبة.. لا شيء! بعض الثياب البالية! وحذاء لم يعد صالحاً للمشي.

- كم هو أليم هذا الذي يحصل!

قالت امرأة عجوز اسمها لوسي لوفة، وكانت تتاجر بطريقة غير مشروعة بالجوارب وتقوم بإصلاح البورسلان. فتحت صاحبة النزل علبة

صغيرة سدت بقطن وردي ووجدت في داخلها قلادة صغيرة وخاتماً يتوسطه حجر صغير. سألت المرأة البدينة:

- ذهب؟ أظن أنه مطلي بالذهب فقط.

قال لاخمان:

- لا، بل إنه ذهب.

أوضحت صاحبة النزل:

- لو كان ذهباً حقيقيًّا لباعته قبل أن تقدم على الانتحار.

أجابها لاخمان بهدوء:

- لا يقدم الإنسان على الانتحار بفعل الجوع فقط.. إن هذه القلادة من ذهب، وهذا الحجر الصغير هو حجر روبين.. ثمنه يقدر بحوالي سبعمائة إلى ثمانمائة فرنك.

- هراء!

- إذا شئتِ أبيعه لكِ.

- كي تخدعني؟ لا يا عزيزي.. لن تستطيع خداعي!

كان عليها أن تخبر الشرطة ولم يكن من الممكن إقناعها بالعدول عن هذه الخطوة. اختفى في أثناء ذلك الوقت جميع المهاجرين القاطنين في الفندق. ذهبت غالبيتهم العظمى في طريقها اليومي إلى عملهم وقصدوا الكنائس كي يجمعوا آخر الأخبار.. كانت الكنائس لا تزال أكثر الأماكن أمناً. وصلنا إلى الكنيسة حيث كان يُقام قداس.. ركعت النساء المتدثرات بالأسود أمام كرسي الاعتراف وكأنهن تلال صغيرة سوداء.

احترقت الشموع من دون حراك وصدح صوت الأورج. انعكست الأضواء على الكأس الذهبية التي كان يحملها الكاهن وبداخلها دم المسيح الذي سُفك من أجل فداء العالم، لكن ماذا كانت النتيجة؟ حروب صليبية دامية، تحيز ديني، تعذيب، محاكم تفتيش، وأد الساحرات وقتل الخارجين عن الدين.. مورست هذه الوحشية كلها تحت اسم حماية

الآخرين.

سألتُ هيلين:

- ألا تفضلين الذهاب إلى المحطة؟ فالقاعة هناك أكثر دفئاً من هذا المكان.

- انتظرني لحظة واحدة.

ثم اتجهت إلى أحد المقاعد أمام المذبح وركعت. لم أكن متأكداً من أنها كانت تصلي ولمن، لكنني تذكرت فجأة ذلك اليوم الذي انتظرتها فيه في كاتدرائية أوسنابروك. عثرت في ذلك اليوم على شخص لا أعرفه، لكنه أصبح مع مرور الأيام أكثر بعداً عني ومبعث ثقتي في الوقت نفسه. عاودني اليوم الإحساس ذاته، لكنها انسابت بين يدي ووجدت نفسي وسط مكان لم يعد يحمل اسماً وكل ما يعرفه هو الظلام وربما قوانين الظلام أيضاً، لكنها، على ما يبدو، رفضته وعادت إليَّ. شعرت أنها لم تعد تخصني كما كانت، لكن من يمتلك من؟ وما معنى امتلاك الواحد للآخر؟! هذا التعبير البرجوازي! أحلام لا أمل فيها! هذا الإحساس كان يراودني دائماً. هذا الشعور عندما تعود من غياب ساعة، كما كانت تسميها، أو للحظة أو لليلة، بأنني محاسب لا يحق له الحساب، بل عليه أن يتقبل الحبيبة التائهة البائسة الملاحقة باللعنات من دون طرح سؤال. أعرف أنه أوجدت لمثل هذه الحالات تعريفات أخرى، تعريفات رخيصة، ساقطة، لكنها تبقى تعريفات لبشر من نوع آخر وفي ظل ظروف أخرى. البشر يظنون أنهم موكلون لإحلال قوانين الله بأنانيتهم. الوحدة تبحث دائماً عن رفاق ولا تسأل عمَّن يكونون.. من لا يعرف ذلك لا يمكن أن يكون قد عاش الوحدة الحقيقية، بل ربما أمضى وقتاً منفرداً مع نفسه فقط.

- لماذا صليت؟

سألتها وندمت في الحال على السؤال.. نظرت إليَّ نظرة غريبة:

- صليت من أجل الحصول على إذن دخول لأمريكا.

أجابتني وكنت متأكداً من أنها تكذبني القول، بل فكرت للحظة في أنها صلت من أجل حدوث العكس؛ فلقد كنت أحس دائماً بمقاومتها السلبية تجاه الرحلة.

سألتني في إحدى الليالي:

- أمريكا؟ ماذا تريد هناك؟ ولماذا تريد الهروب بعيداً؟ عندما تصل إلى أمريكا ستسعى إلى أمريكا أخرى من جديد وستتطلع إلى غربة جديدة.. ألم تفكر بهذا؟

كانت ترفض كل شيء، ولم تعد تؤمن بشيء إطلاقاً؛ فالموت الذي أخذ يأكلها من الداخل أصر على عدم الهروب. اتخذ الموت عليها سلطة قوية وكأنه مراقب يعاين ما يحدث لدى قطع الأعضاء، وكيف تتغير خلية ومن ثَمَّ خلية جديدة أخرى.. أخذ المرض يلعب معها لعبة أقنعة مرعبة تماماً كما لعبنا لعبة التخفي في القصر.. وهكذا أصبح ينظر إليَّ بعينين مرتعشتين من جمجمة نحيلة لإنسان يكرهني أو يائس مستسلم، وفي بعض الأحيان لاعب شجاع وامرأة مليئة بالحب واليأس، لكن دائماً إنسان ليس له أحد سواي يلتجئ إليه عندما يصعد من الظلمة، ويكون له شاكراً في حالات ارتجافه الحقيقي من شدة الخوف قبل الانطفاء. جاء أحد المهاجرين المتجسسين على زوايا الشوارع وأعلمنا بأن الشرطة انسحبت من المنطقة.

قال لاخمان:

- كان من الأجدر بنا الذهاب إلى المتحف.. فهناك تدفئة ممتازة.

- وهل يوجد هنا متحف؟

طرحت السؤال امرأة عجوز منحنية الظهر تنتظر منذ أسابيع الإفراج عن زوجها الذي قبض عليه من قِبَل الشرطة.

- بالطبع يوجد متحف هنا.

تذكرت في الحال المتوفى شفارتس.. سألت هيلين:

- هل نذهب إلى المتحف؟

- ليس الآن. دعنا نعُد إلى الغرفة.

كنت أريد منعها من رؤية المتوفاة، لكنها أصرت بعناد. وجدنا صاحبة النزل وقد عادت لهدوئها وربما كان السبب في ذلك أنها قامت بتقييم القلادة والخاتم.

قالت:

- هذه المرأة المسكينة.. والآن لم يعد لها حتى اسم.

- ألم تكُن بحوزتها أوراق؟

- كانت لديها ورقة إثبات شخصية، لكن الآخرين تلقفوها قبل أن تأتي الشرطة، وقد قاموا بالقرعة للحصول على الورقة. فازت بها السيدة القصيرة ذات الشعر الأحمر.

- نعم، بالطبع فهي لا تمتلك أية أوراق. لا بد أن المتوفاة كانت ستوافق على نتيجة القرعة.

- هل تريدون رؤيتها؟

قلت:

- لا.

فأجابت هيلين بإصرار:

- نعم.

ذهبت معها ونظرنا إلى المتوفاة التي كان دمها قد نزف كله ووجدنا اثنين من المهاجرين يقومان على غسلها. تدلى شعرها إلى أن لامس الأرض.

صاح بي أحدهما:

- اخرج!

خرجت، لكن هيلين بقيت، فعدت إليها بعد برهة. وجدتها تقف

وحيدة في تلك الغرفة الصغيرة أمام السرير وأخذت تحملق في ذلك الوجه الشاحب المتقلص وقد بقيت إحدى عينيها مغلقة. قلت لها:

- لنذهب الآن.

همست:

- إذاً هكذا يصبح شكل الإنسان! لكن أين ستدفن؟

- لست أدري! ربما ستودع في مقبرة الفقراء. وإذا تطلب دفنها بعض المال فستقوم صاحبة النزل بجمعه من النزلاء.

لم تجب هيلين وهبت من خلال النافذة المفتوحة ريح باردة. سألت:

- متى ستدفن؟

- في الغد أو بعد غد، وربما حضروا لأخذها إلى التشريح.

- لماذا؟ هل تظن أنهم يشكون في أن تكون قد قتلت نفسها؟

- إنهم بالطبع لا يشكون في ذلك.

لحقت بنا صاحبة النزل وقالت:

- سيحضرون في الغد من أحد المشافي للتشريح؛ فالأطباء الشبان يتعلمون الجراحة على مثل هذه الجثث. أصبح الأمر سيان بالنسبة لهم، كما أن الأمر لا يكلف شيئاً. هل ترغبان بفنجانين من القهوة؟

قالت هيلين:

- لا.

أجابت صاحبة النزل:

- إنني بحاجة لفنجان من القهوة.. غريب.. كيف يتأثر الإنسان لدى رؤيته الموت على الرغم من معرفتنا الأكيدة أننا سنموت جميعاً؟

قالت هيلين:

- نعم، لكن لا أحد يريد تصديق هذه الحقيقة.

استيقظت في الليل فوجدت هيلين تجلس على حافة السرير وكأنها

تحاول الإصغاء. سألتني:

- هل تشم رائحتها؟

- من؟

- المتوفاة.. إنني أشم رائحتها.. أغلق النافذة.

- لا رائحة هناك يا هيلين، وهذا لا يتم بهذه السرعة.

- إنني ما زلت أشمها.

- ربما كانت هذه رائحة الأغصان.

كان المهاجرون قد جمعوا أغصان شجر الغار ووضعوها إلى جانب المنتحرة مع شمعة.

- لماذا وضعوا حولها الأغصان؟ فستصبح في الغد قطعاً وتوضع في برميل وتباع كلحم سيئ للكلاب.

- لن يقوموا ببيعها، لكنهم سيقومون بحرق الجثة المشرحة أو دفنها.

حاولت احتضانها، لكنها ابتعدت عني وقالت:

- لا أريدهم أن يقطعوني.

- لكن لماذا يقطعونك؟

- عدني بذلك.

قالتها دون أن تسمعني.

- أعدك بذلك.

- أغلق النافذة فأنا أشتم رائحتها.

نهضت وأغلقت النافذة. كان القمر يضيء في الخارج وجلست القطة إلى جانب النافذة.

سألتني هيلين التي كانت تقف خلفي:

- ما هذا؟

- القطة.

- هل صدقتني؟ إنها تشتمها أيضاً.

استدرت إليها:

- إنها تجلس هنا كل ليلة وتنتظر خروج العصفور من قفصه. عودي إلى النوم يا هيلين. كان هذا كله حلماً فقط. لا يمكن للرائحة أن تصل إلى هنا من الغرفة المجاورة.

- إذاً فأنا هي التي تفوح منها الرائحة النتنة.

حملقت بها:

- لا تفوح رائحة أحد هنا.. إنك حلمتِ فقط.

أجابتني فجأة بحدة:

- إذا لم تكن رائحتها فلا بد أن تكون رائحتي.. دعك من الكذب.

- يا إلهي! هيلين.. لا تفوح رائحة أحد، ولو فاحت رائحة فستكون بلا شك رائحة ثوم منبعثة من المطعم في الأسفل.

ثم تناولت زجاجة عطر كنت قد ابتعتها من السوق السوداء، ورششت بعض النقاط منها حولنا.

- والآن.. سيصبح هواء الغرفة منعشاً.

كانت لا تزال تجلس منتصبة على السرير.

- إذاً فأنت تعترف بأن الرائحة هي رائحتي، ولولا ذلك لما كنت قد استعملت العطر..

- لا يوجد هناك شيء للاعتراف.. قمت برش العطر بقصد تهدئتك فقط.

- إنني متأكدة من أنك تؤمن بأنها رائحتي.. إنك تعتقد حتماً أن لي رائحة نتنة تماماً كرائحة المرأة في الغرفة المجاورة. إنني أرى ذلك في نظراتك.. إنني أراه منذ زمن بعيد.. هل تظن أنني لا أشعر عندما تنظر إليَّ وتظن أنني لا أرى ذلك؟ إنني متأكدة من أنك تحس بالقرف مني.. إنني أعرف وأرى وأحس ذلك كل يوم. إنني أعلم ما تفكر به. إنك

لا تصدق كلام الأطباء. إنك تؤمن بأشـياء أخرى وتظن أن باسـتطاعتك اشتمام رائحته ولذلك تشمئز مني! لماذا لا تكون صادقاً وتعترف به؟

وقفـت صامتـاً لفتـرة لأعطـي لها فرصة لتخرج كل ما في داخلها.. لكنها صمتت هي الأخرى وأخذت ترتجف.. جلست على السرير كقوس منحـنٍ شـاحب، وغيـر واضـح، متكـئ على يديه ولـه عينان كبيرتان جدًّا بالنسبة لمحجريهما وفم مطلي بكثافة بأحمر الشفاه.

أصبح طلاء الفم عادتها قبل النوم.. نظرت إليَّ كحيوان مذبوح يتهيأ للانقضاض عليَّ. طال الوقت إلى أن استعادت هدوءها.. عندها قرعت باب باوم في الطابق السفلي وابتعت منه زجاجة كونياك صغيرة. جلسنا على السـرير، شـربنا الكونياك وأخذنا ننتظر الصباح. جاء الرجال لأخذ الجثة في الصباح الباكر وعلت أصوات خطواتهم الثقيلة وهم يصعدون السلم وصوت تلامس الحمالة بحائط الدهليز، كما تناهت إلينا طرائفهم المثيرة للانقباض عبر الجدار الدقيق الذي يفصلنا. لم تمضِ ساعة حتى دخل الغرفة المستأجرون الجدد.

17

تاجرت لعدة أيام بأدوات المطبخ البدائية: مباشر مصنوعة من التنك، سكاكين، قاطعات خضراوات وأدوات صغيرة لا يمكنها أن تثير الشبهات.. عدت مرتين بوقت مبكر كالعادة إلى الغرفة ولم أجد هيلين.. انتظرت وتوترت، لكن صاحبة النزل قالت إنه لم يأتِ أحد لأخذها وقد خرجت قبل عدة ساعات بمفردها، وهذا الأمر يحدث مراراً. عادت في ساعة متأخرة وكان وجهها متجهماً. لم تنظر إليَّ وحرت في أمري، لكن عدم طرح سؤال عليها سيبدو أكثر غرابة من سؤالها.

لذا سألتها:

- أين كنتِ يا هيلين؟

أجابت:

- خرجت في نزهة.

- بهذا الطقس؟

- نعم بهذا الطقس! هل تريد أن تستجوبني؟

- لا أريد استجوابك، لكنني خشيت أن تقبض عليك الشرطة.

ضحكت ضحكة قاسية:

- لن تمسك بي الشرطة مطلقاً.

- كم بودي أن أصدق ما تقولين.

حملقت بي:

- إذا تابعت أسئلتك فسأغادر الغرفة.. لا أستطيع تحمل واقع أشعر فيه بأنني مراقبة باستمرار.. ألا تفهم هذا؟ إن البيوت في الخارج لا تراقبني ولا أعني لها شيئاً وللمارة أيضاً.. إنهم لا يطرحون عليَّ الأسئلة ولا يراقبونني.

تبيَّن لي ما كانت تعنيه.. فلا أحد في الخارج يعرف حقيقية مرضها.. هناك في الخارج تتخطى كونها مريضة وتصبح امرأة، وهذا ما كانت تريده: أن تبقى امرأة. كانت تحب الحياة، لكنها كانت تعلم أن المرض يعني الموت البطيء.

كانت تبكي في أثناء النوم، لكنها لا تلبث أن تنسى في الصباح. لم تكن تحتمل هذا الواقع بوجهيه، والذي كان ينسج خيوطه كخيوط العنكبوت حول قلبها الخائف.. لاحظت أنها أخذت تستهلك المواد المهدئة أكثر بكثير من ذي قبل.. سألت ليفنسون، الذي كان طبيباً في أحد الأيام ويتعيش الآن من قراءة الطالع، فأطلعني على أنه تأخر الوقت لشفائها.. تطابق رأيه مع ما قاله لي دبوا. بدأت تتأخر باستمرار في العودة إلى المنزل. كانت تخشى أن أطرح عليها الأسئلة وأنا لم أقُم بذلك.. وصلتنا في إحدى المرات باقة ورد عندما كنت أجلس وحيداً في الغرفة.. ولما عدت وجدت أن الباقة قد اختفت. بدأت في إدمان الشراب وحاول بعض المعارف إعلامي بأنها ترتاد البارات وفي أغلب الأحيان برفقة.. تمسكت بالقنصلية الأمريكية وتلقيت الإذن بالانتظار في غرفة المساعد.. لكن مرت الأيام ولم يحدث أي شيء.

أُلقي القبض عليَّ. أحاطت الشرطة بالمكان وعلى بعد عشرين متراً من القنصلية وأغلقت المنافذ كلها. حاولت الوصول إلى القنصلية، لكنني عدلت عن ذلك خوفاً من إثارة الشبهات من الذين في داخل القنصلية. رأيت لاخمان يختفي وراء باب القنصلية بعد أن شدني من جنبه شرطي فوقعت أرضاً أمام حذائه وسمعت رجلاً يقول ضاحكاً مرتدياً ثياباً مدنية:

- سنأخذ هذا الغلام معنا، وعلى ما يظهر فهو مستعجل.

أخذت أوراقنا للمراقبة، وبعد أن أطلق سراح الأغلبية أبقي على ستة منا.. تراجعت الشرطة وأحاطتنا فجأة مجموعة من الرجال بثياب مدنية.. أبعدنا بالقوة إلى داخل شاحنة مغلقة واقتادتنا إلى منزل منعزل

وسط حديقة في ضاحية المدينة.

قال شفارتس:

- إن ما أرويه عليك يشابه فيلماً سيئاً، لكن ألم تكن السنوات التسع الماضية جميعها كفيلم دموي مبتذل؟

سألته:

- هل كان هؤلاء الرجال من الجستابو؟

هز شفارتس رأسه موافقاً:

- ما زلت لا أصدق كيف أن الجستابو لم يقبض عليَّ من قبلُ، وأعتبر هذا أعجوبة. كنت أعلم أن جورج لن يكف عن البحث عنا.. أعلمني بذلك شاب عندما أخذ أوراقي. كان لسوء الحظ جواز سفر هيلين في حوزتي؛ فلقد حملته معي إلى القنصلية لإتمام المعاملة.

قال الشاب:

- وأخيراً عثرنا على إحدى أسماكنا الصغيرة، ولن يطول الأمر بسمكتنا الثانية التي ستلحق به حتماً.

ضحك وضربني على وجهي بقبضة يده المليئة بالخواتم:

- ألا توافقني الرأي يا شفارتس؟

مسحت الدم الذي سال من شفتي.. كان إلى جانبه رجلان آخران في الغرفة بلباس مدني.

عاد ذلك الرجل المبتسم ليسألني مرة ثانية:

- ألا ترى أنه من الأفضل لك أن تخبرنا بنفسك عن العنوان.

أجبت:

- لا أعرف؛ فأنا أبحث عن زوجتي. لم أرَها منذ أسبوع، فلقد هربت بعد أن تشاجرنا.

- ماذا؟! تشاجرتما؟ إنه أمر شنيع.

ثم لطمني مرة ثانية بيده وقال:

- خذ هذه كعقاب.
سأله ثور من الذين كانوا يقفون خلفي:
- هل تأمر بأرجحته أيها الرئيس؟
ابتسم الرجل ذو الوجه بقسماته الأنثوية:
- ميللر! أوضح له ماذا نعني بأرجحته.
أوضح لي ميللر أنهم سيربطون سلك هاتف حول عضوي التناسلي ومن ثَمَّ يلوِّحون بي.
سألني الشاب:
- هل تعرف هذه الطريقة؟ إنك كنت معتقلاً.. أليس كذلك؟
لم أكن أعرف هذا النوع من التعذيب..
قال الشاب:
- أنا الذي ابتدعت هذه الطريقة.. إننا سنكتفي بطريقة أسهل عليك في البداية.. سنربط تحفتك بشدة كي لا تسري فيها نقطة دم.. ماذا تظن مدى الصراخ الذي ستصرخه بعد ساعة؟! لكننا سنضع نشارة في فمك كي تبقى هادئاً.
كانت لذلك الرجل عينان غريبتان زرقاوان زجاجيتان.
ثم تابع:
- لدينا الكثير من الأفكار في هذا الاتجاه.. هل تستطيع تصور ما يمكن فعله بقليل من النار؟
ضحك الثوران الواقفان خلفي، لكن الشاب المبتسم تابع حديثه:
- نستطيع أن ندخل سيخاً حديديًا مشتعلاً كالحجر رويداً في ثقوب أذنيك وأنفك يا سيدي شفارتس الأسود. أجمل ما في الأمر كونك تحت تصرفنا ونستطيع أن نقوم بتجاربنا عليك من دون حدود.
داس بقوة على رجلي وشممت رائحة عطره عندما اقترب مني. لم أبدِ حراكاً لتأكدي التام من أن المقاومة لا تجدي نفعاً ولن يفيدني

تمسكي بالبطولة؛ لأنه عندها ستتصاعد رغبة معذبي في تحطيم هذه البطولة؛ لذلك أرغمت نفسي على الوقوع أرضاً مصدراً تأوهاً لدى ضربهم لي بعصا. علا الضحك وخاطب الشاب المبتسم بلهجة رقيقة:

- ميللر! أنعشه.

نفخ ميللر نفخة من سيجارته ثم انثنى إليَّ ولامس بسيجارته جفني.. شعرت بألم وكأن النار فيها. ضحك الثلاثة فقال ليشلر:

- انهض يا غلامي!

نهضت متأرجحاً، لكنني لم أكد أقف حتى لطمني لطمة قوية وأوضح:

- إن هذه تدريبات لتدفئتك فقط.. لدينا الوقت الكافي.. حياة بطولها، أعني حياتك أنت بطولها يا شفارتس.. إننا نخبئ لك مفاجأة سحرية إذا تظاهرت بالمرض في المرة المقبلة.

- لا أتظاهر بالمرض، بل إنني مريض فعلاً.. مريض في القلب.. ومن الممكن أنني ربما لن أستطيع النهوض أبداً لدى الضربة المقبلة..

استدار ليشلر إلى الثورين وقال:

- إن طفلنا الصغير مصاب بالقلب.. ما رأيكما أن نصدقه؟

وجه لي ضربة، لكنني شعرت أنها لم تكن كسابقاتها، وهذا يعني أنني استطعت خداعهم. إنه بالطبع لا يستطيع أن يسلمني ميتاً لجورج.. سألني:

- ألم تتذكر العنوان بعدُ؟ من الأسهل لك أن تتذكره الآن وفمك ما زال مليئا بالأسنان.

- لا أعرف عنوانها، وأتمنى لو كنت أعرفه.

- إن طفلنا لديه الكثير من الروح البطولية.. للأسف فإنه لن يكون ممكناً لأحد غيرنا لمس هذه الروح.

أخذ يركلني برجله إلى أن تعب.. كنت ملقى على الأرض وحاولت

حماية وجهي وأعضائي التناسلية. قال أخيراً:

- والآن.. سنسجن وليدنا في القبو ريثما نتناول طعام العشاء ثم نعود ونمضي معه ليلة جميلة.

كنت أدرك ما يرمون إليه. فلقد قرأنا كتب شيللر وغوته عن الإنسان المفيستوي، كما أنني عشتها في المعتقل الألماني.. كان السم لا يزال في حوزتي ولم يعثروا عليه عندما فتشوني بشكل عابر وكذلك شفرة الحلاقة التي كنت قد وضعتها وأخفيتها في الزاف الداخلي لبنطالي. لم يكتشفوها أيضاً..

تركوني مستلقياً في الظلمة.. إن اليأس الذي ينتاب الإنسان في مثل هذه المواقف ليس سببه افتراض ما يمكن أن يجري، لكنه غضب على الذات لكونها غبية لوقوعها في قبضة الشرطة.

رآني لاخمان ساعة اعتقالي.. لم يكن يعلم أن الجستابو مشترك في الموضوع، لكنه رأى أنني اعتُقلت من قِبَل الشرطة الفرنسية. كنت متأكداً من أن هيلين سوف تحاول الاتصال عن طريق الشرطة إن لم أعد إليها بعد يوم من اعتقالي، وعندها ستعلم بالتأكيد من هم معتقِليّ الحقيقيون. السؤال الذي حيرني هو إن كان ليشلر سينتظر في تنفيذ تهديداته أم أنه سيقوم على الفور بإبلاغ جورج الذي بدوره سيقوم على استجوابي في هذه الليلة إن كان موجوداً في مرسيليا.

كان جورج موجوداً في مرسيليا وظهر أن هيلين رأته فعلاً. جاء في مساء ذلك اليوم وبدأ في التحقيق معي.. رفضت الكلام وكنت أرشق بالماء البارد كلما أغمي عليَّ. أعادوني بعدها إلى القبو. كان السم هو الدافع الحقيقي الذي جعلني أتحمل كل أساليبهم بصبر. لم يكن جورج من الأشخاص الذين يفضلون التعذيب الدقيق كليشلر، لكنه كان بارعاً في طريقة تعذيبه الخاصة. عاد إليَّ خلال الليل وجلس أمامي مفتوح الرجلين على مقعد بلا مسند - رمز السلطة المطلقة التي ظننا أنها اندثرت مع

اندثار القرن التاسع عشر، لكنها أصبحت الرمز الحقيقي للقرن العشرين - ربما لهذا السبب بالذات شاهدت في ذلك اليوم ظاهرتين حقيقيتين للشر - ليشلر وجورج - الشر المطلق والشر العنيف.. كان ليشلر أسوأ الاثنين، هذا إن كان من الممكن التفريق بين الظاهرتين؛ فلقد كان يعذب من منطلق اللذة، بينما الآخر في سبيل فرض إرادته.. فكرت خلال ذلك في طريقة تمكنني من الخروج من هذا البيت؛ لذا مثلت دور المنهار أمام جورج وأكدت له أنني مستعد لكل شيء إن لم يمسني. كان جورج يبتسم بشماتة رجل لم يوضع مرة في مثل موقفي؛ لذلك يؤمن بأنه لو وضع مكاني لاجتاز الموقف ببطولة موجودة في الكتب فقط؛ لأنه لا توجد على أرض الواقع بطولات كهذه.

أجبته:

- إن هذه الحالة ليست غريبة، فلقد سمعت يوماً ضابطاً في الجستابو يولول عندما أصيب إبهامه بالسلسلة الحديدية التي كان يضرب بها أحد المعتقلين بينما بقي المضروب صامتاً.

ركلني جورج برجله وقال:

- وتريد أن تضع شروطك أيضاً؟

أجبته:

- إنني لا أضع شروطاً، لكن عليك أن تعلم أن هيلين ستعود للفرار مرة ثانية لو أجبرتها على العودة إلى ألمانيا.

- إن ما تقوله لهو سخف حقًّا.

قلت:

- إن الحياة أصبحت سيان لهيلين؛ فهي تعلم أنها مصابة بمرض السرطان وألا أمل في شفائها.

حملق بي:

- إنك تكذب أيها البعير.. إنها تشكو من مرض نسائي وليس من

مرض السرطان.

- إنها مصابة بالسرطان.. اكتشف مرضها عندما أجريت لها العملية الجراحية الأولى في زيوريخ. أخبروها بالحقيقة وأن المرض أصبح في مرحلة متقدمة.

- من؟

- الرجل الذي قام على جراحتها وتحت إصرارها.

نبح جورج:

- يا له من خنزير، لكنني سأقبض على هذا اللص، ولا تنسَ أننا سنجعل من سويسرا، في خلال سنة، أرضاً ألمانية. يا له من رجل عديم الإنسانية.

قلت له:

- كنت أريدها أن تعود إلى ألمانيا، لكنها رفضت، لكنني أظن أنها ستعود لو قلت لها إنني أريد الطلاق منها.

- هذا كلام مضحك.

- أستطيع أن أمثل عليها الدور وعلى شكل بذيء وعندها لا يمكنها إلا أن تكرهني إلى اليوم الأخير من حياتها.

نظرت إلى جورج ولاحظت أنه بدأ يفكر بالاتجاه الذي أردته.. اتكأت على يدي وأخذت أتأمله وأحسست بألم بين حاجبي من شدة تأكيدي على فرض إرادتي عليه.

أجاب بعد فترة طويلة:

- كيف؟

- إنها تخاف أن يعرف أحد بمرضها ويشمئز منها.. لو قلت لها إنني أشمئز منها لتركتني بلا رجعة.

فكر جورج واستطعت ملاحظة كل خطوة من أفكاره، ووجد أن هذا الاقتراح هو الأنسب؛ لأنه لو استطاع أن يحصل مني على العنوان

عـن طريـق التعذيـب فلـن يحصـد إلا كراهية أكبر من قِبَل هيلين، أما إذا قمت بتصرفات نذل تجاهها، عندها ستكرهني وسيظهر جورج في تلك اللحظة كمنقذ.

سألني:

- أين تقطن؟

أعطيته عنواناً خاطئاً ثم قلت:

- إن للبيت عدة مخارج عن طريق القبو والطرقات المتصلة به.. إنها تستطيع الفرار بسهولة إذا شاهدت الشرطة، لكنها لن تهرب لو كنت أنا موجوداً.

- أو وجودي أنا.

- بل إنها ستظن أنك قتلتني ولا تنسَ أن لديها سمًّا.

- إنك تكذب.

وبعد فترة صمت سألني:

- وماذا تريد بالمقابل؟

- أن تطلق سراحي.

ابتسم لثانية وبدا كحيوان مفترس يكشر عن أنيابه، وعندها تيقنت أنه لن يتركني أفلت من قبضته.. قال بعد فترة:

- حسناً.. ستأتي معي كي لا تقوم بخداعي.. وستقول لها ما أشرت إليه أمامي.

أومأت بالإيجاب، فنهض وقال:

- هيا! اغسل وجهك!

- سآخذه معي.

قالهـا للثـور الـذي أخـذ يتلمس قرون إيل محنطة في الغرفة.. أدى التحية لجورج وفتح له باب السيارة. قال جورج:

- هنا إلى جانبي. هل تعرف الطريق؟

- لا أعرف الطريق المؤدي إليه من هنا، بل من ساحة المدينة.

انطلقنا بالسيارة في تلك الليلة بريحها الباردة.. كنت آمل أن أقذف بنفسي من الباب في حال تخفيف السرعة أو وقوف مفاجئ، لكن جورج أغلق الباب، كما أن الصراخ لن يجدي، فلن يهرع أحد لنجدة استغاثة تنطلق من داخل سيارة جستابو، كما أن جورج سوف يكتم أنفاسي بعد الصيحة الأولى.

زمجر جورج:

- آمل أن تكون قد كاشفتني بالحقيقة وإلا لجعلتهم يسلخون جلدك ويرشونك بالفلفل.

جلست متكوراً على المقعد الأمامي وأسهمت في أن يضرب جبيني بالمقدمة عندما فرملت السيارة لدى ظهور عربة تسير من دون ضوء.

صاح بي جورج:

- تصطنع الإغماء أيها الجبان.

فأجبته وأخذت أحاول أن أعدل من جلستي.

- إنني أشعر بوهن.

- اصمت أيها الخرقة المبلولة.

كنت فقد فتقت الخيوط في أسفل بنطالي لدى الفرملة الأولى واستطعت لدى الفرملة الثانية أن أمسك بشفرة الحلاقة، أما لدى الفرملة الثالثة وحيث ضربت جبهتي في الزجاج الأمامي استطعت أن أحررها من الفلينة مستغلاً الظلام داخل السيارة.

رفع شفارتس نظره فرأيت العرق يبلل جبهته ثم قال:

- لم يكن يوماً ليطلق سراحي.. ألا تظن ذلك أيضاً؟

- بالتأكيد لا. .

صحت به عند منعطف وبشكل متأخر:

- انتبه، إلى اليسار.

كان وقع الصيحة على جورج مفاجئاً، ومن دون أن يفكر استدار بسرعة فائقة إلى اليسار، فرمل، وأمسك بالمقود. ألقيت بنفسي عليه. لم تكن الشفرة كبيرة، لكنني أصبته في الجهة الجانبية من عنقه وسحبتها إلى الجهة الأخرى ماراًّ بقصبته الهوائية. تركت يداه المقود وارتفعت نحو عنقه، ثم هوى إلى الجانب الأيسر وارتطم بالباب.. تعرجت السيارة ثم ارتطمت بمجموعة من الشجيرات.. انفتح الباب بشدة وهوى جورج الذي كان ينزف بشدة ويحشرج. نزلت من السيارة وحاولت سماع أنفاسه. كان يحيطني سكون متقطع ولم يسمع عويل المحرك.. أطفأته وأصبح السكون كهبوب الريح.. كان ذلك بتأثير صوت الدم المتدفق. نظرت إلى جورج ثم أخذت أبحث عن الشفرة. رأيتها تلتمع بجانب دعاس البنزين، فلقد خامرني شك في أن جورج سوف ينهض الآن وينقض عليَّ.. نظرت إليه فرأيته يحرك رجليه بشدة لعدة مرات ثم توقف عن الحركة. رميت بالشفرة جانباً ثم عدت والتقطتها وحفرت حفرة صغيرة وأخفيتها فيها. أطفأت نور السيارة وأصخت السمع. خيَّم السكون على المكان.. لم أفكر من قبل ماذا سأفعل الآن.. عليَّ التفكير والعمل بسرعة.. فكل ساعة تأخير ستجعل العثور علي أسهل.

عريت جورج من جميع ثيابه وحقبتها، ثم سحبت جسده وخبأته بين الشجيرات.. لن تُكتشف جثته بسرعة، وبعدها سيمضي بعض الوقت قبل التعرف عليها. ربما ساعدني الحظ وسجل كمقتول مجهول.. أدرت محرك السيارة فوجدتها ما زالت بحالة جيدة.. قدمتها وعدت بها إلى الطريق. وجدت داخلها مصباح جيب ووجدت دماً على المقعد والباب اللذين كانا مصنوعين من الجلد، وهذا يعني سهولة تنظيفها. توقفت عند ساقية واستعملت قميص جورج في غسل المقعد والباب. راقبت السيارة مرات وأزلت جميع آثار الدم منها ثم اغتسلت وصعدت إلى السيارة.. أصبت بشعور بالقيء لدى جلوسي مكان جورج وأخذت أتوقع وجوده

في الخلف متأهباً للانقضاض عليَّ في كل دقيقة.. ثم قدت السيارة..

أوقفت السيارة في طريق جانبي ضيق بالقرب من مكان سكننا. كانت السماء تمطر.. مشيت وتنفست الهواء النقي، وبدأت أشعر بالألم في جسدي.. توقفت أمام واجهة متجر يعرض سمكاً صغيراً وحملقت في مرآة صغيرة مثبتة في إحدى زواياه. لم أستطِع رؤية الكثير من الظلام، لكنني تعرفت على وجهي وقد انتفخ وسال منه الدم. تنفست الهواء الرطب بعمق ولم أصدق أنني كنت عصر ذلك اليوم في هذا المكان.. شعرت بأن الفترة بين هذين الزمنين طويلة جدًّا.

تمكنت من المرور أمام موظفة البوابة التي كانت تتمتم ببعض الكلام في أثناء نومها. مررت أمامها بسرعة وصعدت السلالم.

لم أجد هيلين في الغرفة.. حملقت في السرير والخزانة وقد بدأ طير الكناري بالتغريد بعد أن أوقظه ضوء المصباح الكهربائي. اقتربت القطة من النافذة وأخذت تحملق في داخل الغرفة بعينها المشعتين وكأنها رميت بلعنة.

انتظرت قليلاً ثم تسللت إلى لاخمان وطرقت طرقة خفيفة على بابه. استيقظ في الحال، فاللاجئون يتميزون بنوم خفيف...

- هل أنت...

ثم نظر إليَّ وصمت.

سألته:

- هل أخبرت زوجتي بشيء؟

هز رأسه بالنفي.

- لم تكن هنا، وحتى قبل ساعة لم أجدها.

- حمداً لله.

أخذ ينظر إليَّ كمن ينظر إلى رجل فقد عقله.. كررت جملتي:

- حمداً لله، وهذا يعني أنهم لم يلقوا القبض عليها.. إنها خرجت

بقصد الفسحة فقط.

كرر لاخمان ما قلته.. سألني:

- ماذا حل بك؟

- حققوا معي، وكما ترى أفلتُّ من بين أيديهم.

- من الشرطة؟

- بل من الجستابو.. لكن مضى كل شيء.. عد إلى النوم.

- هل يعلم الجستابو بمكانك؟

- لو علم بذلك لما كنت هنا، وسأغادر المدينة قبل الفجر.

- لحظة فقط..

ثم أخرج من جيبه عدة صور للقديسين ومسابح وناولني إحداها.. ثم قال:

- خذها فهي تصنع الأعاجيب في بعض الأحيان.. هل تذكر هيرش؟ لقد ساعدته في الهروب من على الحدود.. لا تنسَ أن سكان جبال البرينيه أتقياء جدًّا وأن هذه الصور والأيقونات باركها البابا نفسه.

- حقًّا؟

ابتسم ابتسامة رائعة:

- إن قامت هذه الأشياء بإنقاذنا عندها ستكون مباركة من الله نفسه.. إلى اللقاء يا شفارتس!

عدت إلى غرفتنا وأخذت أحزم الأمتعة.. شعرت بالفراغ في داخلي، لكنني كنت مشدود الحواس كطبل فارغ. اكتشفت في جارور هيلين رزمة الرسائل ورأيت أنها مرسلة على عنوان مرسيليا، لم أفكر بها ووضعتها في الحقيبة إلى جانب الثوب الباريسي، ثم ذهبت إلى المغسلة ووضعت يدي في الماء البارد، فلقد كانت الأظافر المحروقة تؤلمني. كنت أتألم عند التنفس.. نظرت إلى أسطح المنازل المبتلة ولم أفكر بشيء.

سمعت أخيراً وقع خطوات هيلين.. وقفت في الباب كشبح جميل محطم.. سألتني سؤالاً يدل على عدم علمها بشيء.

- ماذا تفعل هنا؟ ما بك؟

- علينا أن نغادر يا هيلين وعلى الفور.

- هل السبب هو جورج؟

أومأت برأسي وقد قررت ألا أخبرها إلا بالضروري.

سألتني بنبرة خوف واقتربت مني:

- ماذا حدث؟

- اعتقلوني اليوم لكنني أفلتُّ منهم. إنني متأكد من أنهم سيبحثون عني.

- هل سنغادر؟

- على الفور.

- إلى أين؟

- إلى إسبانيا.

- وكيف؟

- سنرحل بسيارة.. هل تستطيعين أن تجهزي نفسك؟

- نعم.

مشت مترنحة.. سألتها:

- هل تشعرين بالألم؟

أومأت.. سألت نفسي عن ذلك الشبح الواقف في الباب.. من هو؟ بدت لي غريبة. سألتها:

- هل ما زال لديك بعض الحقن؟

- قليل منها.

- سنبتاع بعضاً منها.

قالت:

- هل تستطيع أن تغادر الغرفة للحظة؟

خرجت ووقفت في الدهليز، رأيت سقوف أبواب مفتوحة، وظهرت من خلالها وجوه حشرية، وجوه كوجوه أقزام الأساطير بعين واحدة وفم معوج.. صعد لاخمان السلم بسرعة وحذر مرتدياً سروالاً رماديًّا فبدا كالجرادة. أعطاني زجاجة نصف ممتلئة من الكونياك وهمس:

- ستكون بأمسّ الحاجة إليها.

رفعتها على الفور إلى فمي ورشفت منها جرعة كبيرة.

قلت:

- لديَّ نقود.. خذ وأعطني زجاجة مليئة.

كنت قد وجدت في محفظة جورج نقوداً كثيرة.. فكرت لثانية واحدة برميها، لكنني لم أقم بذلك، وكذلك وجدت جواز سفره مع جواز سفري، وجواز سفر هيلين، وجدته محتفظاً بالثلاثة داخل جيب سترته.

حزمت ثياب جورج وعقدتها بحجر ورميتها في الميناء.

تفحصت جواز سفره على ضوء مصباح وبعدها ذهبت إلى غريغوريوس. أيقظته وطلبت منه أن نستبدل صورة جورج بصورتي.. مانع بشدة في بداية الأمر.. كان عمله هو تزوير جوازات سفر المهاجرين وكان يتقن عمله كالآلة، لكنه لم يرَ طوال حياته جواز سفر لرجل جستابو كبير. أوضحت له أنه ليس من الضروري القيام بعمله كفنان يصر على توقيع لوحته.. إنني أتحمل المسؤولية ولن يعلم أحد بأمره.

مددت له أصابعي وأشرت إلى وجهي:

- سأغادر المدينة بعد ساعة ولا أستطيع التحرك كمهاجر بوجهي المشوه هذا.. عليَّ أن أجتاز الحدود، وهذه هي فرصتي الوحيدة. إليك جواز سفري! انسخ عنه صورة ثانية واستبدل بها صورة جواز سفر الجستابو. ماذا يكلف؟ إنني أحمل نقوداً.. وافق غريغوريوس أخيراً.

جاءني لاخمان بالزجاجة الثانية، دفعت له ثمنها ثم عدت إلى

الغرفة. كانت هيلين تقف إلى جانب السرير وتنظر إلى جارور الخزانة الصغيرة التي وجدت فيها الرسائل.. أغلقتها ودنت مني:

- هل الآثار على وجهك سببها جورج؟

- كنت في اتحاد المؤمنين.

- ليلعنه الله.

ثم اقتربت من النافذة.. عندما فتحتها قفزت القطة هاربة من الطقوس الروحية.

- لتحل عليه اللعنة.

كررتها بصوت حزين، لكنه مليء بالإصرار.. أخذت تكرر قولها وكأنها تقوم بأحد الطقوس الروحية.

- لتحل عليه اللعنة طوال حياته.. وإلى الأبد؟

أمسكت بيدها وسحبتها من أمام النافذة:

- علينا أن نغادر هذا المكان.

هبطنا السلم بينما تبعتنا النظرات حتى الأبواب ولوحت لنا يد رمادية.

- شفارتس! لا تحمل الكيس؛ فالشرطة تهتم بمن يحملون الأكياس على ظهورهم، لديَّ حقيبة جلدية رخيصة..

- شكراً لك، لكني لست بحاجة إلى حقيبة وكل ما أحتاجه الآن هو قليل من الحظ.

سارت هيلين أمامي وسمعت إحدى نساء الرصيف المبتلة بالمطر والواقفة أمام بابها تنصحها بأن تعود إلى بيتها؛ فالعمل الليلة أفسده المطر. حسناً، قلت في نفسي إننا بحاجة الآن إلى طرقات خاوية.. تراجعت هيلين لدى رؤيتها السيارة. قلت:

- سرقتها، وعلينا أن نبتعد بها من هنا قدر المستطاع.. هيا، اصعدي.

كان الظلام ما زال سائداً والمطر يهطل بغزارة كسيول، مرتطماً

بزجاج السيارة. أوقفت السيارة بعيداً بعض الشيء عن بيت غريغوريوس.

- قفي هنا.

قلت لهيلين وأشرت إلى سقف زجاجي فوق متجر عرضت في واجهته أدوات لصيد السمك.

- ألا أستطيع الجلوس في السيارة؟

- لا، وإذا مرَّ بك أحد تظاهري بأنك في انتظار بعض الزبائن. سأعود في الحال.

وجدت غريغوريوس قد نفذ عمله وقد تنحى خوفه جانباً ليحل مكانه غرور الفنان. قال:

- كانت الصعوبة تكمن في البزة؛ فأنت ترتدي ثياباً مدنية.. كما ترى: لقد قطعت رأسه.

كان قد فك صورة جورج الفوتوغرافية وقص الرأس والعنق ثم وضع صورة البزة فوق صورتي وصورها. قال بكبرياء:

- يا قائد فرقة الاقتحام شفارتس إن الختم نجح بصعوبة وستكون العاقبة وخيمة لو دقق أحدهم به.. إليك جواز سفرك سليماً.

أعاد لي جوازي السفر والقصاصات الباقية من صورة جورج الفوتوغرافية.. مزقت هذه البقايا إلى قطع صغيرة جدًّا أثناء هبوطي السلالم ورميت بها في المياه الجارية إلى جانب الطريق. انتظرت هيلين ريثما راقبت السيارة ووجدت أن خزان البنزين مليء وأستطيع أن أصل به إلى الحدود إن ساعدني الحظ. بقي الحظ حليفي؛ فلقد وجدت داخل الدرج الصغير إلى جانب المقود تذكرة عبور الحدود التي لم تستعمل إلا مرتين؛ لذا قررت عدم عبور نقطة الحدود التي عبرتها السيارة في المرات السابقة. وجدت إلى جانب تذكرة العبور زوجاً من القفازات جلدية وخارطة أوروبا معدة كدليل للسائق.

انطلقت السيارة تحت سيول من المطر وكان ما زال أمامنا بعض

الساعات حتى الفجر.. انطلقنا باتجاه بيربيون وقررت أن ألزم الطريق الرئيس مستغلاً وجود الظلام. سألتني هيلين بعد فترة:

- ما رأيك في أن أقود أنا السيارة؟

- هل تستطيعين القيادة وأنتِ لم تنامي هذه الليلة كلها؟

- أنت لم تنَم أيضاً.

نظرت إليها، فبدت نشيطة وهادئة ولم أفهم السبب وراء ذلك.

- هل تريدين رشفة من الكونياك؟

- لا، فأنا لا أشرب في أثناء القيادة.. سأنتظر حتى نحصل على فنجان قهوة في مكان ما.

- أعطاني لاخمان زجاجة كونياك ثانية.

أجابت بصوت حنون:

- فيما بعد، لكن حاول الآن أن تنام قليلاً، وهكذا نستطيع أن نتناوب القيادة.

كانت هيلين أمهر مني في القيادة.. بدأت تغني بعد فترة أغاني قصيرة ذات لحن رتيب. كنت قبلها متوتراً، لكنني ما لبثت أن أحسست ببعض الهدوء وبدأت في النوم نتيجة أزيز محرك السيارة المستمر وتلك الألحان التي كانت تغنيها هيلين. كنت أعلم أنه كان لزاماً عليَّ أن أخلد للنوم، لكنني ما ألبث أن أغط في النوم حتى أستفيق مذعوراً. أخذت الطبيعة الرمادية تعبرنا مسرعة، مما أجبرنا على استعمال الأضواء الكاشفة دون التقيد بنظام التعتيم السائد.

سألتني هيلين فجأة:

- هل قتلته؟

- نعم.

- هل اضطررت لذلك؟

- نعم.

تابعت القيادة وأخذت أحملق في الشارع وأفكر في أمور كثيرة ولم ألبث أن هويت مستلقياً كحجر. كان المطر قد توقف عن الهطول عندما استيقظت وقد طلع الفجر. سمعت صوت المحرك ورأيت هيلين تجلس وراء المقود وأحسست بأن كل ما مر بي لم يكن سوى حلم.

قلت:

- لم تكن هي الحقيقة التي أخبرتك بها.

أجابت:

- أعلم ذلك.

- كان شخصاً آخر.

- أعلم ذلك أيضاً.

لكنها تجنبت النظر إليَّ.

18

حاولت الحصول على فيزا إسبانية لهيلين في أكبر مدينة تسبق نقطة الحدود. كانت الجموع محتشدة أمام القنصلية.. لكني لم أجد خياراً غير المجازفة على الرغم من إمكانية تعميم أمر بالبحث عن السيارة. كان جواز سفر جورج يحتوي على فيزا.

قدت السيارة ببطء إلى مدخل القنصلية وأخذت الجموع المحتشدة أمام القنصلية تبتعد مفسحة الطريق لدى رؤيتها السيارة بشارتها الألمانية. أخذت السيارة مكاناً في طريقها للوصول إلى باب القنصلية وسط طريق مليء بالحقد. أدى لنا شرطي التحية وهذا ما لم يحدث لي منذ سنين. حييته بإهمال واتجهت إلى القنصلية. أفسح لي الشرطي المكان، فكرت بمرارة: على الإنسان أن يكون مجرماً كي يحظى بالتقدير. حصلت في الحال على الفيزا بعد أن أظهرت لهم جواز سفري. تفحص نائب القنصل وجهي، لكنه لم يستطِع رؤية يداي فلقد كنت لبست القفازين قبل تركي السيارة..

قلت له:

- إنها بقايا الحرب والقتال القريب.

هز رأسه متفهماً ثم قال:

- نحن أيضاً أمضينا سنوات في النضال.. يحيا هتلر! رجل عظيم كقائدنا.

خرجت ورأيت أن مجموعة أحاطت سيارتنا وجلس في المقعد الخلفي صبي يقارب الثانية عشرة من العمر وقد امتلأت عيناه بالخوف. التصق الصبي في المقعد الخلفي ولم يظهر سوى عينيه ويديه اللتين التصقتا ببعض.. قالت هيلين:

- علينا أن نأخذه معنا.

- لماذا؟

- لديه إقامة ليومين فقط، وبعدها سيلقى القبض عليه ويعاد إلى ألمانيا.

شعرت بالعرق ينساب على ظهري من تحت قميصي.. نظرت إليَّ هيلين وقد بدت هادئة ثم كلمتني بالإنجليزية:

- لقد أخذنا حياة أحدهم، وعلينا الآن أن ننقذ حياة شخص آخر.

- سألت الصبي:

- هل لديك أوراق؟

ناولني دون أن يتكلم إذن الإقامة. أخذتها منه وعدت إلى القنصلية. شعرت بثقل مهمتي والدخول ثانية إلى القنصلية، وخلت السيارة تحاول أن تعلن سرها عبر مئات المكبرات الصوتية. قلت للسكرتير بطريقة مسترخية جدًّا إنني نسيت أن أطلب فيزا ثانية للعمل خارج الحدود. دهش لدى رؤيته الوثيقة ثم ابتسم، غمز بعينيه وأعطاني الفيزا. صعدت السيارة وشعرت بأن الجموع المحيطة بنا ازدادت عدائيتها عن ذي قبل. ربما ظن أغلبهم أنني أختطف الصبي بهدف تسليمه إلى أحد المعتقلات.

غادرت المدينة آملاً في أن يستمر حظي وازدادت حرارة المقود بين يدي مع مرور كل ساعة. فكرت في أنه عليَّ أن أترك السيارة، لكنني لم أكن أدري ماذا سيحدث بعدها. إن هيلين أضعف من أن تقطع الممرات الجبلية، كما أن خسارة السيارة ستحطم الحماية الشبحية التي تقف حائلاً بيننا وبين أعدائنا. لم يكن بحوزتنا إذن مغادرة فرنسا، كما أن المسيرة مشياً على الأقدام تختلف عن السفر في سيارة فخمة.

تابعنا السفر في ذلك اليوم الغريب.. شعرت بانعدام الفارق بين هذا الجانب والجانب الآخر، وكأننا نجلس داخل مقصورة قطار معلق، بينما كنا نعبر حافة طريق ضيق وسط تلك الطبيعة الجبلية الشاهقة المتصلة بسماء غائمة. كان التشبيه الآخر الذي استطعت تخيله هو لوحه صينية

على القماش تظهر المسافرين وهم يسيرون على وتيرة عبر قمم جبال شاهقة، وغيوم وشلالات مياه. جلس الصبي متكوراً على المقعد الخلفي ولم يبدِ حراكاً. كان شكله يوحي بأنه لم يتعلم في أثناء طفولته سوى إساءة الظن بالجميع ولم يعد في استطاعته تذكر شيء آخر من أيام طفولته.

كان في عامه الثالث عندما حطم حاملو حضارة إمبراطورية الألف عام جمجمة جده، وكان في التاسعة عندما شُنق والده وأودعت أمه غرف الغاز.. إنه ابن حقيقي للقرن العشرين: فرَّ من المعتقل وبنى طريق عبور الحدود بمفرده.. لو ألقي القبض عليه لاتهم بخيانة الوطن وعلقت مشنقته.. إنه يسعى الآن للوصول إلى لشبونة؛ حيث يقطن عمه الساعاتي، هذا ما قالته له أمه في الليلة التي سبقت خنقها بالغاز: باركته وأعطته نصائحها الأخيرة.

سارت الأمور من دون صعوبات، ولم يسألنا أحد عن وثيقة إذن المغادرة.. كل ما قمت به هو إظهار جواز سفري بشكل سريع وتسجيل السيارة. أدت الشرطة التحية وارتفع حاجز الحدود وأصبحنا بعدها خارج فرنسا. لم تمضِ دقائق حتى دخلنا في حديث مع شرطة حدود إسبانيا الذين أخذوا يبدون إعجابهم بالسيارة ويسألوننا عن سرعتها القصوى. ذكرت لهم رقماً وبعدها أخذوا يتحدثون بحماس عن اسم آخر سيارة إسبانية ابتُكرت. أخبرتهم بأنني كنت أمتلك واحدة منها وأخذت أصف لهم شكل مبرد المحرك.. استظرفوا حديثي وسألتهم عن المكان الذي أستطيع فيه تعبئة خزان الوقود. أخبروني بأنه يوجد لأصدقاء إسبانيا صندوق خاص بما يتعلق بالوقود. لم يكن في حوزتي بيزيتا فقاموا بصرف الفرنكات الفرنسية ثم ودعناهم وداعاً شكليًّا لكنه ودي.

اتكأت على المقعد وشعرت باختفاء الحافة والغيوم وانبسط أمامنا بلد غريب، بلد لا يشبه أوروبا. لم يعنِ هذا أننا نجونا، لكن كانت هناك هاوية سحيقة تفصل إسبانيا عن فرنسا. رأيت الطرقات، الحمير، البشر، اللباس التقليدي والطبيعة الحجرية القاسية.. إننا في أفريقيا. شعرت بأننا أصبحنا

فعلاً في الجانب الغربي للبرينيه. نظرت إليَّ هيلين فرأيتها تبكي. همست:

- والآن! إنك وصلت المكان الذي ناضلت من أجل الوصول إليه.

لم أفهم ما رمت إليه؛ فلقد كنت ممتلئاً بشعور من عدم التصديق بأن الأمور سارت على هذا النحو. أخذت أفكر في اللياقة، التحية، الابتسام.. التقيتها جميعاً، لكنني ما كنت أفكر يوماً في أنه عليَّ أن أقتل في سبيل الوصول إليها وأعامل كما يجب أن يعامل البشر. سألتها:

- لماذا تبكين؟ إننا لم ننجُ؛ فإسبانيا ممتلئة برجال الجستابو، وعلينا أن نعبرها بسرعة..

أمضينا الليلة في إحدى المدن الصغيرة.. كان عليَّ أن أترك السيارة في مكان ما ونتابع بالقطار، لكنني لم أقُم بذلك لتأكدي من أن إسبانيا بلد غير آمن وعليَّ أن أغادرها في أقصى سرعة. أصبحت السيارة، بطريقة غيـر واضحـة، يمنـاً غامضـاً، وأبعـدت تقنيتها المطلقة عني الخوف الذي كنت أحمله تجاهها، كنت بحاجة ماسة إليها، ولم أعد أفكر في جورج الذي حلَّق لفترة طويلة كتهديد فوق حياتي، أما الآن فقد اختفى، وهذا الإحسـاس تجاهـه بقـي عالقـاً فـي داخلي.. فكرت بليشـلر الذي ما زال حيًّـا ويسـتطيع أن يرسـل أوامـره بالقبـض علينا عبـر الهاتف. كنت أعلم أن الدول كلها تسلم المطلوبين بتهمة القتل، ولا أستطيع إثبات الحدث على أنه موقف دفاع عن النفس إلا في مكان وقوع الحدث.

وصلـت فـي مسـاء الليلـة التاليـة إلـى الحـدود البرتغاليـة بعـد أن حصلت على الفيزا من دون عناء. طلبت من هيلين أن تبقى جالسة في السيارة وتركت المحرك يدور وطلبت منها أن تنطلق بها في اتجاهي إذا حدث عارض، عندها سـأقفز إلى داخل السـيارة وننطلق مسـرعين إلى نقطـة جمـرك الحـدود البرتغاليـة.. لا يمكـن أن يحدث لنا الكثير، فنقطة الحدود البرتغالية التي اخترتها كانت صغيرة جدًّا وإلى حين هروع بعض الموظفين وإطلاق الرصاص في وسط الظلام نكون قد ابتعدنا. أما ماذا

سيحدث في البرتغال، فهذا سؤال آخر.

لم يحدث أي من توقعاتي، ووقف رجال الحدود وسط هبوب الظلام وكأنهم أشخاص من لوحات غويا. حيّونا وتابعنا طريقنا إلى المنطقة البرتغالية؛ حيث عوملنا معاملة طيبة. لم نكد ننطلق بالسيارة حتى رأيت أحد الموظفين يهرع باتجاهنا ويشير لنا بأن نتوقف. فكرت بسرعة وتوقفت أنه لو تابعت السير لصدر أمر بتوقيفنا عند مدخل المدينة المقبلة. توقفت أنفاسنا أيضاً. وصل الموظف إلى حيث تقف السيارة وقال:

- لقد نسيت أن تأخذ تذكرة الحدود يا سيدي ومن دونها لا تستطيع العودة.

- شكراً لك.

تنفس الصبي الجالس في الخلف نفساً طويلاً وعالياً، وشعرت للحظة أنني فقدت جاذبية الثقل من شدة ارتياحي.

- إنك الآن في البرتغال.

قلت للصبي الذي حرر فمه من يديه ببطء واستلقى للخلف لأول مرة بعد أن أمضى السفرة بكاملها وهو متكور للأمام.

عبرتنا القرى مسرعة وسمعنا نباح الكلاب. رأينا نار حداد متوهجة بينما أخذ الحداد يطرق حافر جواد. توقف المطر وبدأت أنتظر شعور التحرر الذي انتظرته طويلاً لكنه لم يأتِ. كانت هيلين تجلس صامتة إلى جانبي. حاولت أن أكون سعيداً، لكنني شعرت بالفراغ في داخلي.

اتصلت هاتفيًّا من لشبونة بالقنصلية الأميركية في مرسيليا وسردت لهم ما حدث معي حتى اللحظة التي التقيت فيها جورج. أكد لي الرجل على الجانب الآخر من الخط أنني أصبحت في مأمن ووعدني أن يرسل لي الفيزا في حال الموافقة عليها إلى القنصلية الأميركية في لشبونة. كان علينا أن نتخلص الآن من السيارة التي قامت بحمايتنا لفترة طويلة، قالت هيلين:

- بعها.
- ألا تظنين أنه من الأفضل إسقاطها في البحر؟
أجابت:
- هذا لا يبدل الأشياء. إنك بحاجة إلى نقود؛ لذا عليك أن تبيعها.
كانت هيلين محقة، وبيعها سـهل جدًّا. أوضح لي المشتري أنه سيدفع جمركها وأنه سيطليها باللون الأسود.. كان المشتري تاجراً. بعته السيارة باسم جورج. شاهدت السيارة بعد أسبوع تحمل رقماً برتغاليًّا. كانت لشبونة غنية بالسيارات غير القانونية أمثال سيارتنا، لكنني تعرفت عليها عن طريق التجويف الصغير في جهتها اليسرى.. حرقت جواز سفر جورج.
نظر شفارتس إلى ساعته وتابع:
- لن يطول سرد ما تبقى. أخذت أقصد القنصلية مرة في الأسبوع.. أقمنا لفترة في أحد الفنادق، وأخذت أنفق ما تبقى من ثمن السيارة. صممت بأن أهيئ لهيلين جوًّا من الحياة الرغيدة.. وجدنا طبيباً ساعدنا في تأمين الأدوية لها.. زرت معها مرة الكازينو بعد أن استعرت من دكان إعارة بزة سوداء، أما هيلين فلقد لبست ثوبها الباريسي وابتعت لها حذاء ذهبيا لأنها نسيت حذاءها في مرسيليا.
- هل زرت الكازينو؟
- نعم، للأسف فلقد قصدته ليلة البارحة، وإنني أعترف بأنها غلطة.
قال شفارتس:
كنت أريدها أن تلعب بالفيش.. أخذت هيلين تربح وتربح ولم يتوقف شريط حظها هذه المرة. كانت ترمي الفيش بإهمال، لكن الأرقام أخذت تتابع لصالحها. كانت الفترة الأخيرة بعيدة جدًّا عن الواقع، وشعرت بأن الحياة اتخذت الطابع الذي عشناه في القصر. أخذ الواحد منا يخادع الآخر، لكنني شعرت، للمرة الأولى، بأنني أمتلك هيلين على الرغم من انزلاقها يوماً فيوماً من بين يدي، شأني شأن أي محب. لم

تستسلم، لكنها تركت النضال جانبا.. مرت بنا ليالٍ من العذاب، ليال كانت تمضيها في البكاء، لكن إلى جانب هذه مرت بنا لحظات سماوية تكثفت فيها الحلاوة، عدم الأمل، التعقل، وحب بعيد كل البعد عن حواجز يفرضها الجسد ووجدت نفسي حيالها متخوفاً من القيام بأي حركة لشدة عظمتها.

- يا حبيبي.

قالتها في إحدى الليالي.

- لن نرى معاً أرض الموعد التي انتظرتها طويلاً.

كانت هذه هي المرة الوحيدة التي تكلمت فيها بهذا الأمر. اصطحبتها من بعد ظهر أحد الأيام إلى الطبيب، وفجأة شعرت، وكوميض البرق، بالثورة العاجزة التي يشعر بها المرء عندما يتأكد أنه ليس بإمكانه التمسك بمن يحب.

قلت لها بصوت مختنق:

- هيلين! ماذا أصبحنا؟

صمتت ثم هزت رأسها وابتسمت:

- أصبحنا ما استطعناه، وهذا يكفي.

بعدها جاء اليوم الذي أعلمتني فيه القنصلية بحدوث المعجزة، بأن وصلنا إذنا الفيزا. تأكدت أن مزاجية مخمور التقيناه صدفة حققت أكثر مما حققته التوسلات كلها.. ضحكت ضحكة هستيرية.. يستطيع المرء أن يضحك كثيراً في عالمنا المليء بأمور مضحكة.. ألا ترى ذلك أيضاً؟

قلت له:

- لكن الضحك لا بد أن يتوقف يوماً.

أجاب شفارتس:

- كان من الغريب حقًّا أننا ضحكنا كثيراً في الأيام الأخيرة وأحسسنا بأننا نوجد في ميناء لا تلامسه الريح. أبحرت المرارة واستنفدت الدموع

وأصبح الأسى شفافاً لدرجة أنه كان يصعب تفريقه عن البهجة المؤلمة بسخريتها.

استأجرنا بيتاً صغيراً، لكنني، كالأعمى، أخذت ألاحق مخططي في الوصول إلى أمريكا. لم تكن هناك سفن تبحر إلى أمريكا إلى أن جاءت هذه السفينة، بعت لوحة إنجر الأخيرة واشتريت بثمنها تذكرتي سفر. كنت سعيداً وظننت أننا نجونا على الرغم من الجميع، على الرغم من الأطباء.. لا بد أن تكون هناك أعجوبة أخيرة.

أجل موعد سفر الباخرة لعدة أيام.. ذهبت قبل البارحة إلى مكتب السفريات وعلمت أن موعد إبحار السفينة أُجل إلى اليوم. أخبرت هيلين بذلك وخرجت لابتياع بعض الحاجيات، ولما عدت وجدتها ميتة وقد هشمت جميع المرايا ومزق ثوبها الباريسي الموضوع إلى جانبها.. كانت ممددة إلى جانبه وليس في السرير. ظننت في البداية أنها حالة سطو ثم فكرت أن أحد رجال الجستابو قتلها، لكن لو كان الأمر هكذا لكنت أنا المستهدف وليست هي. لكن فيما بعد، عندما لم أجد أشياء أخرى محطمة سوى المرآة والثوب فهمت الأمر.. تذكرت السم الذي أعطيتها إياه في أحد الأيام، والتي ادعت فيما بعد أنها أضاعته. وقفت وحملقت بها ثم أخذت أبحث عن رسالة، لكنني لم أجدها.. لم أجد شيئاً. ذهبت دونما كلمة.. هل تفهمني يا سيدي؟

- نعم.

- هل تفهم هذا حقًّا؟

أجبته:

- نعم، وماذا كانت ستكتب لك؟

- أي شيء.. لماذا أو...

صمت. كان يفكر بلا شك في كلمة أخيرة.. يبحث عن تأكيد حب.. عن شيء يمكن أن يحمله معه في رحلة وحدته.. علمته الحياة

عدم الاكتراث بالكلمات ذات القوانين المرسومة، لكن لم يتخلص من هذا القالب.

قلت له:

- لم تكن لتنتهي يوماً من الكتابة لو أنها باشرت بها. إنني أظن أنها قالت لك بعدم كتابتها أكثر مما كانت تستطيع أن تعبر عنه في كلمات.

صمت وراح يفكر ثم همس:

- هل رأيت اللافتة في المكتب السياحي: تأجلت الرحلة ليوم آخر؟ هذا يعني أنها كانت ستعيش يوماً آخر لو علمت بذلك.

- لا.

- قامت بالانتحار لأنها كانت ترفض فكرة الذهاب إلى أمريكا.

هززت رأسي نافياً ثم أجبته برفق:

- إنها انتحرت لنفاد قدرتها على تحملِ الألم يا سيد شفارتس.

أجاب:

- لا أستطيع التصديق.. لماذا انتحرت في اليوم الذي سبق إبحار السفينة؟ هل ظنت أن أمريكا لا تسمح بدخول المرضى إليها؟

- لماذا لا تترك للميت أمر تقرير الوقت الذي لا يستطيع فيه تحمل الأوجاع؟

حملق بي فتابعت حديثي:

- لقد تحملت أقصى حالات الألم من أجلك.. ألا تستطيع فهمها؟ فقط من أجلك، ولم تسمح لنفسها بالرحيل إلا عندما أحست بأنك نجوت.

- لكن لو لم أكن أعمى بهذا الشكل.. لو لم أصر على الرحيل إلى أمريكا.

- يا سيد شفارتس.. لم تكن هذه الأمور لتوقف المرض.

حرك رأسه بطريقة غريبة ثم همس:

- رحلت، وفجأة أشعر بأنها لم توجد يوماً.. نظرت إليها لكنني لم أتلقَّ جواباً.. ماذا فعلت؟ قتلتها أنا أم أسعدتها؟ هل أحبتني أم كنت لها مجرد عصا تستند إليها بمسيرتها وفي الوقت الذي يحلو لها؟ إنني لا أجد جواباً.

- هل تصر على سماع الجواب؟

أجاب فجأة بعد فترة صمت:

- لا.. اعذرني! لا أظن أنه ممكن.

- لا يوجد جواب.. لا يمكن أن يوجد جواب آخر غير الذي ستجيب به على نفسك.

همس:

- سردت لك القصة لسماعها منك.. ماذا كانت حياتي؟ هل كانت حياة لا معنى لها وحياة إنسان عديم الفائدة، حياة محب قاتل؟

قلت:

- لا أعلم، لكن إن أردت معرفته فربما كانت حياة عاشق، وإذا كنت لا تمانع ربما كانت حياة قديس. ألا تظن أنه ليس مهمًّا الاسم الذي نسميها به؟ الأهم في ذلك أنها كانت موجودة.. ألا تكفي هذه الحقيقة؟ كانت موجودة ما دمت أنت موجوداً.

همس شفارتس:

- نحن فقط نستطيع أن نحتفظ بها، أنت وأنا ولا أحد سوانا.

ثم حملق بي:

- لا تنسَ ذلك.. على أحدنا أن يتمسك بها كي لا ترحل! إننا اثنان وأنا أعلم أنها لن تكون بمأمن عندي.. يجب ألا تموت بل يجب أن تحيا.. إنها بمأمن لديك!

تملكني على الرغم من كل الشك إحساس غريب.. ماذا يريد هذا الرجل مني؟ هل يريد أن يحملني ماضيه إلى جانب جواز سفره؟ هل

يريد أن ينتحر؟ سألته:

- لماذا على الذكرى أن تموت داخلك؟ إنك ستعيش يا سيد شفارتس..

أجاب بهدوء:

- لن أنهي حياتي.. لن أنتحر بعد أن رأيت ليشلر وهو لا يزال حيًّا، لكن ذاكرتي ستحاول تحطيم هذه الذكرى.. ستحاول أن تمضغها، تقطعها وتغيرها، حتى تصبح أهلاً للحياة وتفقد خطورتها. إنني متأكد من أنني لن أستطيع سرد هذه الأحداث على حقيقتها بعد بضعة أسابيع؛ لذلك طلبت منك أن تصغي لحكايتي هذه الليلة. ستبقى كما هي في ذاكرتك من دون تزوير وبهذا تفقد خطورتها.. على هذه الذكرى أن تبقى في مكان ما.. عليها أن تبقى في داخل أحد على حقيقتها ولو لوقت قصير.

أخرج جوازي سفر من جيبه ووضعهما أمامي:

- هذا جواز سفر هيلين أيضاً، أما البطاقات فأصبحت ملكك منذ فترة.. الآن أصبحت لديك فيزتان لأمريكا.

ابتسم ابتسامة تشوبها الظلال وصمت.. حملقت في جوازي السفر ثم سألته بصعوبة:

- ألا تحتاج حقًّا لجواز سفرك؟

قال:

- بإمكانك أن تعطيني جواز سفرك بالمقابل.. إنني بحاجة لجواز سفر لمدة يوم أو يومين من أجل عبور الحدود.

نظرت إليه:

- لا يطلب جواز السفر في الفرقة الأجنبية للمتطوعين. إنك تعرف أن هذه الفرقة تقبل بالمهاجرين. إنها جريمة حقًّا أن يقضي الإنسان نحبه بالانتحار بينما ما زال هناك بشر كليشلر يقضون على أمثالنا ببربرية كاملة.

أخرجت جواز سفري من جيبي وناولته إياه وقلت:

- شكراً.. شكراً قلبيًّا لك يا سيد شفارتس.

- إليك بعض النقود المتبقية، فأنا لست بحاجة إلا للقليل منها.

نظر شفارتس إلى الساعة:

- هل تستطيع مساعدتي للمرة الأخيرة؟ سوف يأتون لأخذها بعد نصف ساعة. هل ترافقني إليها؟

- نعم.

سدد شفارتس الحساب وخرجنا إلى الصباح الصاخب. في الخارج كانت ترسو السفينة بيضاء مضطربة.

وقفت في الغرفة إلى جانب شفارتس. كان إطار المرآة المحطمة ما زال معلقاً، لكن لم يعد أثر لوجود قطع الزجاج المهشم.. سألني شفارتس:

- ألم يكن من الأهم أن أمضي الليلة الأخيرة إلى جانبها؟

- لقد كنت معها.

كانت المرأة في نعشها شأنها شأن جميع الموتى: ذات وجه رافض.. لم يعد يثير اهتمامها أحد: لا شفارتس ولا أنا ولا ذاتها. لم أستطِع تخيل شكلها فيما سبق. ما رأيته لم يكن سوى تمثال. حاولت تصور هذا التمثال لو كان يتنفس فكانت الصورة شفارتس، أما هو فظن أنني التقطتها من ذاكرتي. قال:

- إن لديها... كان هناك بعض...

ثم أخرج من درج الدولاب بعض الرسائل وقال:

- إنني لم أقرأها.

أخذتها وفكرت في أن أضعها في النعش، لكنني تذكرت أن الميتة ملك شفارتس وحده. هذا ما يظنه.. رسائل الآخرين ليست لها؛ لذلك رفض أن يعطيها إياها إلى مثواها الأخير، لكنه لا يريد أن يقلقها لأنها كانت في يوم ما ملكاً لها. وضعتها في جيبي.

- سآخذها.. إنها لا تساوي شيئاً.. إنهم تساوي أقل من قطعة نقود يصرفها المرء من أجل الحساء.

أجاب:

- عكاكيز! إنني أعرف ذلك. لقد سمتهم مرة عكاكيز تستعملها كي تبقى وفية لي.. هل تفهم هذا؟ إنه جنون.

- لا.

قلت له بحذر وقد ملأتني شفقة العالم بأسره:

- لماذا لا تتركها وشأنها؟ لقد أحبتك وبقيت إلى جانبك طوال الفترة الممكنة.

حنى رأسه موافقاً وبدا فجأة ضعيفاً جدًّا. ثم همس:

- هذا ما كنت أريد معرفته.

ارتفعت درجة حرارة الغرفة وعبقت بالرائحة والذباب والشمع المطفأ، بأشعة الشمس المقبلة من الخارج وبالميتة. رأى شفارتس نظرتي وقال:

- ساعدتني امرأة. الغربة صعبة. الطبيب. الشرطة. جاؤوا وأخذوها. أعادوها مساء الأمس. عاينوا سبب الوفاة..

نظر إليَّ حائراً:

- قالوا إنها ليست كما كانت.. قالوا لي ألا أرفع الغطاء عنها.

دخل الحمالون الغرفة وأغلقوا غطاء النعش.. ترنح شفارتس.

قلت:

- سأرافقك.

لم يكن المكان بعيداً.. أشرق الصباح وعصفت الريح بسرعة وكأنه كلب قطيع يركض وراء قطيع من الغيوم.. وقف شفارتس صغيراً وتائهاً تحت سماء المقبرة الواسعة.

سألته:

- هل ستعود إلى شقتك؟

- لا.

كان قد حمل معه حقيبة صغيرة.. سألته:

- هل تعرف أحداً يستطيع تزييف الجوازات

- غريغوريوس، قدم إلى لشبونة منذ أسبوع.

ذهبنا إلى غريغوريوس. أنهى تزييف جواز سفر شفارتس، فلم يكن من الضروري إتمامه بدقة.. كان شفارتس يحمل معه عنواناً للانضمام إلى الفرقة الأجنبية.. إنه يحتاج إلى جواز سفري لعبور الحدود ثم رميه في مخيم الفرقة الأجنبية التي لا تهتم بماضي المقبل إليها.. سألته:

- ماذا حدث للصبي الذي عبر معكما الحدود؟

- عمه يكرهه، لكن الصبي سعيد بأنه إلى جانب الغرباء على أن يكون إلى جانب فرد من عائلته يكرهه.

نظرت إلى الرجل الذي أصبح يحمل اسمي.

- أتمنى لك التوفيق.

قلت له مودعاً وتجنبت تسميته بشفارتس. لم يخطر ببالي سوى هذه العبارة المبتذلة:

- لن أراك مرة ثانية، وهذا هو الأفضل؛ فأنا حدثتك الكثير عن نفسي، الأمر الذي يمنعني من محاولة رؤيتك ثانية.

لم أكن متأكداً مما يقول.. ربما حدث في المستقبل أن يسعى لرؤيتي لهذا السبب بالذات، فأنا أصبحت، حسب تصوره، الوحيد الذي يحمل صورة غير مزيفة عمَّا أراده القدر له. ربما كرهني لهذا السبب؛ لأنني أصبحت بالنسبة له الشخص الذي أخذ زوجته منه، لكن من دون عودة وإلى الأبد، ولأنه يظن أن ذاكرته ستخونه بينما ستبقى ذاكرتي صافية.

نظرت إليه وهو يبتعد، يحمل في يده حقيبة.. شخص بائس.. صورة المخدوع الأبدي، صورة العاشق الكبير الأبدي، لكن ألم يمتلك

الأشخاص الذين أحبهم بعمق أكثر من صورة هؤلاء المنتصرين الأغبياء؟ ماذا نمتلك في الحقيقة؟ ولماذا هذا الصمت حول أشياء لا يمكن أن تزهر إلا إذا نظرنا إليها كإعارة لبعض الوقت؟ لماذا هذه المقولات كلها حولها؟ وما أهمية النقاش حول قوة أحد في امتلاكها إذا كانت كلمة امتلاك لا تعني سوى احتضان الهواء؟

كنت أحمل معي صورة لزوجتي؛ فقد تعودنا على حمل الصور الفوتوغرافية معنا باستمرار من أجل وثائق السفر. قام غريغوريوس بعمله في الحال. لم أتركه لعدم قدرتي على ائتمانه على الجوازين. انتهى منهما عند الظهيرة. انطلقت إلى الجحر الذي كنت أسكنه. وجدت روث متكئة إلى النافذة وتنظر إلى أطفال الصيادين في الفناء.

- هل ضعت؟

سألتني عندما عتبت الباب.

رفعت لها جوازي السفر:

- سنرحل غداً. سنرحل باسمين جديدين، وكل منا باسم يختلف عن الآخر.. علينا عندما نصل إلى أمريكا إبرام عقد زواج جديد.

لم أفكر في أنني أحمل جواز سفر رجل مطلوب بتهمة القتل. غادرنا لشبونة في مساء اليوم التالي ووصلنا أمريكا من دون صعوبات، لكن جوازي سفر هذين العاشقين لم يجلبا لنا الحظ؛ طلبت روث الطلاق بعد وصولنا أمريكا بنصف ساعة. كان علينا، من أجل إجراء مراسم الطلاق، الزواج أولاً. تزوجت روث فيما بعد ذلك الأمريكي الثري الذي زود شفارتس وزوجته بالفيزا. وجد القصة غريبة وكان شاهد زواجنا الثاني. بعد ذلك بأسبوع وقعنا على طلاقنا في المكسيك. أمضيت فترة الحرب في أمريكا.

الغريب في الأمر أنني بدأت أهتم بفن الرسم الذي لم أتنبه له في السابق.

ربما كان هذا إرث شفارتس الأول البعيد الميت.. كنت أفكر في

بعض الأحيان بشفارتس الثاني وأتساءل إن كان ما زال على قيد الحياة.. لكن كثيراً ما كان الاثنان يختلطان معاً ليكونا غيمة من الدخان أشعر بوجودها حقيقية وأنها تحاول أن تؤثر عليَّ على الرغم من معرفتي أن هذا الشعور هو ضرب من الجنون فقط. وجدت أخيراً وظيفة في متجر للوحات الفنية وملأت، فيما بعد، جدران غرفتي بلوحات ديغاس الذي أصبحت أكن له حبًّا كبيراً. فكرت مرات عدَّة بهيلين التي لم أشاهدها إلا بعد وفاتها، وكنت أراها كثيراً في أحلامي وفي أثناء وحدتي. كنت قد رميت الرسائل التي أعطاني إياها شفارتس في البحر في الليلة الأولى لرحلتنا ومن دون أن أقرأها. أحسست لدى محاولتي رميها بمقاومة وكان في داخلها حجر.. تحسسته في الظلمة، أخرجته ونظرت إليه فيما بعد. كان حجر ماس في داخله بعوضة صغيرة جدًّا وُضعت داخله منذ آلاف السنين وتحجرت.. احتفظت بها وحملتها معي: البعوضة الصغيرة بكفاحها ضد الموت داخل قفص من دموع ذهبية بقيت في داخلها بينما اختفت وتجمدت وافترست زميلاتها.

عدت بعد انتهاء الحرب إلى أوروبا. صادفت بعض المتاعب في التأكيد على شخصيتي الحقيقية في حين كانت أعداد كبيرة من أسياد البشرية في ألمانيا يحاولون التخلص من شخصياتهم الحقيقية. أهديت جواز سفر شفارتس لمهاجر روسي عبر الحدود وكانت قد بدأت موجة مهاجرين جديدة في النشوء.. يعلم الله أين مكانه الآن.. لم أسمع شيئاً عن شفارتس. سافرت مرة إلى أوسنابروك وحاولت العثور عليه على الرغم من أنني نسيت اسمه من زمن. لكن المدينة كانت مهدمة.. لم يعرف أحد عنه شيئاً، كما أنه لم يكن هناك من يهتم بهذه المواضيع.. خلت في طريق عودتي إلى محطة القطار أنني رأيته. لحقت به، لكن كان الشخص الذي أوقفته سكرتيراً في البريد، متزوجاً، قال لي إن اسمه يانزن وله ثلاثة أطفال.





ليلة لشبونة

ليلة لشبونة تلخص ـ بكثافة إنسانية ـ الإيقاع المأساوي الذي تركته النازية على حياة الناس.. رواية تدور في ليلة واحدة، لكن الأحداث تمتد لتروي حكايات المهاجرين الألمان الهاربين من القبضة الفاشية يعود ريمارك في هذه الرواية لتناول موضوع قدره المشؤوم.
فهذا الكتاب هو أكثر كتب ريمارك تأثيرًا في النفس الإنسانية؛ وذلك بحكم قربه من الواقع.. رواية متميزة تسرد ـ على الرغم من غرابة ظروفها ـ قصة حب كبير يربط بين شخصين ويدفعهما إلى مقاومة الموت وإعادة اكتشاف الحياة.

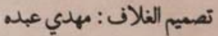
وُلد إريش ماريا ريمارك عام 1898 في مدينة أوسنابروك في ألمانيا تطوع عام 1916 في الجيش؛ حيث شارك في الحرب العالمية الأولى نشر عام 1929 روايته الأولى (لاجديد في الجبهة الغربية)، التي كرسته كواحد من أكثر كتاب ألمانيا شهرة، وفي عام 1933 أحرق النازيون كتبه بتهمة أنها تمثل خيانة أدبية بحق الجندي الألماني . بالإضافة إلى (ليلة لشبونة) 1962، و(لا جديد في الجبهة الغربية) نشر ريمارك (طريق العودة) عام 1939 و(قوس النصر) 1946 و(شرارة الحياة) 1952 و(وقت للحياة ووقت للموت) 1952 و(ثلاثة رفاق)







للنشر والتوزيع


تصميم الغلاف : مهدي عبده